في الثقافة الشعبية العربية

الرحمة والحكمة في الطب والأمثال

الدكتور عاطف عطيّه

في الثقافة الشعبية العربية

الرحمة والحكمة في الطب والأمثال



جرّوس برس ناشرون
Jarrous Press Publishers

الكتاب: في الثقافة الشعبية العربية، الرحمة والحكمة في الطب والأمثال

المؤلف: الدكتور عاطف عطيه

الموضوع: سوسيولوجيا التراث

القياس: 16.5 x 23.5

عدد الصفحات: 272

© جرّوس برّس ناشرون

Jarrous Press Puplishers

شارع جميل عدرة، باسل سنتر

ص.ب. : 189، طرابلس، لبنان

تلفاكس: 208205 6 961+

jarrous.press@gmail.com

info@jarrouspress.com

www.jarrouspress.com

الإخراج الفني: وسام عطية

ISBN: 978-614-481-006-4

إلى عاطف الثاني...

الحفيد الذي أمدّني بشعور جديد

لم أعرفه من قبل..

مقدمة

يـأتي الكتـاب الرابـع مـن مدوّنـة الثقافـة الشـعبية العربيـة ليبحـث في أصـول الطـب الشـعبي العـربي ومصـادره الأساسـية التـي انتجـت مـا توصّـل إليـه العرب والمسـلمون مـن إنجـازات في هـذا المجـال، وقـد بـرع منهـم الكثـيرون عـلى صعيـد العـالم كلّـه في زمـن النهضـة العربيـة الاسلامية في القرنـين الرابـع للهجـرة والعـاشر للميـلاد. ولأن الطـب يولـد شـعبياً في الأسـاس، ومسـتخلصاً مـن تجـارب النـاس في حياتهـم اليوميـة القائمـة عـلى التجربـة التـي ينشـأ عنهـا الصـواب والخطـأ بعـد طـول تكـرار، كان عـلى هـذا الطـب البِـدئي أن يتحـول إلى مهنـة رسـمية تقـوم عـلى التأمـل في حـال المريـض، ومعرفـة أعـراض المـرض بالنظـر والاسـتجواب والتحليـل، ومـن ثـم التشـخيص وتحديـد العلّـة، وتحضـير العـلاج المناسـب للتخلـص مـن المـرض والوصـول إلى الشـفاء التـام.

إلا أن مـا يهمنـا مـن البحـث في الطـب العـربي، هـو ذلـك الجانـب الشـعبي منـه الـذي بـدأ مـع بـداءة العـرب في تعاطيهـم مـع المـرض والاعتـلال الجسـماني عـلى أي وجـه كان. ومـن ثـم تتبّـع هـذه الرحلـة ولحـظ محطـات مسـارها، إن كان في مراحلهـا الصافيـة باعتبارهـا شـعبية، أو تزامنهـا مـع بدايـات التوجـه العقـلاني في الطـب، ومـن ثـم التـوازي في مسـيرتها مـع الطـب الرسـمي الـذي وصـل إلى أعـلى درجـات التقـدم والرقـي مـع ابـن سـينا والـرازي وابـن النفيـس والزهـراوي وابـن الهيثـم، وكثيريـن غيرهـم.

كانـت حصيلـة مـا توصّـل إليـه الطـب الشـعبي، بالإضافـة إلى مـا شـكّل حصيلـة أوّليـة للطـب الرسـمي، الإفـادة مـما قدمتـه الشـعوب المجـاورة مـن إنجـازات في هـذا المجـال، إمـا للوقايـة مـن الأمـراض المنتـشرة في مناطقهـم، أو لمعالجـة مـا يعتريهـم مـن أمـراض خلّفتهـا ظـروف معيشـتهم وأحـوال مناخهـم ومـا ينبـت عندهـم مـن أعشـاب، أو مـا يمكـن اسـتخراجه مـن أعضـاء الحيوانـات وصنـوف الجـماد المعروفـة لديهـم. وقـد وصلـت مجموعـة هـذه الانجـازات إلى العـرب بالإضافـة إلى مـا قدّمـوه هـم أنفسـهم في هـذا المجـال إلى أيـد أمينـة عشـيّة ظهـور الاسـلام، وبـروز عبقريـة الرسـول محمـد نبـي المسـلمين؛ وهـي

العبقرية التي تجلّت في ممارساته الدنيوية والدينية، إلى الدرجة التي اعتبر فيها الطبيب العربي الأول لما ظهر على يديه من معالجات طبية لا تزال حيّة في نفوس المؤمنين إلى اليوم، بالإضافة إلى نصائحه التي ذكرت ما يمكن تناوله من صنوف الأعشاب، ومن أعضاء الحيوانات أو ما تدرّ به على الناس، ومن صنوف الجماد. وقد عمل الطبيب العربي المشهور إبن قيم الجوزية على جمع هذه المعالجات والنصائح في كتاب خاص أطلق عليه إسم «الطب النبوي»، وهو من الكتب المشهورة الذي قلما يخلو منه بيت مسلم. وهو الكتاب الذي سيكون محور بحثنا ومصدرنا الأساسي في النظر إلى الطب الشعبي العربي.

إلا أن ما ينبغي التأكيد عليه، أن هذا النوع من الطب لم يتسمّ بهذا الاسم إلا عند بروز الطب الرسمي القائم على العلم والمعرفة؛ وهما المُنتَجان بالعقل والتجربة المختبرية اللذين توصّلا إلى تعميم النتائج كمبادئ علمية، بعد طول بحث وتحليل. وعليه، ما كان بمقدورنا الكلام على الطب الشعبي لولا وجود ما هو موسوم بالطب الرسمي. وقد فصّلنا القول في ذلك.

في زمن الرسول وما بعد، ولمدة طويلة، كان الطب النبوي المصدر شبه الوحيد للمعالجات الجسمانية، وللوقاية من الأمراض؛ هذا طبعاً، بالإضافة إلى ما كان يطرأ من انجازات جديدة في هذا المجال لدى الشعوب المجاورة، المسلمة وغير المسلمة، وخصوصاً في الهند واليونان؛ وهي التي تصل عن طريق الحملات التجارية، أو العسكرية، أو ما يُطلق عليها عموماً بعمليات التثاقف المتبادلة.

وما يهم القول، إن البحث هنا سيحاول تتبّع مسار الطب الشعبي منذ تلك الأزمنة إلى الزمن الحاضر، بصرف النظر عن مسار الطب الرسمي وإنجازاته التي دخلت حديثاً في باب الطب الشعبي بالمقارنة مع الانجازات الطبية الحديثة، إن كان تعليماً أو تخصصاً أو معالجة، مع كل ما يرافق ذلك من تقنيات وأدوات ومعالجات وصلت إلى مرحلة زراعة الأعضاء. وقد جاء كلامنا مفصّلاً حول هذه المسألة في متن الكتاب.

على أي حال، جاء بحثنا في الطب الشعبي العربي ليبيّن كيفية النظر إلى المرض، إن كان بالعقل أو بالسحر، مع التعريف بأنواع الأمراض التي كانت منتشرة، وأنواع العلاجات الموصوفة، وما يفيد منها للوقاية من أمراض بعينها، وأكثرها مستخرج من «الطب النبوي»، وما جاء، من بعد، مستلهماً ومسترشداً بما قدمه الطب النبوي في هذا المجال.

لا تخرج الأمثال الشعبية العربية عن هذا النمط من البحث. ذلك أن لكل شعب أمثاله، وبالتالي لكل مجتمع حصته المخصوصة من الأمثال، باعتبارها انتاجاً شعبياً، قبل أي شيء آخر، ومن ثم تتعدى حدود تداولها لتصير عمومية، للدرجة التي يمكن أن يُنسى مصدرها الحقيقي. ذلك أن الناس يمرون في مجريات حياتهم اليومية، وفي ممارساتهم العملية، بتجارب وأحداث متشابهة باعتبارها أحداثاً إنسانية، فيتكرر قولٌ، بمثابة ردة فعل، على موقف محدّد، أو حادثة معينة، أو وصف شخصية ما بالبخل أو الكرم أو الشجاعة أو المروءة. فتأتي ردة الفعل متشابهة، أو تستعاد ردة الفعل من موقف سابق تكرّر. لذلك، ليس من العجب أن نقرأ أمثالاً متشابهة في بلدان عربية متباينة البُعد، بالإضافة إلى تشابهها مع أمثال أجنبية لبلدان بعيدة. وهذا إن دل على شيء، فيدل إما على التشابه في الأحداث الإنسانية اليومية، أو على تأثير عامل التثاقف، من خلال نقل هذه الأحداث والتجارب عن طريق التجارة والحملات العسكرية.

من المهم التأكيد على أن الأمثال الشعبية العربية موجودة بكثرة على مواقع التواصل الاجتماعي، ولا فائدة من إعادة تكرارها هنا. ذلك أن أي مهتمّ بالأمثال الشعبية يمكنه الوصول إليها بسهولة ويُسر، وهي تعدّ بالآلاف، ومن كل البلدان العربية. كما يمكنه الحصول على ما يريد منها. كذلك ثمة المئات من الكتب تجمع كماً هائلاً منها. ولا فائدة من التكرار. إلا أن هذه المواقع والكتب تتناول الأمثال مرتّبة حسب الحروف الألفبائية، ولا معنى لهذا النمط من الجمع سوسيولوجياً. ذلك أن للمثل الشعبي مناسبة خاصة لقوله، ومن ثم تكراره. وهذه المناسبة سوسيولوجية في الأساس تجري بين الناس بصورة عفوية، وغالباً غير مفكّر فيها. فيأتي المثل ليوصّف حالة بعينها، وليعطيها مدلولاً محدّداً يعكس نمط حياة المجتمع المحلي، أو المتّحد

الاجتماعي، ونظرته إلى الحادثة أو المناسبة، موضوع المثل. وعليه، يمكن من خلال الأمثال معرفة قيم وتقاليد وعادات هذا المجتمع أو ذاك، والتعرف على كيفية نظرته إلى الحياة، وإلى الإنسان، وإلى الوجه الأفضل للعلاقات الإنسانية. والأفضل هنا نسبيّ في الأساس، إذ يمكن أن يكون الأفضل هنا، الأسوأ هناك، حتى ضمن المجتمع نفسه. لذلك يمكن أن يكون الجار قبل الدار، كما يمكن أن يكون مصيبة.

وعليه، كان لا بد من أخذ عينة من الأمثال المنتشرة في المشرق العربي، وهي بلا شك معروفة في بقية البلدان العربية، وتصنيفها حسب موضوعها، ومن ثم تحليلها لنستكشف من بعد، أنماط تفكير الناس، والقيم التي يؤمنون بها ويمارسونها حتى دون أن يفكروا فيها. طبعاً، هذا في الزمن الذي انتشر المثل باعتباره المعبّر الوحيد عن ذهنية الناس، والتجلي الرئيسي لقيمهم وتقاليدهم وعاداتهم. وقد رأينا من بعد البحث والتحليل كيفية ولادة المثل، وتعبيره عن حالات بعينها. منها ما بقي مستمراً وحافظ على معناه باستمرار الظروف التي أوجدته، ومنها ما توقّف العمل به لانتهاء مدة صلاحيته لانتفاء تكرار حدوث الظروف والمناسبات المنشئة له. والأمثال المتعلقة بالكنّة والحماة خير دليل على ذلك، في زمن تشكّل الأسرة النواتيّة.

هذا هو الكتاب الرابع من مدوّنة الثقافة الشعبية العربية. وقد جاء ليبيّن إلى أي مدى وصل الطب العربي في توجهه الشعبي والرسمي في علاقته مع جسد الإنسان ونفسه، في الوقت الذي كان الغرب يتلمّس طريقه في التعامل مع الطب؛ وإلى أي مدى وصلت الأمثال الشعبية في رصدها لأنماط سلوك الناس وطرق تفاعلهم وعمق فلسفتهم في مجرى حياتهم اليومية.

لقد رأيت أنني قدمت شيئاً جديداً في مجال تحليل ومناقشة وتفسير كل ما له علاقة بالطب الشعبي العربي والأمثال الشعبية العربية.

إنها محاولة، وأرجو أن أكون قد وُفقت في ذلك.

النخلة، الكورة، 20 حزيران/ يونيو 2018

عاطف عطيّه

الفصل الأول
الطب الشعبي العربي

من المهم، في البداية، التأكيد على أن استعداد الطبيعة إلى تلقّي الحياة والعيش فيها هو الذي أوجد الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان. ولأن الله جعل من الماء كل شيء حي، ومن الهواء متنفساً لهذه الكائنات، كان العيش ممكناً، والتطور متاحاً للإنسان فحسب، باعتباره الكائن العاقل الوحيد من بين كل الكائنات، وباعتباره القادر، بعقله، على الإفادة من كل ما هو موجود في الطبيعة من أجل ارتقائه وتقدّمه وترسيخ سيادته عليها جميعاً، حتى وصلت هذه السيادة إلى استغلال القوي للضعيف في العلاقات الإنسانية ذاتها، وفي إفادة الأقل معرفة من العارف في شؤون الحياة كافة.

أحوال الطب الشعبي وبداياته

هذه البدايات من التعامل مع شؤون الطبيعة أفسحت في المجال إلى بروز أفكار متعددة تقول، إلى جانب الاستغلال، بالتفاوت، والغنى، والفقر، والسحر، والعلاج، والموت، والقوى العظمى والآلهة، والخوف، واعتلال الجسم، وغيرها الكثير من الكلمات التي تدل على أحاسيس تكثر مع الأيام وتدلّ على ما يعتور الإنسان من شعور وعوامل نفسية. وكان أهم وأول ما تبادر إلى ذهنه في بدايات تفكّره كيفية القضاء على الجوع والعطش، والحماية من غوائل الطبيعة، بما فيها تعدّيات الحيوانات. فكان أول تعامله مع النباتات بمشاركة حيوانات كثيرة، دجّن عدداً كبيراً منها وأدخلها بالتدريج في منظومة غذائه، واصطاد غيرها. وكان منها ما يتغذى من اللحم، فدخل على الطبيعة، بذلك، منطقُ «الآكل والمأكول» في نظام فطري متدرّج من الأقوى إلى الأقل قوة، وصولاً إلى الأضعف الذي يؤكل

ولا يـأكل[1].

ولأن الكائـن الحـي ذو أعضـاء تعمـل لاسـتمرار حياتـه، كان لا بـدّ إلا أن تتعـب وتـكلّ وتقـصّر في إمـداد الجسـد بطاقتـه الكاملـة، فظهـر المـرض والاعتـلال. وبذلـك كان المـرض صنـو الحيـاة، وكان التفكّـر في كيفيـة درء المـرض، بالعـلاج والوقايـة لتسـتمر الحيـاة، الهاجـس الأسـاس للإنسـان، إلى أن تحـين لحظـة المـوت.

مـن نافـل القـول التأكيـد عـلى أن الإرهاصـات الطبيـة ترافقـت مـع الإنسـان، ومـع مـرض الإنسـان، منـذ وجودهـما. ولأن الإنسـان، بمـا هـو كائـن حـي، معـرّض للإصابـة بالاختـلال في جسـمه، وللـضرر مـن جـرّاء حـادث مـا، أو للمـوت مـن خـلال اشـتداد المـرض عليـه، فـإن التحـرّك لمداواتـه كان لا بـدّ حاصلاً، حتـى وإن كان باسـعاف المريـض أو الموجـوع بشربـة مـاء، أو بسـكبه عـلى الوجـه أو بتدفئتـه، وغـير ذلـك. ومـن ثـم بـدأت الاسـتعانة عـن طريـق التجربـة والخطـأ، بـكل مـا جـادت بـه الطبيعـة مـن نبـات وحيـوان وجـماد.

ولأن حيـاة الإنسـان تقـوم عـلى الغـذاء، ولأن الغـذاء يقـوم عـلى النبـات قبـل غـيره مـن أنـواع الغـذاء الأخـرى، وجـد الإنسـان، وفي كل مـكان مـن الأرض، أن النبـات المحيـي ذاتـه، لا بـد إلا أن يكـون هـو نفسـه الشـافي مـن الاعتـلال. وكان أن لجـأ الإنسـان إلى الأعشـاب لمـداواة المـرض. ولا بـأس إن أخطـأ مـرة أو مـرات، قبـل أن يحظـى بالـدواء الشـافي لهـذا المـرض أو ذاك. إذ لا بـد مـن منهـج التجربـة والخطـأ للوصـول إلى النتيجـة السـليمة. وكان بالإضافـة إلى ذلـك، يراقـب تصرفـات الحيـوان الغريزيـة في التفتيـش عـن أعشـاب بعينهـا

1 . أنظر في هذا الخصوص للتفصيل:
عاطف عطيه، شوقي عطيه، جغرافية السكان، جروس برس، 2016، طرابلس، ص90.
وللتفصيل حول هذا القانون الطبيعي في العلاقة بين الكائنات الحية، أنظر:
رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني، البيئة ومشكلاتها، عالم المعرفة 22، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1979، الكويت، ص ص66 - 76.

ليلتهمها بعد إصابته بعارض محدد كالتسمم والإسهال وغيرهما[2]. وهكذا تطوّرت فنون المعالجة، وإن سبقتها وفيات كثيرة لأناس لم تُعرف أسباب وفياتهم. ولا يزال هذا الأمر مستمراً مع وجود أمراض كثيرة يعمل الطب الحديث على معالجتها، وإيجاد الأدوية الشافية لها. تغيرت ظروف الحياة ووسائلها، وبقيت التقنية نفسها. وهي دوام البحث والتنقيب من أجل تأمين صحة الإنسان، ودرء المرض عنه، والشفاء منه.

هكذا بدأت الممارسات الطبية في كل المجتمعات الإنسانية. وكانت التجربة والخبرة المتراكمة حصيلة ما وصلت إليه البلدان المتقدمة التي أعطت للبشرية إنجازات أقدم الحضارات في التاريخ، وخصوصاً في مجال الطب.

ما سبق، يدل على أن تاريخ التداوي بالأعشاب مغرق في القدم، قدم الإنسان نفسه. وثمة آثار كثيرة تعود إلى ما قبل التاريخ الجلي تدل على الاهتمام بالأعشاب والتداوي بها. وثمة ما يدلّ على ذلك في بلاد ما بين النهرين والمشرق، من خلال الاهتمام بالأعشاب، وتحديد فوائدها في حال المرض أو الوقاية منه. فقد جاء في شرائع حمورابي قبل حوالي ألفي سنة من الميلاد ما ينظم شؤون الطب والتداول بالأدوية. كما كان يقوم البابليون بعرض مرضاهم على ذوي الخبرة في الساحات العامة. «وقد عثر في نينوى على جزء من مكتبة الملك آشور بانيبال، ومن بينها ثمانمئة لوحة طبية، فيها الكثير من الوصف الدقيق للأمراض. وهي تتشابه مع مدوّنات برديات وادي النيل، لجهة وصف أمراض الرأس والعين والكبد، ومرض الشلل والصرع»[3]. هذا بالإضافة إلى المخطوطات الفرعونية، وبعض بلاطات قبورهم التي تُظهر مهاراتهم في مجال الطب، وبراعتهم في معرفة

---

2 . أنظر في هذا الخصوص للتفصيل:

أمين رويحة، التداوي بالأعشاب، الطبعة السابعة، دار القلم، 1983، بيروت، ص9 -10.

3 . أنظر في هذا الخصوص:

http://ibnpalestine.ahlamontada.com/t195-topic

فوائـد الأعشـاب، ودرايتهـم التامـة بـأسرار النباتـات، وكيفيـة التـداوي بهـا. حتـى أن البعـض مـن هـذه الأعشـاب الشـافية وُجـد بـين مـا احتوتـه قبـور الفراعنـة مـن تحـف وآثـار[4].

انبثقـت المعـارف الطبيـة إذاً، وتراكمـت مـن خـلال تجربـة الإنسـان. وتكوّنـت هـذه التجربـة مـن الفعـل الإنسـاني في الطبيعـة، ومـن الاسـتعانة بمواردهـا في مـداواة المـرضى. ولم يـترك وسـيلة تخيّـل أنهـا يمكـن أن تفيـد في تخفيـف وطـأة المـرض عـلى المريـض إلا اسـتعملها. ولم يقتـصر الأمـر عـلى مـا هـو ماثـل في الطبيعـة، بـل تعـدّى ذلـك إلى ممارسـات في السـحر، وطقـوس، حسـب مقاييـس ذلـك الزمـان، كان لا بـد إلا أن تدخـل عـلى هـذه المعالجـات. ذلـك أن السـحر والأمـور الغيبيـة كانـت تشـغل البنيـة الذهنيـة القديمـة، بحيـث تشـعر التجمعـات البشريـة بالحاجـة الضروريـة إليهـا للمسـاعدة في التغلـب عـلى غوائـل الطبيعـة، وعـلى كل مـا يعيـق اسـتمرارية الإنسـان في الحيـاة، وخصوصاً المـرض، والتهديـد بالمـوت مـن أي مصـدر أتى. فيرجـو منها، بطقـوس مخصوصة، إبـلاء المريـض مـن مرضـه. وعـلى ذلـك تطـورت الممارسـات الطبيـة، وتوسّـع مـدى تأثيرهـا وتأثرهـا، بحيـث بـدأ يطـول المجتمعـات المتجـاورة. وعـلى هـذا، شـمل تبـادل المعـارف الطبيـة حضـارات مـا بـين النهريـن وبـلاد الشـام، واليونـان، مـع الجزيـرة العربيـة، ووادي النيـل، وصـولاً إلى شـمالي أفريقيـا، ومـن ثـم البلـدان الأوروبيـة، إنطلاقـاً مـن صقليـة والأندلـس وغيرهـما.

وفي هـذا الاطـار، يقـدم لنـا كعدان واسـكه نيـان[5]، وهـما المتخصصـان؛ الأول، في

---

4 . أنظر في هذا الخصوص المقالة القيمة للباحثة أمل آيت الحاج حول منابع الطب الشعبي التي تعود إلى آلاف السنين قبل الميلاد، وأهميته في اعتماده على الأعشاب، على الرابط التالي:

http://www.tawassol.ma/.html

5 . أنظر في هذا الخصوص:

عبد الناصر كعدان؛ ساهاك أسكه نيان، الطب النبوي العلاجي في مجال طب النباتات

تاريخ الطب العربي الاسلامي، ورئيس قسم تاريخ الطب في معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب؛ والثاني متخصص في الصيدلة؛ يقدّمان لنا بحثاً قيّماً حول الطب العربي في نشأته وأهميته التاريخية وظروف تأثره وتأثيره بأحوال الطب في ذلك الزمان. ويفيدان بأن وضع الطب في الهند كان مشابهاً لغيرها من جغرافيّات العالم وقتذاك. فقد اشتهرت بالطب المبني على الأعشاب. إلا أن الأبرز الذي وصل إلينا، وكان مدعاة اهتمام العرب بفضل الترجمة، كان طب اليونان، وخصوصاً المكتوب منه على يد أبقراط الذي لا يزال قسمه الطبي حياً إلى اليوم، وجالينوس وغيرهما. وقد كانت مؤلفات اليونان الطبية المبنيّة على الأعشاب المصدر الأساسي للأطباء العرب والمسلمين منذ بدايات ظهور الاسلام، وحتى قبله، كما سبق، وخصوصاً مع العصر الهلليني، ومع منجزات حضارات الشرق الأدنى القديم؛ هذا طبعاً بالإضافة إلى ما تولّد لديهم من معارف وخبرات في هذا المجال.

وكان لأوروبا الحظ في الافادة مما قدمه العرب في مجال الطب عن طريق الترجمة، وخصوصاً ما وصل إليهم من تعاليم الرازي[6] وابن سينا والزهراوي وغيرهم. إلا أن الرهبان بقوا محتكري المعالجات الطبية بالتضرّعات الإلهية، حيناً؛ وبالأعشاب حيناً آخر، طيلة القرن الثاني عشر

والأعشاب، على الموقع التالي: http://www.ishim.net/ankaadan6/prophetMedi-cineHerps.htm

6 . حول أهمية الطب عند العرب وبراعتهم فيه، وتأثر أوروبا بالطب العربي وإفادتهم منه، أنظر للتفصيل:

زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، وخصوصاً الفصل الثالث، الطبعة السابعة، دار الآفاق الجديدة، 1982، بيروت، ص243 - ص257. أما الرازي فقد كان طبيباً مشهوراً، ترك كتاباً هاماً في الطب، هو:

أبو بكر الرازي، الحاوي في الطب، 8 مجلدات، تحقيق محمد محمد اسماعيل، دار الكتب العلمية، 2000، بيروت، 3954ص.

للميلاد. وقد اشتهرت منهم، بزراعتها وجمعها، الراهبة «هيلديكارد»، وضمّنت ذلك في مؤلفها «الفيزيكا»، وهو كتاب مشهور.

ومع وصول العرب إلى الأندلس فعل التفاعل الثقافي- التثاقف- فعله، في ما خصّ التعاطي مع الأمراض ووصف الأدوية للشفاء، بالإضافة إلى التقنيات المستعملة في العلاج، وخصوصاً ما يتعلق منها بالأعشاب، وكيفية استعمالها مع ذكر فوائدها، ليس فقط بما يتعلق بالعلاج، بل بالإضافة إلى ذلك، بما يتعلق بالوقاية من الأمراض، وحماية الجسم من كل ما يمكن أن يتعرض له مع تغيّرات الطقس في البرودة والحرارة، وصدّ الأمراض المعدية من الانتقال إلى الجسم السليم. ففي مجال الأمراض المعدية قدّم الوزير والطبيب الأندلسي لسان الدين بن الخطيب رسالة علمية عن العدوى وظروف انتشارها، و«قد ثبت ذلك بالتجربة والاستقراء والمشاهدة، هذه هي مواد البرهان. ثم إنه غير خفي على من نظر في هذا الأمر أن من يخالط المصاب بهذا المرض يهلك، ويسلم من لا يخالطه... ومن البيت ينتقل المرض إلى المباشرين ثم إلى جيرانهم وأقاربهم وزائريهم حتى يتّسع الخرق»[7]. في هذا الوقت (1348م) المتزامن مع مقال إبن الخطيب، كان الأطباء الأوروبيون يعتقدون أن نظر المريض هو المسؤول عن انتشار المرض المعدي (الطاعون)، وما عليه إلا إغلاق عينيه أو وضع خرقة عليها قبل معاينته. ونظر إليه آخرون على أنه ناشئ عن تأثير الأجسام السماوية، أو ناتج عن غضب الله من أعمالنا الآثمة[8].

ومن المهم القول في هذا المجال، إن الفتوحات وضروب التجارة كانت من الأسباب الرئيسة التي أدّت إلى تبادل الخبرات والتجارب في كل ما يتعلق بالأمراض. هذا ما كان شأن التعاطي مع المرض وطرق علاجه من خلال

7 . هونكه، شمس العرب، مذكور سابقاً، ص276.

8 . المرجع نفسه، ص274.

التفاعـل بـين الشـعوب التـي قـدّر لهـا أن تلتقـي مـع العـرب، إن كانـوا مـن الفـرس، أو الـترك، أو الهنـود، أو الفرنجـة الذيـن قدمـوا إلينـا باسـم الحـروب الصليبيـة وموجـة الاكتشـافات الجغرافيـة. وازدهـر هـذا العلـم كثـيراً بعـد اكتشـاف القـارة الأميركيـة، بمـا فيهـا مـن كنـوز كثـيرة مـن الأعشـاب الطبيـة.

وبعـد اكتشـاف الطباعـة في القـرن الخامـس عـشر للميـلاد، عـلى مـا يقـول الباحثـان، كـثرت المؤلفـات في التـداوي بالأعشـاب، وعـمّ انتشـار هـذه المؤلفات بحيـث كانـت، إلى جانـب الإنجيـل، لا يخلـو منهـا بيـت مـن البيـوت في أوروبا. وقـد ظـل التـداوي بالأعشـاب، حتـى ذلـك التاريـخ، مسـتنداً إلى التجـارب والنتائـج فقـط، دون الاهتـمام بالبحـث العلمـي عـن موادهـا الشـافية، أو طـرق تأثيرهـا في جسـم المريـض[9].

إلا أن مـا يقولـه الباحثـان حـول مزاوجـة المهنـة الطبيـة بـين العـلاج وجمـع الأعشـاب وتحضيرهـا في شـخص واحـد، قـد بـدأ الفصـل بينهـما، لأول مـرة في أوروبـا في الربـع الأول مـن القـرن الثالـث عـشر (1224)، بعـد إنشـاء أول صيدليـة نباتيـة في العـالم في إيطاليـا، يجانـب الصـواب. ذلـك أن الطـب العـربي مـارس ذلـك قبـل زمـن طويـل. فـكان الطبيـب يمـارس علاجـه، والحـوّاج (العشّـاب) يمـارس عملـه في جمـع الأعشـاب والعنـاصر الأخـرى لتحضـير الأدويـة المطلوبـة مـن الطبيـب، بموجـب وصفـة مفصّلـة. وقـد بـدأ الفصـل عنـد العـرب بـين الطـب والعِشـابة أو الحواجـة (وممتهنهـما هـو العشّـاب أو الحـوّاج، أو الصيـدلي في لغـة اليـوم)، منـذ العـام 780 للميـلاد، عـلى عهـد الخليفـة العبـاسي المنصـور، حسـب المسـتشرقة الألمانيـة هونكـه. إذ كانـوا «أول مـن افتتـح الصيدليـات العامـة.. (وأول) مـن فصـل حقـل محضّر الـدواء عـن حقـل واصفـه، وأوجـدوا مهنـة الصيـدلاني الـذي ارتفـع إلى مركـز عـالٍ، بفضـل علومـه ومسـؤوليته الخاصـة»[10]. ليـس هـذا فحسـب، بـل أضافـوا إلى

9 . كعدان واسكه نيان، الطب النبوي العلاجي، الرابط المذكور سابقاً.

10 . هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، مذكور سابقاً، ص329.

ذلـك إلحـاق كل بيمارسـتان (مستشـفى) بصيدليـة خاصـة بهـا. وقـد بـرع مـن الحوّاجـين العـرب إبـن البيطـار(1197- 1248). وهـو الـذي أمـضى حياتـه في جمـع الأعشـاب والعنـاصر الأخـرى مـن حيوانيـة وجامـدة ضمّنهـا كتابـه الهـام «الجامـع في الأدويـة المفـردة»، ووضعهـا في متنـاول الأطبـاء. ومنـذ أيـام المأمـون في القـرن التاسـع للميـلاد كانـت الصيدليـات تحـت إشراف حكومـي، كـما كان هنـاك رئيـس للأطبـاء وعميـد للصيادلـة يقومـان بامتحـان مـن يريـد مزاولـة المهنـة التـي تخصـص فيهـا. ومـن ينجـح يعطـى الترخيـص بممارسـة العمـل بعـد تقييـد اسـمه في سـجل خـاص، تمامـاً كـما يحصـل اليـوم في الانتماء إلى نقابـة الأطبـاء[11]. وبعـد ذلـك بفـترة طويلـة، بـدأ تنظيـم هاتـين المهنتـين في أوروبـا بعـد التفريـق بينهـما، بالإضافـة إلى التفتيـش الـذي كان يحصـل، كـما عنـد العـرب، عـلى الصيادلـة وعـلى كيفيـة تحضـير الأدويـة وفـق أقراباذيـن خـاص (دسـتور تركيـب الأدويـة). وذلـك بعـد إصـدار الإمبراطـور فردريـك الثـاني الألمـاني في العـام 1240م مرسـوماً خاصـاً بهـذا الأمـر. ويعتـبر هـذا المرسـوم بدايـة الإلتفـات إلى العلـم والتجربـة في المجـال الطبـي في أوروبـا[12].

مـا زال الطـب العـربي القديـم يحافـظ عـلى الكثـير مـن طـرق معالجاتـه في مجـال الأعشـاب والتقنيـات الطبيـة التـي سـيطرت عـلى التـداول حتـى بدايات العـصر الحديـث، منهـا، بالإضافـة إلى التفاصيـل في كيفيـة المعالجـة بالأعشـاب والعنـاصر الحيوانيـة والطبيعيـة، وتبيـين خصائـص الآلاف منهـا؛ التجبـير والحجامـة والـكيّ، مـع مـا يرافـق ذلـك مـن التقنيّـات المبتكـرة. وبعـد انتشـار الأدويـة الكيميائيـة التـي تشـفي في مـكان، لتـضرب في مـكان آخـر، بـدأ العـالم بالإلتفـات إلى مـا يمكـن أن يسـتكمل مـا بـدأه الطـب العـربي القديـم، مـع مـا عـاصره مـن الانجـازات الطبيـة العالميـة. وهـو مـا سـمي بالطـب البديـل؛ الطـب الـذي يعتمـد بالكليّـة عـلى مـا يمكـن أن تنتجـه الطبيعـة مـن ناحيـة،

11 . المرجع نفسه، ص329 - 330.

12 . المرجع نفسه، ص331.

والعقل البشري التجريبي والمذخّر بكل ما أنتجه التراث الطبي القديم، من ناحية ثانية.

الطب العربي بين الشعبي والرسمي

غلبت على الطب الشعبي في العالم العربي تسمية «الطب العربي». ولا تزال هذه التسمية سارية حتى اليوم، وإن كانت تقال وتوصف بما هو أقرب إلى السلبيّة، من وجهة نظر الطب الحديث. إلا أن هذا النوع من الطب أثبت وجوده وجدواه من خلال حركيته الدائمة في كيفية التعاطي مع المرض وكيفية مواجهته، حسب ما تقتضيه الظروف والأحوال والإمكانيات المتاحة. ولأن الطب العربي يعتمد في أصوله ومبادئه على الأعشاب، وينظر إلى الجسد من خلال وظائفه، من ناحية؛ ومن خلال ما توحي به الطبيعة، من ناحية ثانية؛ إن كان بالبرودة أو السخونة، أو توسّل ما تجود به من أجل دعم صحة الإنسان. لذلك، فقد حافظ على استمراره، وإن كان يعترف بأنه لا يستطيع الاستقلال عن الطب الحديث، ولا تجاهل منجزاته، ولا الاستغناء عنه.

وعلى ذلك، جاء تعريف منظمة الصحة العالمية في الأمم المتحدة للطب الشعبي التقليدي بما يلي: «الطب التقليدي (الشعبي) هو مجموعة المعارف والمهارات والممارسات القائمة على النظريات والمعتقدات والخبرات الأصيلة التي تمتلكها مختلف الثقافات والتي تُستخدم، سواء أمكن تفسيرها أو لا، للحفاظ على الصحة، والوقاية من الأمراض الجسدية والنفسية، أو تشخيصها أو علاجها أو تحسين أحوال المصابين بها»[13].

وعليه، يمكن اعتبار الطب الشعبي جزءاً من المعتقدات الشعبية. مثله مثل المعتقدات المتعلقة بالأديان والتقاليد الراسخة في حضارات الشعوب[14].

---

13 . http://www.who.int/topics/traditional_medicine/definitions/ar

14 . للتفصيل حول المعتقدات ونشأتها وأهمية ممارستها بالطقوس اللازمة لدوام

وهـو يتميـز عـن بقيـة هـذه المعتقـدات كونـه يقـوم عـلى معالجـة المـرضى، وتدبـير شـؤون صحتهـم بالأدويـة اللازمـة، والممارسـات التـي تُعيـد للجسـم قوامـه وصحّتـه. وتكمـن أهميتـه، حتـى الآن، بأنـه راسـخ في ذهـن العـربي الحديـث مـن خـلال ممارسـة مـا توارثـه عـن الأقدمـين مـن معالجـات بسـيطة لانحـراف البـدن عـن الصحـة؛ وهـي الطريقـة السريعـة، كـما ممارسـة الإسـعافات الأوّليـة في لغـة اليـوم، قبـل الوصـول إلى أيـدي الطبيـب، بالمعنـى الحديـث لهـذه المهنـة. ومـا كان ذلـك ليتـمّ لـولا الخـبرات والتجـارب المتراكمـة التـي أثبـت تـوالي الأيـام فائدتهـا، بمـا تَوفّـر مـن صنـوف الأدويـة المسـتمدة مـن الأعشـاب التـي تجـود بهـا البيئـة المخصوصـة، بالإضافـة إلى منتوجاتهـا الحيّـة والجامـدة.

من الشعبي إلى الرسمي

بنـاء عـلى مـا تقـدم، كان لا بـد مـن تمييـز الطـب الشـعبي عـن الطـب الرسـمي مـن خـلال علاقـة كل منهـما بالوسـائل المسـتعملة في ممارسـة هـذه الحرفـة التـي توصّلـت، بعـد تراكـم التجـارب والمعرفـة النظريـة، إلى مهنـة متخصصـة ذات أصـول ومبـادئ وتقنيّـة مسـتمدة مـما هـو مـدوّن في الكتـب، والمبنـي عـلى التجـارب الموصوفـة. لذلـك، فـإن صلـة الإنسـان بالطبيعـة هـي التـي وجّهتـه إلى ممارسـة كل مـا يمكـن أن يحمـي الإنسـان مـن المـرض، إن كان بالتدفئـة في أيـام الـبرد، والتهويـة في أيـام الحـر، والمعالجـة بمـا تيسّر مـن الأعشـاب في حـال المـرض، وإن كان ذلـك لم يوصـل إلى النتيجـة المطلوبـة إلا بعـد أوقـات طويلـة مـن التجربـة والخطـأ. ولا يشـذّ عـن ذلـك مـا كان يفعلـه الإنسـان في حـالات الاحسـاس بالجـوع أو الظـمأ.

ومـن المهـم، هنـا، القـول إن الطـب الشـعبي، ومـن ثـم الطـب الرسـمي

استمراريتها، أنظر:

عاطف عطيه، في الثقافة الشعبية العربية، المعتقدات في التقاليد والعادات، جروس برس، 2018، طرابلس، وخصوصاً الفصول الأولى من الكتاب.

المبني على العلم والتجربة هما تراث إنساني حضاري أسهمت في صنعه وتطويره كلُّ الأمم. «وقد صار من الواضح اليوم أن بدايات الطب، كمعارف وخبرات، ظهرت في أقدم العصور منذ أن ساعدت النساء في عملية الولادة، ومنذ أن أسعف الإنسانُ البدائيُ المصابَ بالكسور»[15].

ومن المهم، أيضاً، التأكيد على أن التفرقة بين الطب الشعبي والطب الرسمي هي مسألة نسبيّة. ذلك أن هذه التفرقة تبدّت أولاً بين الطب الشعبي المتوارث عبر الأجيال، والقائم على ممارسات لا بد منها للتعامل مع انحراف صحة المريض أو تعرّضه لأي حادث كان. ومن جملة الممارسات ما كان يختلط فيها السحر والصلوات وما يتخللها من تقديم النذور والأضحيات مع الوصفات المتداولة والمركّبة من النباتات وأجزاء من الحيوانات والجماد على أمل شفاء المريض مما ابتلي به. هذا في الوقت الذي كان يسير الطب الرسمي بخطوات عقلانية تقوم على معرفة العوارض وتشخيص المرض بالمنهجية العقلانية التي تعطي لكل نتيجة سبباً، ومن ثم معالجة النتيجة بأسبابها للوصول إلى الشفاء.

إلا أن هذه التوازي في الممارسة بقي سارياً، وإن استفاد الطب الشعبي من الطب الرسمي بما كان يصفه من وسائل العلاج. وبقي الأمر على ما هو عليه مع تقدم في الطب الرسمي وصل إلى أوجه في القرن الرابع عشر للميلاد، مع وجود أطباء عرب كبار أوصلوا العلوم الطبية النظرية والعملية إلى أن تتبوأ المركز المرموق - إذا لم يكن الأول - في العصر الوسيط، حسب التأريخ الأوروبي.

ومع تقدم الطب والممارسات الطبية الحديثة التي تمخّضت عنها الثورة الصناعية الأوروبية، بدأ الطب بمعناه الحديث، يظهر مع تقدم العلوم

15. http://www.yabeyrouth.com/7535

والتكنولوجيا. وصار في فترات متسارعة يحلّ محل الطب المبني على النظرة التقليدية في التشخيص والعلاج، وصنع الأدوية بالطريقة الحديثة القائمة على منجزات الأبحاث العلمية في مراكز الأبحاث والمختبرات الطبية التي سرعان ما ظهر تأثيرها في معالجة الأمراض، ومنع انتشارها بالأدوية والمضادات والتطعيم، بالإضافة إلى اكتشاف الجراثيم وأنواعها، وكيفية القضاء عليها بالمضادات الحيوية، وغيرها.

هنا، كان لا بد من المقارنة بين منجزات الطب الحديثة، وما توصل إليه الطب ما قبل العصر الحديث؛ الطب الذي يمكننا في هذه الحالة تحويل مفهومه من الطب الرسمي إلى الطب التقليدي في درجته العليا العقلانية، وفي درجته الدنيا الشعبية التي بقيت مستمرة في التعاطي مع المرض بالطريقة نفسها، بعد مرور مئات السنين.

إلا أن الطب التقليدي في درجته العليا، لم يبقَ مكتوف الأيدي أمام المنجزات الحديثة في العلوم الطبية، وخصوصاً في مجال الصحة. وقد ساعده على التحرك، ما ظهر من نتائج تناول الأدوية المصنوعة كيميائياً. ذلك أن التجربة أظهرت أن الدواء الكيميائي، مهما كان نوعه، يضر في مكان من الجسم في الوقت الذي يشفي مكاناً آخر، بما يحتويه من مواد تضرّ، بطبيعة تركيبها، أعضاء أو مكونات بعينها في جسم الإنسان. فكان أن تحوّل الطب التقليدي الرسمي إلى ما أطلق عليه «الطب البديل» الذي يعتمد بالكليّة على المنتوجات الطبيعية في تكوين الأدوية التي لا يمكن أن تضرّ، وفي كل الأحوال، الجسم الإنساني، مستفيداً في ذلك مما أوجده الطب الرسمي على امتداد تاريخه، من جهة؛ ومن جهة ثانية، على منجزات الطب الحديث في مراعاة الدقة في الموازين والنسب والأعيِرة التي عليها أن تكون في صلب صناعة الأدوية المركبة.

أحوال الطب العربي

مارس العرب، كما غيرهم من الشعوب، الطب قبل الإسلام، بما توفّرت لديهم من الوسائل اللازمة للتعامل مع الأمراض ومداواتها، ومعالجة المرضى. ويقول إبن خلدون في هذا المجال، «كان للعرب البادية، في الجاهلية، طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة يتداولونه متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه»[16]. كما عالجوا الكسور الناشئة عن حوادث طارئة، بالتجبير. وقد برعوا في القيام بعمليات جراحية بسيطة تناولت التقرّحات التي تصيب الجلد نتيجة الالتهابات، أو الجروح التي يمكن أن تصيب الإنسان لأي سبب من الأسباب. وتوصلت تجاربهم وخبراتهم المتوارثة إلى معرفة العلاج بالكيّ، وبخلط النباتات بمقادير معلومة. وكذلك بالاستعانة بأعضاء الحيوانات، أو ما يمكن أن يستخرج منها، ومن الأتربة وما هو موجود في الطبيعة، على أي وجه كان. ولم يقتصر الأمر على ما هو موجود في الطبيعة، بل تعدّى ذلك إلى ضروب المعالجات الروحية والنفسية، بالإضافة إلى السحر في كل صنوفه[17]، باعتبار أن كل شيء مباح من أجل شفاء المريض. وقد اشتهر من الذين مارسوا هذه الحرفة أطباء معتبرون، يذكر التاريخ منهم الحارث بن كلدة[18]، وابن رومية التميمي[19].

16 . إبن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، ص546.

17 . للتفصيل حول انتقال الطب عند العرب من حالته السحرية والنظرية عند اليونان، وخصوصاً جالينوس، إلى العلم التجريبي القائم على استخلاص المبادئ من الممارسة، أنظر: محمد عبد الرحمن مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني، 1981، بيروت، ص ص91-93.

18 . يقول إبن أبي أصيبعة إنه سافر من الطائف إلى بلاد فارس لتعلّم صنعة الطب، وكان ذلك قبل الإسلام. ويذكر حكمة مأثورة عنه، يقول فيها: «دافع بالدواء ما وجدت مدفعاً، ولا تشربه إلا من ضرورة، فإنه لا يصلح شيئاً إلا أفسد مثله». وكأنه يتكلم على الأدوية الكيميائية السائدة في عصرنا هذا. أنظر:
إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، 1965، بيروت، ص167.

19 . http://www.yabeyrouth.com/7535

بمجيء الإسلام أخذ الطب العربي جرعة إيمانية أكدت على صحة توجّهه ناحية الأعشاب وموجودات الطبيعة، إنطلقت من حديث نبوي يقول: «ما أنزل الله من داء، إلا أنزل له شفاء». أيضاً: «لكل داء دواء وإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجلّ». وسئل الرسول عن التداوي فقال: «نعم يا عباد الله تداووا، إن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد، قالوا ما هو؟ قال: الهرم» [20]. هذه الأحاديث تؤكد، ليس على أهمية الطب ودوره في العلاج والتداوي بالأعشاب وغيرها، فحسب؛ بل بالإضافة إلى ذلك، على أن ليس ثمة مرض بدون علاج.. إلا الهرم والشيخوخة. وإذا لم يشفَ مريضٌ من داء ما، فهذا يعني أن الطب لم يصل، بعد، إلى اكتشاف الدواء الشافي الموجود أصلاً في الطبيعة. وما زاد من ترسيخ أهمية الطب ودوره في الشفاء، حصره في نوعين من العلم، علم الأديان وعلم الأبدان[21].

كان للطب النبوي، كما سنرى بالتفصيل في الفصل التالي، التأثير الشديد على عامة المسلمين وعلى خاصتهم على حدّ سواء. وقد امتزج فيه العقل المستنير في تعاطيه مع موجودات الطبيعة، وفي نظرته الثاقبة إلى جسم الإنسان، وما يعترضه من انتكاسات ناشئة عن الخلل في وظائف أعضائه، من ناحية؛ وعلى الإيمان الديني وما يستثيره من شحنات عاطفية تساهم في الإبلاء من العارض المرضي، وخصوصاً من الناحية النفسية التي تسهم في التخفيف من وطأة المرض الجسدي، وفي الشفاء من المرض العصبي أو النفسي في الوقت نفسه، من ناحية ثانية.

---

20 . أنظر في هذا الخصوص:
إبن قيم الجوزية، زاد المعاد، فصل الطب النبوي، مؤسسة الرسالة، 1998، بيروت، ص5 من الرابط التالي:
http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=127&ID=641&idfrom=718&idto=962&bookid=127&startno=4

21 . http://ibnpalestine.ahlamontada.com/t195-topic

من المهم القول في هذا المجال، إن النظرة إلى الطب النبوي، كما سنرى لاحقاً، قد اكتسبت شحنة نفسية إيمانية أوصلته إلى اعتباره جزءاً من الوحي الإلهي. إلا أن إبن خلدون في نظرته العقلانية الثاقبة قد أرجع هذه المسألة إلى خبرة النبي وتجربته في الأمور الطبية، وقد مارسها على أنها من العلوم المكتسبة والموروثة. ذلك أن الطب المنقول هو من «الشرعيات.. وليس من الوحي في شيء... (والنبي) بُعث ليعلّمنا الشرائع ولم يُبعث لتعريف الطب... أللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرّك وصدق العقد الإيماني»[22].

بعد ظهور الإسلام وانتشاره، اتصل العرب مع غيرهم من الشعوب المجاورة، وتثاقفوا مع الحضارات العالمية، وتفاعلوا معها وأثّروا وتأثروا. وكان أن استفاد العرب من شتى أنواع العلوم التي كانت سائدة، خصوصاً لدى اليونان والهنود والفرس، وغيرهم. ومن أهم ما كان تأثرهم بالطب، إلى جانب الفلسفة والرياضيات وغيرها. ومن أهم فترات التثاقف تلك التي أظهرت العلوم الدخيلة بحلّتها العربية، وعلى يد مترجمين كبار مع بدايات القرن العاشر للميلاد. ومن جملة الذين تعرف عليهم ممارسو حرفة الطبابة من السريان، جالينوس وأبقراط الطبيبين اليونانيين المشهورين، من خلال ترجمة كتبهما بأنفسهم، ومن ثم وضعها بين أيدي ممارسي الطب من العرب في حالته الشعبية المصاغة من قبلهم، ليبنوا عليها الطب العربي الاسلامي الذي وصل إلى أرقى تجلياته، وليتحوّل في هذه النقلة النوعية من الطب الشعبي المبني على التراث الطبي الموروث، إلى طب حديث على مقاييس ذلك الزمان، وإلى علم قائم على التشخيص ومعالجة الأسباب التي توصل إلى المرض، والمتأتية من خارج جسم الإنسان.

ولأن المرض مضرّ بالإنسان وموصله إلى الموت، فإن المعالجة، لتكونَ فعّالة،

---

22 . إبن خلدون، المقدمة، مذكور سابقاً، ص546.

لا بـد إلا أن تسـتند عـلى كل مـا هـو عقـلاني في تشـخيص الحالـة المرضيـة، بعـد فهـم وتحديـد عوارضهـا ومسـبباتها، ومـن ثـم تخصيـص العـلاج الـلازم لهـا مـن أجل الشــفاء.

هنـا، ظهـر الابـداع الطبـي العـربي الأول الـذي خالـف مـا ذهـب إليـه جالينـوس الطبيـب اليونـاني، مـن أن المـرض يتألـف في داخـل الجسـم ولا يـأتي مـن خارجـه. وقـد أوصـل هـذا الاكتشـافُ العـربَ إلى مـا يسـمّى، اليـوم، بعلـم الجراثيـم الناقلـة للأمـراض، وبالتـالي إمكانيـة العـدوى وانتشـار الأوبئـة[23].

إنتقـل العـرب بممارسـتهم للطـب الرسـمي إلى مواقـع أخـرى في مجـال تبنّيهـم للعلـوم. وقـد اعتـبروا أن العقلانيـة تقـضي بالتجربـة والاختبـار والبرهـان، لاسـتخلاص المبـادئ الأصيلـة في أي علـم ومـن ثـم تعميمهـا. ومـن أهـم مـا يمكـن تطبيـق ذلـك عـلى العلـوم الطبيـة؛ أولاً، لأنهـا الأكـثر فائـدة للإنسـان وصحتـه، ومخلّصتـه مـن مغبّـة الوقـوع في المخاطـر؛ وثانيـاً، لأنهـا تصيـب بفائدتهـا كل النـاس، بـصرف النظـر عـن فئاتهـم أو جنسـياتهم أو مواقعهـم في المجتمـع. لذلـك قـام الأطبـاء العـرب بنقـل ودراسـة وتمحيـص ونقـد كل المعلومـات الطبيـة التـي وصلتهـم، وميّـزوا الغـث والسـمين منهـا. فأخـذوا منهـا مـا يتوافـق معهـم بعـد ثبـوت الفائـدة، وأضافـوا إليهـا مـا أنتجـوه، مـن خـلال اشـتغالهم بهـذا العلـم، ومـا بيّنتـه لهـم التجربـة، ومـا أثبتـه البرهـان.

ولأن ذلـك كذلـك، نحـا الطـب الشـعبي المسـتخلص مـن تراكـم التجـارب والخـبرات وتأثـيرات التثاقـف، منحـى الطـب الرسـمي القائـم عـلى مبـادئ وقوانـين اسـتودعها أطبـاء معروفـون بطـونَ الكتـب، وزيّنتهـا رسـوم أعضـاء جسـم الإنسـان، وأشـكال الأدوات الطبيـة، وصـور النباتـات النافعة في اسـتخراج الأدويـة الناجعـة، وتخصيـص كل نبتـة لمعالجـة حالـة مرضيـة أو عـدة حـالات بمفردهـا، أو بمرافقـة نباتـات وحاجـات أخـرى أوجدتهـا الطبيعـة، أو أوجدهـا

23 . أنظر في هذا الخصوص للتفصيل:
كامل حمود، تاريخ العلوم عند العرب، دار الفكر اللبناني، 1990، بيروت، ص38.

الله لمعالجة هذا المرض أو ذاك، على ما يقوله الحديث الشريف.

إلا أن معالجة الأمراض لا تقوم دائماً على التجربة والخطأ، كما وجدت سابقاً في بدايات التفتّح الإنساني على العالم وعلى مشاكله. ففي ظل التقدم في الكشف على المريض وتشخيص المرض ومن ثم العلاج، صار لهذه المهنة مختصون عارفون، ومجازون في ممارستها منذ أزمنة مغرقة في القدم. هؤلاء يمكن أن يعملوا بما يفيد المريض ويعجّل في شفائه. أما إذا كان الفعل فقط على ما تمّ توارثه بالطرق الشعبية المبنيّة على التقليد، فيمكن أن يؤدي إلى ضرر المريض ومن ثم إلى موته. وفي هذا يقول الطبيب العربي (الرسمي) يعقوب بن اسحق الكندي: «ليتّق الله تعالى المطبّب (الطبيب الشعبي) ولا يخاطر، فليس عن الأنفس عوض»[24]. والكندي في ذلك يحرص على حياة المريض، إذ من الخطورة بمكان على حياته، إذا وقع بين يدي مطبّب لا يفقه من أمور الطب إلا ما توارثه عن أبيه وجدّه. وفي مجال الطب الرسمي برز كثيرون، وتركوا آثاراً هامة جداً في الطب، تعتبر من أهم موروثات العرب في هذا العلم. من هؤلاء: إبن سينا في كتابيه «القانون في الطب» و«الشفاء» والرازي في كتابه «الحاوي»، وابن النفيس في اكتشافه للدورة الدموية الصغرى وفي معرفته الدقيقة بوظيفة الرئتين والقلب، والزهراوي في «التصريف لمن عجز عن التأليف» وفي معرفته بعلم التشريح وبراعته في الجراحة. هذا بالإضافة إلى الكثيرين من الأطباء والصيادلة، منهم: ابن رشد والغافقي وإبن البيطار[25]؛ وهذا الأخير ترك كتاباً هاماً في الأدوية والأغذية[26].

24 . http://ibnpalestine.ahlamontada.com/t195-topic

25 . للتفصيل حول اهتمام العرب بالطب والمعرفة بالأعشاب وتحضيرها، وبراعتهم فيهما، أنظر:

مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، مذكور سابقاً، ص ص91 - 105.

26 . إبن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، مجلدان، دار الكتب العلمية، 2001، بيروت، 1040ص.

مـن هنـا بـدأ التفريـق بـين الطـب الشـعبي والطـب الرسـمي عـلى مقيـاس ذلــك الزمــان، وإن كان كل ذلــك يدخــل في عصرنــا ضمــن نطــاق الطــب الشـعبي في نظـر الطـب الحديـث، إلى أن جـاء عـصر الطـب البديـل، إن كان في الوقايـة أو العـلاج. وهـو الطـب الـذي بـدأ يأخـذ مكانـه المرمـوق في أكـثر جامعـات العـالم، ويعمـل عـلى اسـتخراج الأدويـة مـن منتوجـات الطبيعـة، مبتعـداً، بأقـصى مـا يمكـن عـن المركبـات الكيميائيـة المسـتعملة في تصنيـع الأدويـة وتحضيرهـا.

ومــن المهــم التأكيــد، هنــا، عــلى أن الطــب الشــعبي العــربي يمــارس في كل البلــدان العربيــة عــلى نمــط مشــابه، إن كان في العــلاج أو الوقايــة، أو في إجـراء العمليـات الجراحيـة البسـيطة. وهـي ممارسـات متوارثـة أبـاً عـن جـد. منهـا مـا هـو متعـارف عليـه بـين العائـلات والأسر، ومنهـا مـا هـو مقتـصر في الاسـتعمال عـلى المجرّبـين والخـبراء الذيـن صـاروا مـن العارفـين في شـؤون هـذه الحرفـة، إمـا مـن خـلال المراقبـة والملاحظـة والمسـاعدة في مـا يطلبـه «الحكيـم» منهـم، أو مـن أولئـك الذيـن احترفـوا المعالجـة عـن وعـي منهـم وإدراك، للمحافظـة عـلى هـذا التميّـز في العائلـة، مـن ناحيـة؛ ولاسـتمرارية هـذه الحرفـة في معالجـة النـاس وتقدمـة الخدمـات لهـم بـصرف النظـر عـن تقـاضي بـدلات الأتعـاب عـن هـذه الممارسـات، مـن ناحيـة ثانيـة.

لا تختلـف المعالجـات التـي يمارسـها الطـب الشـعبي العـربي في المدينـة عنها في الريـف، إلا، ربمـا، في شـكل تحضـير العـلاج، أو الأدوات المسـتعملة في العمليـات الجراحيـة أو تجبـير الكسـور، أو إجـراء عمليـات الـكي والحجامـة وغيرهـا مـن صنـوف المعالجـات. ولكــن مــن المهــم التأكيــد عــلى أن التشــخيص، ومــن ثــم المعالجــة، كانــا منتشريــن في المــدن، بينــما طــرق المعالجــات الســحرية والاســتعانة بالآيــات القرآنيــة وقــراءة الطلاســم بغمغــمات غــير مفهومــة، والتمتمـة عـلى السـوائل مهـما كانـت تحتـوي مـن مـواد، كانـت منتـشرة في الريــف والمناطــق الصحراويــة. إلا أن هــذا لا يعنــي أن المطببــين مــن أهــل

المدينة ما كانوا يستعملون هذه الوسائل، أو أن أهل الريف ومطببيهم لم يستعملوا الطريقة العقلانية في المعالجات، بل كان ذلك منتشراً في النمطين المجتمعيين المديني والريفي- الصحراوي، وإن كان كل منهما غالباً على الآخر في كل من المجتمعين. هذا بالإضافة إلى أن المريض يلجأ إلى كل الوسائل من أجل الشفاء، وكذلك الطبيب يلجأ إلى كل أنواع المعالجات في حال أعيته الحيلة في شفاء مريضه، عن طريق التشخيص والمعالجة.

ومن الأمثلة على ذلك، يمكننا أن نستقي من شمالي فلسطين بعض أنواع المعالجات التي مارسها بدو هذه المنطقة الذين نزحوا منذ أزمنة مغرقة في القدم من الجزيرة العربية ومن بلاد الرافدين. هؤلاء جلبوا معهم المعارف الطبية التي توارثوها عن أجدادهم، ومزجوها مع ما كان سائداً من صنوف المعالجات في بيئتهم الجديدة. وعلى هذا، برعوا في معالجة أمراض كثيرة بما تيسّر لهم من أدوات العلاج المتوفّرة في مناطقهم، وفي ما كانوا يلقونه من مشاهدات حسّية ومظاهر مَرَضية، أوحت لهم بالعلاج. فاحتفظوا بما ثبت نفعه في معالجاتهم، وتخلّوا عن التجارب التي لم توصلهم إلى النتائج المُرضية[27].

مراحل التحول

مرّ الطب الشعبي العربي منذ بدايات تكوينة المترافقة مع وجود العرب أنفسهم إلى ثلاث مراحل، بدأت من أولى تجارب الإنسان في تعاطيه مع المرض القائمة على مبدأ الخطأ والتجربة والاستعانة بعرّاف العشيرة للمساعدة في طرد الأرواح الشريرة، ورجاء الآلهة للعمل على شفاء المريض، إلى أن يشفى بالمناعة الطبيعية فيه أو ينتهي بالموت.

في **المرحلة الأولى**، استطاعت الحضارات القديمة في بلاد ما بين النهرين والشام ومصر الفرعونية تسجيل إنجازات مهمة في عالم الطب والمعالجات

27 . أنظر في هذا الخصوص للتفصيل: http://www.yabeyrouth.com/7535

الطبيـة. منهـا معالجـة الأمـراض مـن بعـد تشـخيصها، وممارسـة عمليـات التحنيـط، وفهـم وظائـف بعـض الأعضـاء في الجسـم مـع معالجـة الخلـل، ووضـع الأدويـة المناسـبة، والقيـام بأعـمال التجبـير، ومعالجـة حـالات الحـروق وغيرهـا. وفي هـذه المرحلـة توصّلـت بـلاد مـا بـين النهريـن إلى وضـع المبـادئ الأساسـية لممارسـة حرفـة الطـب وتحضـير الأدويـة اللازمـة لهـا. وكذلـك مرحلة الحضـارات القديمـة في مـصر.

بـدأت **المرحلـة الثانيـة** مـع بدايـات العـصر الهلينـي الـذي حصـل فيه نـوع من التـمازج بـين الحضـارة المشرقيـة والحضـارة اليونانيـة، وقـد نشـأت عنهـا أولى بـوادر التثاقـف التـي سـاهمت في إنضـاج العـصر الذهبـي للحضـارة العربيـة الإسـلامية، مـن خـلال الاسـتفادة مـن حضـارة السريـان وتقدمهـم العلمـي باعتبارهـم جـسر التواصـل بـين المنجـزات العلميـة اليونانيـة وبـين الحضـارة العربيـة الاسـلامية التوّاقـة والمتلهفـة إلى اسـتيعاب مختلـف العلـوم التـي كانـت تفتقـر إليهـا، ومـن ثـم الانطـلاق منهـا إلى الابـداع في مختلـف هـذه العلـوم. وقـد رأينـا أعـلاه مـا ابتكـره العـرب والمسـلمون بعـد اطلاعهـم عـلى العلـوم الدخيلـة بلغتهـم العربيـة والمنقولـة عـن اللغـة اليونانيـة والهنديـة والفارسـية. وقـد لمعـت مـدارس كثـيرة في عمليـات النقـل والترجمـة وممارسـة الأعـمال الطبيـة قبـل أن يحلّـق العـرب في هـذا المجـال، ويتقدمـوا عـلى كل حضـارات العـالم، وليقدمـوا منجزاتهـم الطبيـة والعلميـة الأخـرى والفلسـفية، بالإضافـة إلى ترجماتهـم مـن اليونانيـة، إلى العـالم الأوروبي باللغـة العربيـة لتنقـل منهـا إلى اللغـة اللاتينيـة.

كانـت المـدارس السريانيـة في **المرحلـة الثالثـة** مـن تطـوّر الطـب العـربي، تقـوم مقـام البيمارسـتانات (المستشـفيات) في ممارسـة الطـب. ذلـك أن السريـان كانـوا عـلى إطـلاع واسـع عـلى هـذه الحرفـة، ويمارسـونها بالخـبرة اللازمـة، مسـتندين في ذلـك عـلى مـا عرفـوه لـدى اليونـان. ومـن ثـم كان لهـم الفضـل في تعريـف العـرب عـلى المبـادئ العلميـة للطـب اليونـاني. إلا أن ذلـك جـاء

نتيجـة اهتـمام العـرب بالطـب قبـل تعرّفهـم عـلى اليونـان، وقبـل معرفتهـم بتفاصيـل الطـب اليونـاني. مـن هنـا، جـاءت ملاحظـة ثاقبـة تقـول بـأن اهتـمام العـرب بالطـب كان سـبباً للتلهـف عـلى معرفـة مـا لـدى اليونـان في هـذا المجـال، ولم تكـن الترجمـة هـي الوسـيلة التـي عرّفـت العـرب عـلى الطـب. «إن عمليـة الترجمـة جـاءت نتيجـة لمعرفـة العـرب للطـب، ولم تكـن معرفـة العـربِ للطـب نتيجـة لعمليـة الترجمـة»[28].

بنـاء عـلى مـا تقـدم، يمكـن اعتبـار عمليـة الترجمـة محطـة أساسـية في التـمازج بـين الطـب اليونـاني الـذي حصـل عليـه العـرب بمسـاعدة السريـان، مـن ناحية؛ والطـب العـربي الـذي يعتـبر في تلـك اللحظـة، لحظـة التـمازج، اسـتمراراً للتراث الطبـي القديـم المـوروث عـن حضـارات بـلاد مـا بـين النهريـن وبـلاد الشـام ومـصر، مـن ناحيـة ثانيـة؛ واسـتمراراً للطـب الهللينـي الـذي كان ينشـط في المـدارس السريانيـة في بـلاد المـشرق وجنديسـابور والاسـكندرية، مـن ناحيـة ثالثـة. ولا يقتـصر الأمـر عـلى ذلـك، فحسـب، بـل إن هـذه الحركـة عملـت عـلى حفـظ الـتراث اليونـاني، الطبـي وغـيره، مـن الضيـاع، لأن اللغـة العربيـة هـي التـي حفظتـه وحمتـه مـن الضيـاع. وهـو الـذي تـم نقلـه إلى الأوروبيـين مُصاغـاً باللغـة اللاتينيـة، كـما مـرّ مـن قبـل[29].

لقـد كان لمـدارس الترجمـة الفضـل الأول في توسـيع معـارف العـرب الطبيـة. ومـا كان العـرب مقصريـن في اسـتيعاب هـذه المعـارف بعـد تصنيفهـا وتبويبهـا وهضمهـا، بالإضافـة إلى الكتابـة في تاريخهـا. فظهـر لذلـك، مؤرخـون بارعـون في تصنيـف العلـوم الطبيـة وفي التأريـخ لهـا، وتسـهيل فهمهـا، لتكـون مصـادر سـهلة الفهـم والاسـتيعاب لـدى الأطبـاء العـرب الذيـن انصرفـوا إلى دراسـتها، ومـن ثـم البنـاء عليهـا في مـا عـرف بعـد ذلـك بالانجـازات العربيـة في الطـب،

28 . أنظر في هذا الخصوص، المقال القيم حول الطب العربي القديم، في:
http://www.yabeyrouth.com/7535

29 . المرجع نفسه.

كـما في شـتى العلـوم، أتينـا عـلى ذكـر القليـل منهـم سـابقاً.

وعـلى هــذا، يمكــن القــول إن عــصر الترجمــة أوصــل العــرب إلى الإبــداع في مجـال الطـب، و«مهـد بـدوره إلــى عـصر ازدهـار الطـب وظهـور سـيلٍ مـن المؤلفـات الطبيـة في العـصر التـالي الـذي اصطلـح عمومـاً عـلى تسـميته بعـصر الإبـداع»[30].

ومــن المهــم القــول، هنــا، إن الأطبــاء لم يكتفــوا بمــا قــدم اليونانيــون، بــل عملـوا عـلى نقـد منجزاتهـم الطبيـة، وبيّنـوا مـا فيهـا مـن أخطـاء، واسـتندوا إلى التجربـة، وإلى مـا يمكـن أن يتوصـل إليـه البرهـان في هـذا الشـأن. فلـم يكتفـوا بالاقتبـاس والهضـم والتمثـل بـل انتقلـوا، إنطلاقـاً مـن ذلـك، إلى الانتاج بمنهجيــة عربيــة صارمــة، جعلــت العــرب يتبــوأون المركــز الأول في العلــوم الطبيــة إبتــداء مــن القــرن العــاشر للميــلاد، وصــولاً إلى القــرن الثــاني عــشر.

منجزات الطب الرسمي

وإذا كان ثمــة افــتراق بــين الطــب الشــعبي العــربي والطــب الرســمي، فــإن مــن المفيــد ذكــر أهــم المنجــزات الطبيــة العربيــة في العــصر الذهبــي الــذي عرفــه العــرب ابتــداء مــن القــرن الرابــع للهجــرة، العــاشر للميــلاد، لأن هــذه المنجــزات لا بــد إلا أن تنعكــس عــلى أحــوال الطــب الشــعبي، عــلى الأقــل في مــا يتعلــق بالممارســات الأوليــة التــي تعطــى إلى المريــض مــما هــو متراكــم في البنيــة الذهنيــة الشــعبية، وخصوصــاً في حــالات المغــص والحمــى ووجــع الــرأس والإســهال وغيرهــا التــي لهــا خزانــة مــلأى بالأعشــاب التــي يمكــن تناولهــا قبــل اســتفحال الأمــر الــذي يســتدعي وجــود المــداوي المحــترف.

في مجـال الإنجـازات الطبيـة العربيـة الرسـمية التـي دخلـت في تاريـخ الطـب العـربي، يمكـن ذكـر مـا يـلي:

30 . المرجع نفسه.

ظهـر الطـب العـربي كعلـم مسـتقل لـه مواصفاتـه وقوانـين ممارسـاته، كـما ظهـر الاختصـاص فيـه. وانفصـل عـن مهنـة العشـابين. وقـد مـارس العـرب الطـب بالعقلانيـة اللازمـة التـي تُوصـل إلى الشـفاء عـن طريـق التشـخيص، ومعرفـة أسـباب المـرض، ووصـف الـدواء. وهـذا يمثّـل المنهجيـة العلميـة للطـب حتـى اليـوم. كـما عرفـوا الكثـير مـن الأمـور المتعلقـة بالجسـم ووظائـف الأعضـاء وتصحيـح الخلـل فيهـا. وفرّقـوا بـين الأمـراض ذات العـوارض المتشـابهة. واهتمـوا بالغـذاء واعتـبروه أهـم مـن الـدواء، ولجـأوا إلى الحميـة لمقاومـة بعـض الأمـراض. كـما قامـوا بطـرق عديـدة للتخفيـف مـن حـدّة المـرض كوضـع الضـمادات، واسـتعمال المغاطـس للتخفيـف مـن الحـرارة. وكانـوا يسـتعملون وسـائل متعـدّدة لدعـم عمليـة التشـخيص مـن خـلال مراقبـة لـون الأظافـر، وفحـص البـول، وجـسّ النبـض. واعتمـدوا عـلى المراقبـة السريريّـة لمعرفـة تطـوّر أحـوال المريـض. وقـد اشـتهر مـن الأطبـاء الذيـن مارسـوا هـذا اللـون مـن التجريـب والمراقبـة والتشـخيص أبـو بكـر الـرازي وإبـن سـينا[31].

بالإضافـة إلى ذلـك، عـرف العـرب علـم التشريـح نظريـاً، ومارسـوه عمليـاً بإجراء العمليـات الجراحيـة التـي كانـت في زمانهـا متقدّمـة، كـما هـي متقدّمـة في الزمـن الحديـث. فربطـوا الشرايـين واسـتخرجوا الأورام مـن الجسـم، والحـصى مـن المثانـة. وطـوّروا عـدداً مـن الآلات الجراحيـة وأصرّوا عـلى أنـه لا يجـوز أن يمـارس الجراحـة مـن لا يعـرف علـم التشريـح معرفـة تامـة. وقـد بـرز في هـذا المجـال الزهـراوي[32].

ومـا يشـهد عـلى براعـة العـرب في الطـب، وهـو مـا يعتـبر مـن أهـم إنجازاتهم، أن لـكل مريـض حالتـه الخاصـة، ودواءه الخـاص. إذ ليـس مـن الـضروري أن

31 . حمود، تاريخ العلوم عند العرب، مذكور سابقاً، ص39 - 40.

32 . للتفصيل حول المنجزات الطبية عند العرب وتفوقهم فيها، أنظر:
http://www.yabeyrouth.com/7535

يشفى مريض من مرض، بدواء شفى مريضاً في الداء نفسه. وهذا يعني أن ظروف المريض وبيئته هي التي تسبّب المرض. وإذا كانت الأسباب مختلفة فلا بد إلا أن تكون الأدوية الشافية مختلفة. وبذلك سبق الأطباء العرب زملاءهم الغربيين في مقولتهم أن ثمة مرضى لا مرضاً. وهذا ما قاله تروسّو بعد ذلك بمئات السنين: «ليس هنالك أمراض، إنما هناك مرضى»[33]. وقد عرف ابن سينا الطب النفسي ومارسه وشفى الكثيرين من المرضى بعد أن مارس معهم نوعاً من الاستجواب على غرار منهجية الطب النفسي[34]. وقد أكد بنتيجة تجربته أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين صحة الجسم وصحة النفس.

اهتم العرب بالمستشفيات لمعالجة المرضى وتعدّدت أغراضها. وكان من بينها مستشفيات للأمراض العقلية. وقد عرفوا تماماً كيفية إصابة المريض بطريقة علمية بعيدة عن الفكرة التي كانت سائدة يومئذ بأن جسم المريض مسكون بالشياطين. وكذلك استعانوا بالموسيقى لمعالجة بعض الأمراض. وهذه كلها أساليب مبتكرة استعملها العرب في معالجة الأمراض. وبارتقاء مهنة الطب، ارتقت مكانة الطبيب في المجتمعات العربية - الاسلامية، وصار له وزنه، باعتباره مخلّصاً الإنسان من الموت، وإن كان الطبيب يعتبر أن الله الشافي، وهو مجرد وسيلة. وبذلك لم تعد مهنة الطب حرفة يدوية، بل صارت علماً شريفاً. وبموجب هذا التقدير دخل عدد كبير من الأطباء بعض أهم وظائف الدولة على مدى التاريخ الإسلامي، ومنهم إبن سينا[35].

33 . حمود، تاريخ العلوم عند العرب، مذكور سابقاً، ص40.

34 . مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، مذكور سابقاً، ص96. وللتفصيل حول براعة إبن سينا في الطب الجسدي والنفسي، أنظر:
إبن سينا، القانون في الطب، ثلاثة مجلدات، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، 1999، بيروت، 2195ص.

35 . http://www.yabeyrouth.com/7535

وكان من تأثير الممارسات الطبية وعلوّ شأنها، أن سهّلت الدولة العباسية أمور العلاج بجعله مجانياً، بالإضافة إلى تأمين الأدوية لذوي الحاجة. وأشرفت على حسن سير العمل في المهنة من خلال وضع القوانين الملزمة. كما أنشأت المعاهد العلمية لتعليم مبادئ الطب واستكمالها بتعليم الرياضيات والمنطق، ومن ثم الدخول في مرحلة التدريب الميداني (الستاج) في المستشفيات. وبعد ذلك تُنظَّم الامتحانات، ومن يفوز يحصل على الاجازة في ممارسة المهنة.

ما كان ذلك على هذه الدقة في التنظيم لولا وجود المؤلفات الطبية والمقررات الملخّصة التي تدرَّس قبل التقدم إلى الامتحانات، بالإضافة إلى الكتب المفصّلة لمن يبغي التوسع في الحصول على المعلومات. وهي بمجملها مشابهة لما يحصل في الكليات الطبية اليوم.

أما بالنسبة لممارسة أخلاقيات المهنة، فقد استندت منظومة القيم في ممارسة الطب إلى مصادر أخلاقية عربية مبنيّة على مبادئ الدينين الإسلامي والمسيحي الموروثين من عصور سبقت عربية وسريانيّة، بالإضافة إلى تقاليد الشهامة والمروءة العربية، وإغاثة الملهوف، وما يتلى في قسم أبقراط، وما يُنسب إلى الطب باعتباره رسالة إنسانية لا مهنة.

وكان من أهم ما يؤمن به الأطباء العرب أوّلية العقل في التعامل مع المريض والمرض. وكانوا يمارسون النقد في تعاملهم مع آراء أساتذهم في كل ما يتعلق بالمرض، مع الاعتراف بفضلهم في هذا الميدان. ومن أهم آرائهم في هذا المجال أن جسم الإنسان هو الذي عليه أن يقاوم المرض بقواه الذاتية ومناعته. واستجابة المريض لأوامر الطبيب وتناول الدواء بانتظام هما العاملان المساعدان على الشفاء، وذلك بمساعدة استجابة الجسم، والإستعداد النفسي للمريض. وهذا يعني أن ما يقوم به الطبيب

من صنوف العلاج ما هو إلا لمساعدة الطبيعة الجسمانية على الشفاء[36].

وجهة الطب الشعبي

إنطلاقاً من هذا التنظيم الصارم لمهنة الطب عند العرب، صار بإمكاننا، وفي شكل واضح، التفريق بين الطب الرسمي الذي سبق وصفه وإظهار مميزاته وانجازاته، باعتباره ممارساً من قبل أطباء متخصصين ومجازين وخاضعين لقوانين منظِّمة للمهنة ولشروط ممارستها، وبين الطب الشعبي الذي لا يخضع إلى أي من هذه الشروط، بل له توجهاته الخاصة وتقاليده المعروفة بين أوساط العامة، وهو متفلّت من أي ضوابط وقوانين، إلا بما أوصت به التقاليد الموروثة منذ أزمنة مغرقة في القدم، دون أن يعرف بالضرورة من الذي اكتشف هذا الدواء لهذا الداء. ويكون الطب الشعبي، في هذا الإطار، مماثلاً للقول المحكي في الحكايات الشعبية، والأشعار المنغّمة والموزونة بالسليقة والعفوية في الثقافة الشعبية العربية.

ومن المعلوم أن هذه التقاليد تورّث الإبن حرفة أبيه وجدّه، وتعطي لأقربائه وأترابه القناعة والثقة بأن الطب الموروث هو الكفيل بالشفاء، في حال ضرَبَ المرضُ أحدَهم. فيكون «الحكيم» المعالج منظوراً إليه باعتباره المخلّص، والمعيد الصحة إلى المريض. ولا يهم أثناء ممارسة العلاج ما يطلبه من أدوات أو وسائل للإستعمال. فما على المتحلّقين إلا أن يستجيبوا لمطالبه دون سؤال أو استفسار.

وإذا كان اعتلال الصحة قديماً قدم الإنسان نفسه، فلا بد إلا أن يكون العلاج كذلك. وهكذا بدأ الطب الشعبي يخطو خطواته الأولى في تدبّر صحة المريض ومحاولة معالجة ما يصيب جسمه من خلل. فحالات الولادة مثلاً بحاجة إلى معالجة ليخرج الجنين من بطن أمه. والمحموم

36 . للمزيد من التفاصيل حول الانجازات الطبية العربية ونجاح العرب في الطب، أنظر: المرجع نفسه.

بحاجة إلى تدبّر، على أي وجه كان، من أجل أن تزول الحمى، والمرتجف برداً بحاجة إلى المعالجة بالتدفئة. إلا أن هذه الحالات وكثيراً غيرها، ما وصلت إلى الشفاء، إلا بعد أن تعدّدت حوادث الوفاة قبل أن ينجح التدبير في الشفاء. وغالباً ما كانت تدار هذه العمليات العلاجية على يد حكيم القبيلة؛ وهو المالك لاحترام جماعته بكرمه وشجاعته، ومُلزِمُهم بطاعته، والحائز على ثقتهم بممارساته. وبهذه الرزمة من عناصر السلطة يعمل على معالجة كل ما يمكن أن يصيب القبيلة، في حالات الغزو ووجوب المدافعة بالشجاعة اللازمة، وفي حالات المرض بالحنكة والتدبير اللذين يمكن أن يضرّا بالمريض أو ينفعاه، باستعمال ما يلزم من المعالجات، عشبيّة كانت، أو مواد عضوية أو جامدة، ولا بأس من إدخال ما يمكن أن يزيد من جدّية المعالجة وسيرورتها من ضروب السحر والتمتمة بمقاطع من الصلوات المخصوصة بالجماعة، بالاحترام والخشوع اللازمين. فإذا شفي المريض كان ذلك بهمّة الطبيب المعالج؛ وإن ساءت حالته ومات، فهذه مشيئة الآلهة، أو الإله الواحد، ولا رادّ لهذه المشيئة.

وباستمرار المعالجة استناداً إلى التجربة والخطأ، صار من المعلوم كيفية التفريق بين الأعشاب والعناصر الأخرى المفيدة لهذا المرض، أو ذاك، وبين الأعشاب السامة والمضرة. وصار، من بعد، أن مارس المطبّبون الشعبيون هذه الحرفة بتقديم ما يلزم من صنوف العلاج المفرد والمركب، وبالتغيير اللازم حتى مرحلة الشفاء. ولا يهم، بعد ذلك، إن شفي المريض بمناعته الجسدية، أو بتأثير العلاجات. ولكن، في كل حال، صار من المعتاد أن تنفع العلاجات اللازمة. وفي حال لم تنفع ما عادت تضرّ، إلا في القليل. وهذا إنجاز هام في مجال الطب الشعبي، اعترف به الطب الرسمي، وإن بقيت المحاذير من ممارسات مَن لا يتمتعون بالخبرة اللازمة التي يمكن أن تفضي إلى الموت، على قول الطبيب الرسمي الكندي، «ليتّقِ الله تعالى المطبّب (الطبيب الشعبي) ولا يخاطر، فليس عن الأنفس عوض». وهذا بالضبط ما كان يقوله أهل السلطة اللغوية والأدبية في معرض نقدهم

لممارسي القول العامي، نثراً وشعراً، المتفلت من ضوابط اللغة وقوانينها[37]. إلا أن المسألة في التعاطي مع المرض مختلفة، لأن حالات الخطأ في المعالجة يمكن أن تؤدي إلى موت المريض.

وعليه، لا بد من متابعة الوسائل المستعملة في الطب الشعبي، إن كان على مستوى السحر، والإيمان الديني، أو على مستوى التداوي بالأعشاب، أو باستعمال التقنيات اللازمة لإعادة الجسم إلى حالته الطبيعية التي تدل على الشفاء.

أنواع الطب الشعبي العربي

على إمتداد تاريخ الطب الشعبي العربي، وتطوّر والوسائل والتقنيات المستعملة في ممارسته، يمكن لحظ التداوي بالسحر والأمور الروحانية المبنية على الإيمان الديني، والعلاج بالأعشاب والمواد العضوية المستخرجة من الكائنات الحية وجمادات الطبيعة، والعلاج باستعمال التقنيّات لرد الجسم إلى حالته الطبيعية، إما بتجبير الكسور أو بالحجامة لإزالة الفضلات السامة من الجسم، أو الكيّ للتأثير على مجريات الدم في الشرايين لمحاربة الجلطة أو الفالج، وبعض الآلام التي يمكن أن يصاب بها المريض.

العلاج بالسحر والأمور الروحانية

كان هذا النوع من المعالجة أساس الطب في كل مكان من العالم. ذلك أن مواجهة المرض كان بعد ظهوره مباشرة، ما يعني التصرف بما يمتلكه

---

37 . ثمة منهجية صارمة في التعاطي مع كل ما يخالف التوجه الرسمي في الثقافة والمعرفة على اختلافهما، وخصوصاً في مسائل الأدب والعلم والموسيقى والطب وغيرها، أنظر نماذج لكل ذلك في الكتابين الأولين لهذه المدونة الثقافية للمؤلف:
عاطف عطيه، في الثقافة الشعبية العربية، بنى السرد الحكائي في الأدب الشعبي، جروس برس، 2016، طرابلس، 272ص.
عاطف عطيه، في الثقافة الشعبية العربية، المعنى في القول والمغنى، جروس برس، 2017، طرابلس، 256ص.

الإنسـان مـن معـارف ومهـارات، وهـي بالطبـع قليلـة لم تتراكـم بالخـبرة والتجربـة. ومـا كان إلا السـحر والممارسـة السـحرية اللـذان يمارسـهما عـرّاف القريـة أو العشـيرة. ولأن لا وسـيلة غيرهـا في المعالجـة، كان عـلى المتحلّقـين حـول المريـض أن يؤمنـوا بممارسـتها باعتبارهـا السـبيل الوحيـد إلى الشـفاء. هـذا السـلوك مرتبـط بالبنيـة الذهنيـة، وبالمعتقـدات والتقاليـد الراسـخة في أي مجتمـع، قديمـاً كان أو حديثـاً، ولا فـرق في ذلـك إذا كان جاهـلاً أو متعلـماً، وإن كانـت هـذه المعتقـدات والتقاليـد أكـثر رسـوخاً في المجتمـع الجاهـل منـه في المجتمـع المتعلـم. ذلـك أن المريـض، حتـى في المجتمـع الحديـث، وبـصرف النظـر عـن درجـة تعليمـه أو ثقافتـه، يمكـن أن يلجـأ إلى الممارسـات السـحرية في المعالجـة عندمـا يعجـز الطـب الحديـث عـن شـفائه بعـد طـول معالجـة. وقـد لمسـنا هـذا السـلوك لـدى الكثيريـن مـن الذيـن أصيبـوا بأمـراض مزمنـة وقاتلـة مبرّريـن ذلـك بقولهـم إن المريـض يتعلـق بحبـال الهـواء، والغريـق يتمسـك بالعليّـق (نبتـة كثـيرة الشـوك القـاسي والمـؤذي) لينقـذ نفسـه مـن الغـرق. ولا يشـذّ عـن ذلـك مـن يذهـب، حتـى وإن كان أسـتاذاً جامعيـاً، إلى أحـد العرّافـين، أو أكـثر، لمعرفـة مصـير غـرض أضاعـه أو سُرق منـه. فيخـسر نتيجـة لذلـك، وبالإضافـة إلى الغـرض الضائـع، الإكراميـة التـي نفحهـا للعـرّاف، أو العرافـين.

ومـن المهـم في هـذا المجـال ذكـر الأسـباب التـي تدعـو إلى هـذا السـلوك، إن كان ناشـئاً عـن الجهـل والفقـر، أو خلـوّ المحيـط مـن العنـاصر اللازمـة للمعالجـة. الجهـل والفقـر يدفعـان المريـض وأهلـه إلى الاسـتعداد لتقبّـل أي نـوع مـن أنـواع المعالجـة. وفي الوقـت نفسـه، يكونـون عـلى أتـمّ الاسـتعداد لتقبّـل النتائـج مهـما كان نوعهـا، ولـو أدّت إلى وفـاة المريـض. فهـذا أمـر لا رادّ لـه، وهـو مـن القـدر المحتـوم. أمـا خلـوّ العنـاصر اللازمـة للعـلاج، مـن أطبـاء وأدويـة ومستشـفيات، فهـي المسـاعدة عـلى تقبـل هـذا المصـير. وعـلى العكـس، إذا كانـت هـذه العنـاصر موجـودة، فإنهـا تخفّـف مـن التوجـه ناحيـة السـحر والشـعوذة، لوجـود البدائـل، وخصوصـاً عندمـا تثبـت قدرتهـا

على الشفاء. ما يعني أن المريض وأهل المريض لا يبغون سوى الشفاء من أي مصدر أتى. ذلك أنهم يريدون «أكل العنب لا قتل الناطور».

مع مجيء الإسلام، وحلول الإيمان الديني محل الإيمان بالسحر والشعوذة، تغيّرت طرق المعالجة الروحانية، باستعمال التمتمات السحرية والطقوس الناشئة عنها، إلى معالجات بآيات من القرآن الكريم، وبتفاصيل مبثوثة في كتاب الطب النبوي، وما جاء في كتب التراث الديني.

يقدم لنا الباحث السعودي أحمد عبد الهادي صالح نبذة عن الطب الروحاني المتأتّي من الاستعانة بآيات من القرآن ومن الأحاديث النبوية التي تساعد على الشفاء من المرض[38]. فيقول إن أحد أهل المريض يهرع إلى الشيخ أو الملا، أو من يعرف قراءة القرآن في ذلك الوقت، ليحضره ليقرأ ما تيسّر من آيات القرآن، تمثلاً لقول النبي: «من لم يستشفِ بالقرآن فلا شفاه الله»[39]. وفي هذا الجو المفعم بالخوف على المريض من الموت، وعلى رجاء الشفاء، يتلو الشيخ، أو غيره ممن حضر بعض الآيات القرآنية الموصى بقراءتها في هذه الأجواء. كما أن بعض القراء لا يحضر وإنما يكتفي بكتابة آيات من القرآن الكريم في إناء معدن مملوء بالماء والزعفران، أو من خلال النفخ على الماء في الكأس بعد قراءة عدد من الآيات والسوَر وإرساله للمريض»[40].

ولأن المريض يرى مصيره مرتبطاً بالفعل العلاجي، فإن المعالجين، لذلك،

38 . أحمد عبد الهادي المحمد صالح، الثقافة الشعبية، العدد 35، خريف 2016، المنامة، ص97.

39 . المرجع نفسه نقلًا عن: http://ablibrary.net/%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A/%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%AA%D8%A8/7512_%D9%85%D9%83%D8%A7%D8%B1%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AE%D9%84%D8%A7%D9%82/%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%81%D8%AD%D8%A9_363
الطبرسي، مكارم الأخلاق، الطبعة السادسة، انتشارات الشريف الرضي، 1972، ص363.

40 . صالح، الثقافة الشعبية، مذكور سابقاً، ص97.

احتلـوا المواقـع المتقدمـة في المجتمـع، وحـازوا عـلى الإحـترام والإجـلال مـن العامـة لمـا يقومـون بـه مـن ممارسـات ماديـة وروحانيـة لشـفاء المـرضى، خصوصـاً أنهـم يتلـون الآيـات مـن الذكـر الحكيـم، ويصنعـون الأحجبـة للحمايـة والشـفاء ويكـثرون مـن الدعـاء في حضـور أهـل المريـض. وهـي كلهـا ممارسـات روحانيـة تضفـي عـلى المشـهد الكثـير مـن الهيبـة والوقـار، وتعطـي للمعالـج شـحنة مـن الـولاء المطلـق لـه، والإيمـان بصنـع مـا يعجـز عـن صناعتـه بقيـة البـشر.

والإيمـان بشـفاء الأمـراض بالقـرآن قديـم قـدم الديـن نفسـه. فالقـرآن، باعتبـار المؤمنـين، هـو وحـده القـادر عـلى الشـفاء التـام مـن كل الأمـراض. وإذا تـداوى العليـل بـه «بصـدق وإيمـان، وقبـول تـام، واعتقـاد جـازم، واسـتيفاء شروطـه، لم يقاومـه الـداء أبـداً... فـما مـن مـرض مـن أمـراض القلـوب والأبـدان إلا وفي القـرآن سـبيل الدلالـة عـلى علاجـه، وسـببه، والحميـة منـه لمـن رزقـه اللـه فهـماً لكتابـه. واللـه عـز وجـل قـد ذكـر في القـرآن أمـراض القلـوب والأبـدان وطـب القلـوب والأبـدان»[41]. يقـول إبـن القيـم في كيفيـة عـلاج مرضـه بالقـول: «لقـد مـرّ بي في مكـة وقـت سـقمت فيـه، ولا أجـد طبيبـاً ولا دواء، وكنـت أعالـج نفـسي بالفاتحـة، فـأرى لهـا تأثـيراً عجيبـاً، آخـذ شربـة مـن مـاء زمـزم وأقرؤهـا عليهـا مـراراً، ثـم أشربـه فوجـدت بذلـك الـبرء التـام، ثـم صرت أعتمد ذلـك عنـد كثـير مـن الأوجـاع فأنتفـع بـه غايـة الانتفـاع، فكنـت أصـف ذلـك، لمـن يشـتكي ألمـاً فـكان كثـير منهـم يـبرأ سريعـاً»[42]. إلا أن هـذه العلاجـات لا تشـفي إلا إذا كان المريـض صـادق الإيمـان، بالإضافـة إلى اعتقـاده الجـازم بـأن القـرآن شـفاء ورحمـة للمؤمنـين. هـذا مـن جهـة المريـض. أمـا مـن جهـة المعالـج، فعليـه أن يكـون صادقـاً في إيمانـه، وثابتـاً في قناعتـه بـأن القـرآن هـو الشـافي. وعندئـذ يحصـل الشـفاء[43]. لذلـك جـاء قـول ابـن القيـم بـأن الكثيريـن

41 . سـعيد بـن علـي القحطانـي (جمـع وإعـداد)، حصـن المسـلم، ويليـه الدعـاء والعلاج بالرقـى مـن الكتاب والسـنّة، الطبعـة الثانيـة، دار الفجـر، 2010، ص188.

42 . المرجـع نفسـه، ص190. وهـذا النـص منقـول، علـى مـا يقـول القحطانـي عـن إبـن قيـم الجوزيـة، زاد المعـاد، 4/178، دون ذكـر دار النشـر.

43 . المرجع نفسه، ص ص191 - 193.

يـبرؤون، مـا يعنـي أن المؤمـن وحـده والمسـلّم مقاديـره إلى اللـه، وإلى كلام اللـه هـو الـذي يـبرأ. أمـا الذيـن في قلوبهـم زيـغ مـن المـرضى والمعالجـين فـلا شـفاء لهـم، ولا قـدرة عـلى الشـفاء.

ويـروى عـن النبـي محمـد (ص) أنـه قـال: في «الحمـد للـه» سـبع مـرات شـفاء مـن كل داء. فـإن عـوّذ بهـا صاحبهـا مائـة مـرة وكان الـروح قـد خـرج مـن الجسـد، ردّ اللـه عليـه الـروح. ويقـول الإمـام العـالم: مـن نالتـه علّـة فليقـرأ عليهـا أم الكتـاب سـبع مـرات فـإن سـكنت، وإلا فليقرأهـا سـبعين مـرة، فإنهـا تسـكن». وعـن الإمـام الباقـر أنـه قـال: «إذا كانـت بـك علـة تتخـوّف عـلى نفسـك منهـا، فاقـرأ سـورة الأنعـام، فإنـه لا ينالـك مـن تلـك العلّـة مـا تكـره»[44]. وروي أنـه مـن كان مغلوبـاً عـلى عقلـه قرئـت عليـه «يـس» أو كتبـه وسـقاه فإنـه يـبرأ ، فـإن كتبتـه بمـاء الزعفـران في إنـاء مـن زجـاج فهـو خـير فإنـه يـبرأ [45].

هـذا مـا يمكـن ذكـره باختصـار عـن معالجـة الأمـراض بالأسـاليب الروحانيـة في مـا يتعلـق بالعـلاج، بعـد الإصابـة بالمـرض، أمـا في مسـألة الطـب الوقـائي، فقـد أظهـرت المعالجـات الروحانيـة كيفيـة الافـادة مـن آيـات قرآنيـة كثـيرة للوقايـة مـن الأمـراض ومـن الغـم، وفي المسـاعدة للوصـول إلى السـعة والفـرج وراحـة البـال وإبعـاد الآفـات الجسـمانية قبـل أن تـضرب الجسـم، وكذلـك كيفيـة العمـل عـلى اسـتخراج الفضـلات السـامة منـه.

يقـول الباقـر في هـذا الخصـوص: مـن قـرأ سـورة النحـل في كل شـهر كفـى المغـرم في الدنيـا سـبعين نوعـاً مـن أنـواع البـلاء، أهونهـا الجنـون والجـذام والـبرص. وفي روايـة أخـرى، للتحـرز مـن إبليـس وجنـوده وأشـياعه. وعنـه قـال: مـن قـرأ سـورة لقـمان في كل ليلـة وكّل اللـه عـز وجـلّ بـه في ليلتـه ملائكـة يحفظونـه مـن إبليـس وجنـوده حتـى يصبـح ، فـإن قرأهـا بالنهـار لم يزالـوا

44 . أنظر في هذا الخصوص للتفصيل:
الطبرسي، مكارم الأخلاق، مذكور سابقاً، ص 363-364.

45 . المرجع نفسه، ص365.

يحفظونـه مـن إبليـس وجنـوده حتـى يمـسي .

عـن أبي عبـد اللـه قـال: إن لـكل شـئ قلبـاً، وقلـب القـرآن «يـس»، فمـن قـرأ «يـس» قبـل أن يمـسي، كان في نهـاره مـن المحفوظـين والمرزوقـين حتـى يمـسي. ومـن قرأهـا في ليلـة قبـل أن ينـام وكّل اللـه بـه ألـف ملـك يحفظونـه مـن كل شـيطان رجيـم، ومـن كل آفـة ، وإن مـات في يومـه أدخلـه اللـه الجنـة. وفي روايـة أخـرى تقـرأ للدنيـا والآخـرة، وللحفـظ مـن كل آفـة وبليّـة في النفـس والأهـل والمـال.

وعـن أبي عبـد اللـه قـال : مـن قـرأ سـورة «الصافـات» في كل يـوم جمعـة، لم يـزل محفوظـاً مـن كل آفـة، مدفوعـاً عنـه كل بليّـة في حيـاة الدنيـا، مرزوقـاً في الدنيـا بأوسـع مـا يكـون مـن الـرزق ولم يصبـه اللـه في مالـه ولا ولـده ولا بدنـه بسـوء مـن شـيطان رجيـم، ولا مـن جبـار عنيـد.

وعنـه قـال : مـن قـرأ سـورة «الزمـر» في يومـه أو ليلتـه، أعطـاه اللـه شرف الدنيـا والآخـرة وأعـزه بـلا عشـيرة ولا مـال. ومـن قـرأ سـورة «الطـور» جمـع اللـه عـز وجـل لـه خـير الدنيـا والآخـرة. ومـن قـرأ سـورة الواقعـة في كل ليلـة جمعـة أحبّـه اللـه، وحبّبـه إلى النـاس أجمعـين ولم يـرَ في الدنيـا بؤسـاً أبـداً ولا فقـراً ولا فاقـة ولا آفـة مـن آفـات الدنيـا. ومـن قـرأ سـورة «الحديـد» و«المجادلـة» في صـلاة فريضـة، وأدمنهـا، لم يـرَ في أهلـه وبدنـه ومالـه سـوءاً، ولا خصاصـة .

وعـن عـلي بـن الحسـين أنـه قـال : مـن قـرأ سـورة الممتحنـة في فرائضـه ونوافلـه، امتحـن اللـه قلبـه للايمـان، ونـوّر لـه بـصره، ولا يصيبـه فقـر أبـداً، ولا جنـون في بدنـه ولا في ولـده.

ومـن قـرأ «إذا زلزلـت» في نوافلـه، لم تصبـه زلزلـة أبـداً، ولم يمـت بهـا، ولا بصاعقـة، ولا بآفـة مـن آفـات الدنيـا. ومـن قـرأ «ويـل لـكل همـزة» في فرائضه نفـت عنـه الفقـر وجلبـت إليـه الـرزق، وتدفـع عنـه ميتـة السـوء[46].

46 . أنظر في هذا الخصوص للتفصيل، المرجع نفسه، ص364 - 365.

إلى ذلك، فإنه من المتداول بكثرة في تقاليد المسلمين وعاداتهم كثرة الدعاء، والإيمان بجدوى الدعاء وفائدته، إن كان للشفاء من المرض، أو عدم الوقوع فيه، أو التوفيق في سفر أو إمتحان أو زواج أو عمل أو غير ذلك. ويعتمد المؤمنون بذلك على قول للرسول: «لا يرد القضاء إلا الدعاء»[47]. وأكثر ما تقام الأدعية في أوقات الصلاة جماعة، وفي مجالس العزاء. يقيمها الإمام ويردّد المصلون بعده كلمة آمين. وفي الصلاة الإفرادية، عادة ما يدعو المصلّي بالنجاح والتوفيق والشفاء لأقربائه ومحبّيه. وهي الأدعية المحبب تداولها بين الناس. ولا يخرج عن هذا المسار ما يقوم به المشايخ والمقصودون من العامة لكتابة حجاب، أو تحضير كتاب لحماية المؤمن من كل شر ممكن، أو الإيعاز بارتداء التمائم والتعاويذ التي تتكفل بالوقاية والحماية.

وفي هذا المجال أيضاً، تدخل الممارسات السحرية الممزوجة بالإيمان الديني لتقديم العون للمريض، إما لأنه مصاب بالعين أو مكتوب له أن يمرض. وهي حوادث نفسية ومتوهّمة دائماً ما يجد لها المعالجون الأدوية الناجعة التي يمكن أن تخرجهم منها[48]. ذلك أن «أكثر ما يمكن ممارسته من ضروب السحر هو ما له علاقة بشفاء المرضى، وخصوصاً المصابين بأمراض مستعصية وغير قابلة للشفاء. فيتوجه هؤلاء إلى السحر وفنونه، علّه يشفي، بمساعدة القوى الخارقة، القابع وجودها في الوعي واللاوعي، ما عجز عنه الطب الحديث. وفي هذه الحالة، يظهر الإيمان المغطّى بالعصرنة بما يمكن أن يفعله السحر، وإن كانت الذريعة أن صاحب الحاجة يتعلق بحبال الهواء»[49].

ومن المفيد أن نذكر في ميدان السحر، أهم ما يمكن فعله للشفاء من

47 . صالح، الثقافة الشعبية، العدد35، مذكور سابقاً، ص97.

48 . حول مفاعيل السحر وصيبة العين والكبسة والعقد وما يمكن أن تسببه من أمراض، ومفاعيل أخرى، أنظر:
عاطف عطيه، المعتقدات في التقاليد والعادات، جروس برس، 2018، طرابلس، ص ص 117-147.

49 . المرجع نفسه، ص123.

المرض. ومن المهم أن نلحظ أن مرجعية الفعل السحري تنطلق دائماً من خارج جسم المريض، بمعنى أن سبب المرض فعل سحري قام به مبغض وحسود، وما على المعالج إلا معرفته، ومن ثم القيام بما يمكن إبطال هذا الفعل السحري بممارسات معلومة. ومعرفة سبب المرض أهم ما يمكن فعله في الطب الرسمي القديم والحديث أو معرفة سبب المرض، إن كان من داخل الجسم أو من خارجه، ولكن بالطريقة العقلانية التي تربط الأسباب بالنتائج من خلال التشخيص، ومن ثم تحديد المرض بعد ربطه بمسبباته الشخصية والبيئية وبعد ذلك يأتي وصف العلاج، وتحضير الدواء.

وعلى ذلك، يمكن وصف بعض التقنيات المستعملة في الطب السحري، على سبيل المثال لا الحصر. سكب الرصاصة للمريض التي يمكن أن يبيّن الشكل المذاب بعد وضعه في الماء صورة القائم بصيبة العين. فيتم العمل على إزالة فعله بسلوك محدد. وهو مشابه لما يجري في الجزيرة العربية والمشرق العربي من معالجة لصيبة العين، ويسمى الفعل سكب رصاصة، وفي المغرب: «التراب المحموس». وهو ناشئ عن اعتقاد راسخ بأن المرض ناشئ عن الحسد. ولا بد من إبطاله. يخمّن أهل المريض من يمكن أن يكون الفاعل من بين عدة أشخاص مشكوك فيهم. فتُجمع كمية من التراب من أمام بيت أو بيوت المشكوك بأمرهم وتوضع في محماس (جرن صغير نحاسي) ومن ثم توضع على النار لتحميته، بعد ذلك يصب المعالج الماء على التراب الحامي قرب المريض بحيث يصدر صوت قوي ناشيء عن حماوة التراب عند صب الماء عليه، كما يخرج دخان كثيف أمام مسمع ومرأى المريض، إلى أن يسكن الصوت. وبعد ذلك يُرش التراب المجبول في طريق أو طرقات المشتبه فيهم. ولدى مرور الفاعل فوقه يشفى المريض.

أما الحدايد السبع فهي قطع معدنية توضع في إناء نحاسي ومن ثم على النار حتى تحمى جيداً وتوضع بالقرب من المريض ويصبّ عليها الماء، فيصدر صوت قوي ودخان كثيف يجفلان المريض ويذهبان بشيء من

مرضـه، عـلى مـا يقـال.

لا يخـرج الأمـر في المغـرب العـربي عـن هـذا التوجـه. ذلـك أن الاعتقـاد الشـعبي في قـدرة القـوى الخارقـة والخفيـة عـلى إشـفاء المـرضى مترسـخ في ذهـن المغاربـة[50]. ولا يختلـف الأمـر في ذلـك، بـين الفئـات الشـعبية والنخبـة، ولا ينحـصر الاعتقـاد فيـه عنـد الفقـراء وغـير المتعلمـين، بـل يصـل أيضـاً إلى المتعلمـين وذوي مسـتوى ثقـافي ومـدرسي عـال، هـذا عـلى الأقـل في كل مـا لـه علاقـة بالطـب الشـعبي المغـربي، وليـس فقـط مـا يتعلـق بالقـوى الخارقـة والغيبيـة[51]. ويعتـبر مقبـوب أن ظـروف انتشـار الطـب الشـعبي في المغـرب ناشـئ عـن الحصـار الـذي فـرض عليـه مـن رجـال الديـن والعلمانيـين عـلى حـد سـواء، باعتبـار أن كل محجـوب مرغـوب. إلا أن التهميـش الـذي لحقـه مـن هـذه الفئـات بقـي محصـوراً فيهـا. وقـد تجـلى ذلـك بعـد اعتبارهـا نوعـاً مـن الشـعوذة المحرّمـة شرعـاً، مـا يعنـي امتنـاع رجـال الديـن عـن كتابـة التمائـم وصنـع الحجابـات والتعاويـذ التـي تعتـبر خروجـاً عـلى الديـن، ومـن البـدع والهرطقـات. ومـع ذلـك انتـشرت هـذه الممارسـات في المجتمـع المغـربي الـذي يضـم الأكثريـة مـن الفئـات الشـعبية التـي تشـكل المخـزن الأسـاسي لمرتـادي مراكـز الطـب الشـعبي.

لا يـزال المجتمـع المغـربي ينظـر نظـرة تبجيـل إلى مـمارسي مهنـة الطـب الشـعبي. إلا أن هـذا التبجيـل لا يطـول المعالجـين الذيـن يتعاطـون فنـون السـحر والشـعوذة تحـت غطـاء الديـن. وجـاء هـذا التبجيـل مـن النتائـج التي قدّمهـا الطـب الشـعبي بعـد عجـز الطـب الحديـث عـن الوصـول إلى هـذه النتائـج. ذلـك أن التعامـل مـع صنـوف العـلاج تختلـف بـين معالـج وآخـر. ويكتسـب المعالـج أهميتـه وينتـزع احترامـه مـن الطريقـة التـي يعالـج فيهـا المريـض، ومـن العـلاج الـذي يصفـه لـه. وهنـا يـأتي دور العطـار الـذي عليـه أن يحـضّر الـدواء الموصـوف. وهـو مـا يشـبه اليـوم طريقـة التعاطـي بـين الطبيب

50 . إدريـس مقبـوب، طقـوس العـلاج الشـعبي بالمغـرب، الثقافـة الشـعبية، العـدد34، صيـف 2016، المنامـة، ص106.

51 . المرجع نفسه، ص106.

والصيدلي. وعلى العطار أو الحوّاج (محضّر الأدوية) أن يلبّي طلب المعالج الذي تتفاوت أهميته من بين عدة أصناف من المعالجين، من مثل: الفقيه والمشعوذ والشوّافة والعشّاب. ولأن ممارسي الحرفة كثيرون، فإن الاحترام الواجب تقديمه يكون محصوراً بالثقة، من ناحية؛ وبالشرعية القانونية، من ناحية ثانية. إلا أن النوعية المنحطّة من صنوف المعالجين، على ما يقول مقبوب، هي تلك الفئة التي تتعاطى التشوّف (السحر والشعوذة) في المعالجة[52]. وعندما يقال عن أحدهم بأنه ولد الشوّافة، فهذا يعني أن هذا القول شتيمة. ومع ذلك فهو منتشر في بلاد المغرب.

إلا أن أهم ما يميز العلاج السحري في المغرب العربي على العموم توزعه على عدة فروع، ما يدل على انتشاره وعلى شدة الطلب عليه. ومن هذه الفروع: العلاج بالتشوّف بواسطة الورق، والعلاج عن طريق التعوّد باستعمال القدرة الخارقة على الشفاء، والعلاج عن طريق الطلاسم، والكي. وهي كلها أفعال سحرية يقوم بها معالجون لا يدّعون الشفاء بأنفسهم، بل هم مجرد وسيلة، والشافي هو الله وحده.

من أهم هذه العلاجات الإشفاء من العين الفارغة. وهي ما تسمى في بلاد المشرق بالإصابة بالعين. وهي تدخل في باب العلاج بالتشوّف أو بالسحر. ويقبل عليها الكثيرون في المجتمع المغاربي، ومن كل الفئات. وأهم المبرّرات لتداولها الوقاية من العين والحسد. ذلك أن المجتمع مطبوع بتناقض المصالح والنزاعات، ما يستدعي وضع هذه النزاعات في المخيال الاجتماعي على أنها آليات عرقلة وتدمير للآخر الذي عليه أن يتخذ الاحتياطات اللازمة للحماية. وعليه، كثرت الطرق السحرية لتجاوز آليات عمل النزاعات. ومن أهم الوسائل وضع التمائم والطلاسم التي عليها أن تُبطل مفعول العين الشريرة، منها «كف فاطمة» و«الخميسة»، و«حذوة الحصان»، و«العين الزرقاء»، وغيرها[53].

---

52 . المرجع نفسه، ص107.

53 . أنظر في هذا الخصوص للتفصيل:
مقبوب، المرجع نفسه، ص ص 106 - 111. أنظر أيضاً للتفصيل حول الإصابة بالعين

ومـن أطـرف مـا يخضـع للمعالجـة السـحرية في المغرب العـربي، هـو «الثقاف». وظاهـرة الثقـاف مـن الظواهـر الاجتماعيـة المعتـبرة في الذهنيـة المغربيـة. ويقـوم الطـب الشـعبي بمعالجتهـا، باعتبارهـا ظاهـرة مرضيـة تتجلى في عـدم قـدرة الرجـل عـلى الممارسـة الجنسـية، وتنفّـره مـن الـزواج. ويعتـبر العامـة، وكذلـك معالجـو هـذه الظاهـرة أن الثقـاف نتيجـة فعـل سـحري يـؤدي إلى العجـز. وينطبـق الأمـر عـلى المـرأة التـي لا تسـتطيع الانجـاب فيقـال لهـا مثقِفـة بفعـل السـحر. فيصـير الأمـر عـلى الشـكل التـالي: الثقـاف هـو عـدم قـدرة الرجـل عـلى ممارسـة الجنـس وعـدم رغبـة المـرأة بهـذه الممارسـة لإصابتهـا بالـبرود الجنـسي أو عـدم قدرتهـا عـلى الإحسـاس بالرغبـة الجنسـية. ووصـف الثقـاف عـلى هـذا النحـو والناشـئ عـن الذهنيـة المغربيـة لـه دلالـة واحـدة، وهـي الإيحـاء بالقـدرة عـلى حـل هـذه المشـكلة بوسـاطة السـحر. وبالتـالي يـأتي الشـفاء عـلى يـد المعالجـين السـحرة. ويبـدأ هـؤلاء بالمعالجـة إنطلاقـاً مـن نقطـة محـددة وهـي أن ثمـة مـن قـام بهـذا الفعـل الشـيطاني، ومـن الـضروري إنهـاؤه.

وتطـاول الثقـاف ليصـل إلى التأثـير في أمـور أخـرى تتعلـق بالتجـارة والتوفيـق في الأعـمال والنجـاح في أمـر الحيـاة، فيحـل الجمـود والعجـز و«الثقـاف»، كنتيجـة للفعـل السـحري. ويقابـل هـذا المصطلـح في المـشرق العـربي مصطلـح العقـد أو الكتيبـة، ولـه المفعـول نفسـه الـذي للثقـاف[54]. ومـن الأمـور الطريفـة في هـذا المجـال تعـرّض الفتـاة للثقـاف مـن خـلال تصفيحهـا حتـى لا تتعـرض للإغتصـاب، أو إلى الممارسـة الجنسـية برضاهـا قبـل الـزواج. وتتـم العمليـة بالممارسـة السـحرية مـع كل الطقـوس المرافقـة لهـا. وكذلـك الطقـوس كافـة التـي تلغـي مفاعيلهـا. وهـي ظاهـرة منتـشرة في شـكل كثيـف في بلـدان المغـرب العـربي، وخصوصـاً في الأريـاف[55].

وكيفية الوقاية منها:
عطيه، المعتقدات في التقاليد والعادات، مذكور سابقاً، ص ص129 - 136.

54 . مقبوب، المرجع نفسه، ص111 - 112؛ وكذلك عطيه، المرجع نفسه، الفصل الثالث، ص ص22-27.

55 . بالإضافة إلى ما هو مشار إليه في الدراسة القيمة التي نحن بصددها

والأهم من عقد الثقاف أو الكتابة أو الربط، هو تحريره أو فكّه. وهنا، لا بد من اقتران القول والفعل في عملية انحلال الثقاف. وثمة وصفات جاهزة للقيام بهذا العمل بإشراف المعالج ومشاركته في مفردات القول أو خلط العناصر العشبية والمعدنية والحيوانية والإنسانية لتهيئة الوصفات السحرية التي تردّ المثقِف أو المثقِفة إلى الحالة الطبيعية.

أما التوكال، فهو من الظواهر الأكثر انتشاراً في المغرب العربي لأنها تتلبّس الجسد الإنساني وتتمكن منه، فيضمر ويعتلّ ويتناقص وزنه بوتيرة متسارعة دون معرفة السبب، ما يستتبع المسارعة في العلاج الشعبي القاطن في الأذهان، مع القناعة التامة بأن الطب الحديث لا ينفع في هذه الحالات، بعد التجربة. والتوكال، كما الثقاف فعل إنساني سحري تجاه إنسان آخر، يكنّ له الكراهية والحقد ويحسده على نجاحه أو حسنه، ويغار منه لتفوّقه عليه.

تقوم معالجة هذه الظاهرة على ممارسات سحرية تتكئ على أمور الدين والإيمان الديني لدى المصاب بالعلة. يقوم المعالج، وهو هنا، الفقيه بالمعنى الشعبي لهذا المصطلح، بتحضير الأحجبة والطلاسم المؤلفة من أوراق يخط فيها كلمات صعبة القراءة منها آيات قرآنية وأدعية تخاط على شكل مثلث، أو غيره، للحفظ من التلوث، وتوضع في عنق المريض أو تلصق بثيابه. ويتبع ذلك معالجات عشبية ومواد أخرى تؤثر على المريض، إما من خلال استنشاقها أو شربها ليشفى. وما عليه بعد ذلك إلا الانتظار.

أما المعالِجة الأنثى، أو الشوافة، فهي تعتبر أنها مسخّرة من قبل الإخوان (الجان) للقيام بعملها خدمة للناس. وهي مجرد وسيلة لتنفيذ الأمر

لإدريس مقبوب حول ظاهرة الثقاف وموقع عملية التصفيح فيها، باعتبارها عملية سحرية، في المرجع نفسه، ص ص111-114؛ فإن باحثاً تونسياً قد أفاض بشرح وتحليل ظاهرة التصفيح في تونس، وفي المغرب العربي في شكل عام، مع كيفية إزالة مفعولها، في: عبد الرزاق القلسي، الطب الشعبي في تونس، الثقافة الشعبية، العدد34، صيف 2016، ص ص122 - 133.

الإلهي في الشفاء. تشيع الشوافة ذلك لتضفي على عملها نوعاً من الشرعية لتحمي نفسها من الملاحقة. وتلقى هذه المهنة رواجاً كبيراً في المجتمع المغربي، ومن مختلف الفئات الاجتماعية، رغم سوء سمعتها، وتدنّي مستواها العلاجي[56]. ولا يختلف الأمر عند العلاج بالعوادة. الممارسات نفسها، والطرق نفسها، والأساليب نفسها أيضا. ورق اللعب والمواد المستعملة في تحضير الدواء وخض الجسم في طريقة سريعة تنقله من حال إلى حال[57]. وفي هذا كله ما يقدم نوعاً من الراحة النفسية التي يجدها المريض بعد تعرّضة لضغوطات الحياة اليومية، والأزمات النفسية التي يمر بها في مجرى ممارسته العملية وضائقته الاقتصادية.

يقدم لنا مقبوب في هذا الإطار ملخصاً لحوار جرى مع أحد «المرضى» عقب خروجه من خيمة العوّادة (المعالجة). فسأله إذا كان يعتبر نفسه مريضاً. فأجابه بأنه يحس بالفشل وبالدوخة (شعور نفسي وإحساس جسدي معاً)، ما جعله يأتي إلى هذا المكان. وجاء انتقاؤه لإحداهن لشهرتها ومهارتها في العلاج. ولما سأله كيف عرفت ذلك؟ أجابه بأنها اكتسبت البركة بعد زيارتها ضريح وليّ مشهور. وتجلت مهارتها في إشفاء الكثير من الحالات التي عجز عن إشفائها الطب الحديث. لديها بركة إذاً؟ سأله. نعم لديها بركة إلهية، ولكن لا أدري كيف. وأنا أحس الآن بنوع من الإطمئنان والراحة، منهياً بذلك، حديثه مع السائل[58].

ما يمكن استخلاصه من هذا الحوار، أن العوّادة ذات بركة مستمدة من الأولياء الصالحين، ولا تعدو أن تكون في ذلك مجرد وسيلة للشفاء سخّرها رب العالمين للقيام بهذا العمل بمساعدة من الأولياء الصالحين. فتبقى بذلك تحت غطاء الدين، وتتجنب ملاحقة السلطات الشرعية والحكومية.

---

56 . مقبوب، طقوس العلاج الشعبي بالمغرب، مذكور سابقاً، ص 116.

57 . المرجع نفسه، ص 117 - 118.

58 . المرجع نفسه، ص118.

الفصل الثاني
الطب النبوي

كان للإسلام تأثير على الجزيرة العربية، ومن ثم على البلدان التي اعتنقته بعد انتشاره. وصار الإسلام في هذه البلدان، كدين وحضارة، قدوة ومثالاً، في الحياة المادية والروحية. وكان للتطور السريع في المجتمع الإسلامي أن جعل منه مختبراً للتفاعل الإنساني بين شتى المعتقدات والمعارف، ما أغنى هذا المجتمع وأتاح له نشر رسالته الحضارية إلى العالم المتمدّن آنذاك في بلاد الشام، وما بين النهرين، وصولاً إلى أقاصي الشرق في مدة زمنية قياسية.

ممهّدات الطب النبوي

هذا الاستقطاب اتخذ من النبوة على الصعيد الديني، ومن سيرة النبي محمد الحياتية اليومية، أساساً في الممارسة العملية لشؤون الدين والإيمان، من ناحية؛ ولشؤون الحياة العملية في الممارسة اليومية، على صعيد العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والمعاملات على كل الصعد، ومنها، بطبيعة الحال، ما يتعلق بشؤون المرض والعلاج وكيفية المحافظة على سلامة الجسم بالوقاية، من ناحية ثانية.

وكان من الطبيعي أن يكون للعرب قبل الاسلام إطلاع على شؤون المرض والعلاج، مثلهم مثل أي شعب آخر، وفي أي منطقة من العالم. وعلى هذا الأساس استند المسلمون على وصايا الإسلام في الانفتاح على العالم، وطلب العلم، والافادة مما هو موجود من أي مصدر أتى، ليتم البناء عليه؛ وليصير للمسلمين باعهم الطويل في شتى الأمور التي يتطلبها المجتمع المسلم الجديد، ومنها أمور الطب والعلاج.

كانـت الثقـة المطلقـة بمـا يقولـه النبـي سـبباً أساسـياً في كل مـا يشـير إليـه في قضايـا الطـب والعـلاج. وكان يستشـار في أي أمـر يتعلـق بهـما. ووصـل الأمـر إلى اعتبـار مـا يقولـه الرسـول في مسـائل الطـب والعـلاج صـادرة مـن وحـي اللـه ومـن روح القـرآن. وهـذا مـا يؤكـد عليـه إبـن قيـم الجوزيـة في قولـه إن «طـب النبـي متيقَّـن قطعـي إلهـي صـادر عـن الوحـي ومشـكاة النبـوة وكمال العقـل»[1]. وإذا لم ينتفـع بـه الكثـيرون مـن النـاس، فذلـك لنقـص إيمانهـم. إذ لا ينتفـع بـه إلا مـن تلقّـاه بالقبـول واعتقـاد الشـفاء بالإيمـان والاذعـان. وقـد أتينـا، في مـا سـبق، عـلى ذكـر رأي إبـن خلـدون في هـذه المسـألة الـذي قـضى باعتبـار الطـب العـربي إنجـازاً إنسـانياً لا علاقـة للوحـي بـه، إلا في مـا يمكـن أن يقدّمـه مـن الإيمـان والثقـة بهـدي رسـول اللـه اللذيـن يمكـن أن يفضيـا إلى الشـفاء.

ولأن التـلازم ضروري بـين العـلاج والإيمـان، حـارب الاسـلام، عـلى لسـان النبـي كل مـا لـه علاقـة بالخرافـات والسـحر والشـعوذة. وجعـل طـب القلـوب قائمـاً عـلى الرقـى المتوجهـة إلى اللـه وحـده، بالإضافـة طبعـاً، إلى طـب الأبـدان.

وعليـه، جـاء الطـب النبـوي الـذي هـو مـدار بحثنـا، وحسـب مـا جمعـه إبـن قيـم الجوزيـة مـن السـيرة النبويـة، ومـن الأحاديـث المثبتـة.

توجهات الطب النبوي

يعتـبر البحـث في الطـب النبـوي مـن أولويـات النظـر في الأمـور الطبيـة عنـد العـرب. وذلـك نظـراً للأهميـة القصـوى التـي لا يـزال يعطيهـا المؤمنـون لمـا جـاء عـلى لسـان النبـي محمـد (ص) مـن معالجـات لأمـراض بعينهـا، ومـن وصـف الأدويـة لهـا، إنطلاقـاً مـن منهجيـة عقلانيـة وإيمانيـة تربـط بـين الـداء والـدواء، مـن ناحيـة؛ وبـين قـدرة اللـه المطلقـة عـلى الشـفاء مـن الـداء، مـع

1. إبن قيم الجوزية، الطب النبوي، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، دار الفكر، بيروت، ص27- 28.

وجوب الإيمان المطلق بذلك من جانب المؤمن، من ناحية ثانية. وإذا خلق الله الداء، فإنه في الوقت نفسه، خلق الدواء، وبالتالي لا بد إلا أن يشفى المريض. وإذا ما وصل، بعد، إلى مرحلة الشفاء، فإن ذلك مرتبط بقدرة الإنسان على إيجاد الدواء. ولا بد، من خلال البحث والتدقيق، من إيجاد الدواء لأنه أصلاً موجود في الطبيعة، وما على الإنسان إلا الاجتهاد للوصول إليه. هذه المنهجية في البحث والاختبار لا تزال فاعلة حتى اليوم. يشهد عليها عدد لا يحصى من المختبرات ومراكز البحوث الطبية في كل مكان من العالم. وقد أتينا على ذكر ذلك في الفصل الأول.

العلاج المادي للأبدان

مارس العرب طب الأبدان، كما غيرهم، منذ ما قبل الإسلام بزمن طويل، وقد راكموا معارفهم في القدر الذي تتيحه بيئتهم الجغرافية ومعارفهم وتجاربهم العملية. وما وصلنا من أدبيات الطب النبوي يبيّن أن عرب الجزيرة كانوا على معرفة راقية في أمور الطب والمعالجة البدنيّة، على ما كان متاحاً في العصور القديمة، وبتأثير التفاعل الثقافي. وقد ظهر أن تقسيم المعالجات الطبية بين طب القلوب وطب الأبدان، والمعالجات القائمة على التخلص من المرض وإرجاع الصحة إلى المريض، والوقاية منه، وتخليص الأجسام من الفضلات السامة، هي الأسس التي قام عليها الطب النبوي. هذا، طبعاً، بالإضافة إلى الرقَى الربّانية التي تنطلق من الإيمان بقدرة الله اللامحدودة على الشفاء من كل الأمراض.

إلا أن ما يمكن لفت النظر إليه، هو أن طب الأبدان، كما وصلنا في كتب التراث، من كتب الطب عموماً، ومن كتاب الطب النبوي خصوصاً، يوجب علينا أن ننظر إليه بمنظار ذلك الزمان، وليس بمنظار الزمن الحاضر. ذلك أن اعتبارات معرفة أسباب المرض والتشخيص، ومن ثم المعالجة بتقنيات ذلك العصر، على أهميتها، تختلف عن النظر إلى المرض اليوم، في أسبابه وتشخيصه ومعالجته. وبالتالي، لا بد إلا أن يبقى التعامل مع العلاجات

القديمـة إنطلاقـاً مـما كان متاحـاً، ومـا نشـأ عنـه مـن إنجـازات، باعتبـار الإيمـان بهـا صـادراً عـن الوحـي الإلهـي، بالإضافـة إلى القـدرة الإلهيـة التـي لهـا المقـام الأول في عمليـة الشـفاء المترافـق مـع قـوة الإيمـان.

وإذا بدأنـا في تأريخنـا للطـب الشـعبي العـربي المتعلـق بالأبـدان، مـن حيـث إعـادة التـوازن إلى الجسـم مـن بعـد إختـلال، والصحـة إليـه مـن بعـد علّـة أصابتـه، فـلا بـدّ مـن ذكـر كيفيـة النظـر إلى هـذه المسـألة مـن زاويـة الطـب النبـوي.

نسـتقي معلوماتنـا عـن الطـب النبـوي مـن كتـاب إبـن قيّـم الجوزيـة (691هـ - 751هــ ؛ 1292م – 1350م) «زاد المعـاد» الـذي يحتـوي في قسـم منـه عـلى «الطـب النبـوي»، في نسـخته الإلكترونيـة، وفي نسـخته الورقيـة الصـادرة عـن دار الفكـر في بـيروت[2]. وفيـه ينقسـيم الطـب إلى طـب القلـوب وطـب الأبـدان. ومـن ثـم يـأتي الفصـل الـذي يتنـاول طـب الأبـدان بالتفصيـل. ويظهـر في هـذا الفصـل أن طـب الأبـدان حـاز عـلى اهتـمام النبـي محمـد، لحـلّ مـا يمكـن أن يحصـل للمريـض في أوقـات مرضـه مـن إعاقـة ممارسـة فروضـه الدينيـة، مـن صـلاة وصـوم وسـفر ووضـوء وإقامـة شـعائر الحـج. وربمـا كان ذلـك إنطـلاق النظـر في أمـور الطـب النبـوي البـدني، بعـد تقسـيمه إلى ثـلاث قواعـد: «حفـظ الصحـة، والحميـة عـن المـؤذي، واسـتفراغ المـواد الفاسـدة». وهـي مسـتخلصة مـما جـاء في القـرآن مـن آيـات تبـيّن ذلـك، منهـا: «فمـن كان منكـم مريضـاً

---

2 . إبن قيم الجوزية، زاد المعاد، في هدي خير العباد، جزء الطب النبوي، على الموقع التالي.
http://www.aleman.com/%D8%A7%D984%%D983%%D8%AA
%D8%A8/%D8%A7%D984%%D8%B7%D8%A820%%D8%A7%
D984% %D986% %D8%A8%D988% %D98 %A%20**/i143&n1&p1
أنظر أيضاً كتاب الطب النبوي الورقي:
إبن قيم الجوزية، الطب النبوي، مذكور سابقاً، 335ص. وإليه نعود في الإحالة إلى الصفحات لعدم توفرها في الرابط الألكتروني.

أو على سفر فعدّة من أيام أخر..»[3]، أيضاً: «.. فمن كان منكم مريضًا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك..»[4]. ما يظهر في هاتين الآيتين يبيّن إباحة الفطر للمريض بسبب المرض، وللمسافر من أجل حفظ صحته والإبقاء على قوّته حتى لا يهدرها الصوم من جرّاء السفر. وكذلك «أباح للمريض، ومن به أذى من رأسه، من قمل، أو حكّة، أو غيرهما، أن يحلق رأسه في الإحرام استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه، تفتّحت المسام، فخرجت تلك الأبخرة منها، فهذا الإستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسه»[5].

من القول الفصل في كيفية التصرف، في العلاقة مع الفرائض الدينية، في حال المرض والسفر ووجود المواد السامة في الجسم، ينتقل الطب النبوي إلى التمييز بين النوع الذي فطر عليه الإنسان، ولا حاجة به إلى طبيب، إذ يستطيع مداواة نفسه بنفسه، وهو ما يتعلق بالجوع والعطش والبرد والتعب. أما النوع الثاني، فهو ما يحتاج إلى فكر وتأمل، كدفع الأمراض المتشابهة الحادثة في المزاج، بحيث يخرج بها عن الاعتدال. وهذا الخروج يسمّى مرضاً بعد أن يضرّ بالفعل إضراراً محسوساً. وإذا عرف الطبيب سبب المرض سهل عليه علاجه. ذلك أن النظر في السبب يأتي قبل تحديد المرض، ومن ثم يأتي العلاج. وهذا مبدأ أساسي في الطب قديمه وحديثه.

ولأن للبدن ثلاث حالات تخصّه، إما الحالة الطبيعية، أو الحالة الخارجة عن الطبيعة، أو الحالة ما بين الحالتين السابقتين، فإن مهمة الطبيب تكمن في إعادة الجسم، وفي كل الأحوال، إلى حالته الطبيعية بتوسّل كل ما يلزم للوصول إلى هذه النتيجة، أي إلى الاعتدال والشفاء من الاختلال.

3 . القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 184.

4 . سورة البقرة، الآية 196.

5 . إبن القيم، الطب النبوي، مذكور سابقاً، فصل: وأما أمراض الأبدان، ص2- 3.

«فالطبيب هو الذي يفرّق ما يضر بالإنسان جمعه، أو يجمع فيه ما يضره تفرّقه، أو ينقص منه ما يضرّه زيادته، أو يزيد فيه ما يضرّه نقصه، فيجلب الصحة المفقودة، أو يحفظها بالشكل والشبه، ويدفع العلّة الموجودة بالضد والنقيض، ويخرجها، أو يدفعها بما يمنع من حصولها بالحمية، وسترى هذا كله في هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم شافياً كافياً بحول الله وقوّته، وفضله ومعونته»[6].

أما العلاج من المرض بالأدوية، فهو ما كان في متناول اليد منها، مما هو مفرد. أما الأدوية المركّبة فهي من صنع من تقدّم في علوم الطب. إلا أن الملفت في هذا الأمر هو تبنّي رأي الأطباء في الاكتفاء بالغذاء في التداوي بدل تناول الدواء، إذا أمكن ذلك، وتناول البسيط من الدواء قبل المركّب، إذ من الممكن أن يُستغنى بذلك عنه. وقالوا في ذلك: «كل داء قُدر على دفعه بالأغذية والحمية، لم يحاوَل دفعُه بالأدوية»[7]. والطبيب الناجح لا يصف الدواء إلا للضرورة. لأن «الدواء إذا لم يجد في البدن داء يحلله، أو وجد داء لا يوافقه، أو وجد ما يوافقه فزادت كميته عليه، أو كيفيته، تشبّث بالصحة، وعبث بها»[8]. وهذا ما يعتمده الطب الحديث من خلال الموازين الدقيقة في تركيب الأدوية ووصفها عند الضرورة فقط، وخصوصاً في الطب البديل.

ولأن القاعدة العامة في الطب النبوي تنبني على أن لكل داء دواء، فإن

---

6 . المصدر نفسه، فصل: وأما طب الأبدان، ص5.

7 . المصدر نفسه، فصل فعل التداوي في نفسه، ص6.

8 . المصدر نفسه والفصل نفسه، ص6. وفي هذا الخصوص، أنظر الكتاب المعروف لأحد الأطباء المشهورين في سورية الذي يحاكي هذا التوجه في الطب منذ منتصف القرن العشرين:

صبري القباني، الغذاء لا الداء، (1965)، الطبعة 32، دار العلم للملايين، 2006، بيروت، ص 215.

ذلـك يعنـي أن الأدويـة مـن جنـس الأغذيـة المتداولـة، «فالأمـة والطائفـة التـي غالـب أغذيتهـا المفـردات، أمراضهـا قليلـة جـدًا، وطبّهـا بالمفـردات. وأهـل المـدن الذيـن غلبـت عليهـم الأغذيـة المركبـة، يحتاجـون إلى الأدويـة المركبـة، وسـبب ذلـك أن أمراضهـم في الغالـب مركبـة، فالأدويـة المركبـة أنفـع لهـا. وأمـراض أهـل البـوادي والصحـارى مفـردة، فيكفـي في مداواتهـا الأدويـة المفـردة، فهـذا برهـان بحسـب الصناعـة الطبيـة»[9].

إلا أن ذلـك كلّـه لا يقـاس، عـلى مـا جـاء في الطـب النبـوي، بمـا يقدمـه وحـي اللـه إلى رسـوله بمـا ينفعـه ويضره. فـما عنـد الأطبـاء مـن الطـب بالنسـبة إلى الوحـي، هـو بمثابـة مـا عنـد العلـماء مـن العلـوم بالنسـبة إلى مـا جـاءت بـه الأنبيـاء، «بـل هـا هنـا مـن الأدويـة التـي تشـفي مـن الأمـراض مـا لم يهتـدِ إليهـا عقـول أكابـر الأطبـاء، ولم تصـل إليهـا علومهـم وتجاربهـم، وأقيسـتهم مـن الأدويـة القلبيـة، والروحانيـة، وقـوة القلـب، واعتـماده عـلى اللـه، والتـوكل عليـه، والإلتجـاء إليـه، والإنطـراح والإنكسـار بـين يديـه، والتذلـل لـه، والصدقـة، والدعـاء، والتوبـة، والاسـتغفار، والإحسـان إلى الخلـق، وإغاثـة الملهـوف، والتفريـج عـن المكـروب، فـإن هـذه الأدويـة قـد جرّبتهـا الأمـم عـلى اختـلاف أديانهـا ومللهـا، فوجـدوا لهـا مـن التأثـير في الشـفاء مـا لا يصـل إليـه علـم أعلـم الأطبـاء، ولا تجربتـه، ولا قياسـه»[10].

وبهـذا، يقـترن العـلاج بالأدويـة مـع العـلاج الروحـاني في الطـب النبـوي، بـل إن العـلاج الروحـاني هـو الأمـضى والأسرع إلى الشـفاء لمـن امتلكـت روحـه وسـيلة الاتصـال مـع اللـه بالإيمـان المطلـق. فتقـوى بذلـك روحـه وتتماسـك نفسـه وتتعاونـا عـلى دفـع الـداء وقهـره. «فكيـف ينكـر لمـن قويـت طبيعتـه ونفسـه، وفرحـت بقربهـا مـن بارئهـا، وأنسـها بـه، وحبهـا لـه، وتنعّمهـا بذكـره، وانـصراف قواهـا كلهـا إليـه، وجمعهـا عليـه، واسـتعانتها بـه، وتوكلهـا عليـه،

9 . إبن القيم، الطب النبوي، مذكور سابقاً، فصل فعل التداوي بنفسه، ص6.

10 . المصدر نفسه، الفصل نفسه، ص7.

أن يكـون ذلـك لهـا مـن أكـبر الأدويـة، وأن تُوجِـب لهـا هـذه القـوة دفـعَ الألم بالكليّـة، ولا ينكـر هـذا إلا أجهـل النـاس، وأغلظهـم حجابـاً، وأكثفهـم نفسـاً، وأبعدهـم عـن اللـه وعـن حقيقـة الإنسـان»[11].

أمـا العـلاج بالأدويـة الطبيعيـة، فقـد اهتـم الطـب النبـوي في معالجـة التخمـة ومضـار المبالغـة في تنـاول الطعـام، وفي كيفيـة الحمايـة منهـا، كـما ذكـر طـرق معالجـة الحمـى واسـتطلاق البطـن (الإسـهال الحـاد) والاستسـقاء (الكتـام) مـع ذكـر فوائـد العسـل وحليـب النـوق في المعالجـة والشـفاء. كـما ذكـر فوائـد الحجامـة، والـكيّ، وإن نهـى الرسـول عـن اسـتعماله إلا للـضرورة الماسّـة، ومـن هنـا جـاءت القولـة المشـهورة عنـد العـرب: «آخـر الـدواء الـكي». وقـد ذكـر البخـاري في صحيحـه، عـلى مـا يقـول إبـن القيّـم، أن النبـي قـال: «الشـفاء في ثـلاث، شربـة عسـل، وشرطـة محجـم، وكيّـة نـار، وأنـا أنهـي أمتـي عـن الـكي»[12]. إلا أن البحـث في الحجامـة وأهميتهـا ومنافعهـا وأوقـات القيـام بهـا للعـلاج، وموضعـه، قـد اسـتحوذ عـلى قسـم هـام مـن العلاجـات النبويـة. وكذلـك في قطـع العـروق والـصرع وعِـرق النسـا ويبـس الطبـع والحكّـة والصـداع والشـقيقة، وغيرهـا مـن الأمـراض. وهـذا مـا سـنعرضه فيـما يـلي.

مـن المهـم في هـذا المجـال، أن نفصّـل القـول في بعـض هـذه المعالجـات التـي انطلقـت مـن هـدي النبـي في كيفيـة التعاطـي مـع الأمـراض التـي يمكـن أن تصيـب الجسـم، وكيفيـة التـداوي للشـفاء منهـا. وهـي موجـودة بالتفصيـل في هـذا الكتـاب مـع وصـف مسـبّباتها وعوارضهـا وكيفيـة تشـخيصها، ومـن ثـم وصـف العـلاج الـذي يمكـن أن يصـل إلى الشـفاء منهـا.

ليـس هـذا فحسـب، بـل قـام إبـن القيـم بوضع مـسرد ألفبـائي لأنواع الأعشـاب والمـواد الأخـرى التـي يمكـن أن تفيـد في العـلاج، وتخصيـص هـذه العشـبة في

11 . المصدر نفسه، الفصل نفسه، ص7.

12 . المصدر نفسه، فصل الحجامة والكي، ص ص40 - 50.

معالجـة هـذا المـرض أو ذاك، وفي الكميـة اللازمـة المفيـدة في العـلاج، وإذا كان عليهـا أن تختلـط مـع نـوع آخـر، أو عـدة أنـواع للوصـول إلى الشـفاء. ولا يفوتنـا ذكـر الصـلاة، والصـبر بصنفَيـه، صـبر النبـات وصـبر القلـب، والصـوم والقـرآن، باعتبارهـا مـن الأدويـة الناجعـة في الشـفاء. لذلـك فقـد صنّـف النبـي العلاجـات في ثلاثـة. العـلاج بالأدويـة الطبيعيـة، والعـلاج بالإلهيـات، والعـلاج بمـا بينهـما[13].

العلاج بالأدوية الطبيعية

يتنـاول البحـث في الأدويـة الطبيعيـة مـا جـاء في كتـاب الطـب مـن إظهـار مضـار التخمـة وكيفيـة علاجهـا، ومـرض الحمّـى وعوارضـه وكيفيـة علاجـه، ومـرض الإستسـقاء...

التخمة ومضارها

التخمـة ناشـئة عـن الزيـادة في تنـاول الطعـام عـلى القـدر الـذي يفـوق حاجـة الجسـم. لذلـك ثمـة قانـون ينبغـي مراعاتـه في الأكل والـشرب يمنـع التخمـة ومـا يمكـن أن تقـوم بـه مـن ضرر للجسـم. يقـول حديـث نبـوي في هـذا الخصـوص: «مـا مـلأ آدمـي وعـاءً شرًّا مـن بطـن، بحسـب إبـن آدم لقيـمات يقمـن صلبـه، فـإن كان لا بـدّ فاعـلًا، فثلـث لطعامـه، وثلـث لشرابـه، وثلـث لنفسه»[14].

إنطلاقـاً مـن ذلـك يمكـن تصنيـف المـرض تحـت عنوانـين: الأمـراض الماديـة التـي تتـأتّى عـن زيـادة وزنٍ في الجسـم أضرت بأفعالـه الطبيعيـة، وهـي أكـثر الأمـراض التـي تسـبّب فيهـا المبالغـة في الأكل والشراهـة فيـه، قبـل هضـم مـا تـم تناولـه مسـبقاً. والكميـة الزائـدة لا يحتـاج إليهـا الجسـم، مـا يـؤدي إلى

13 . المصدر نفسه، ص17.

14 . المصدر نفسه، ص12.

تراكـم مـا بداخلـه. هـذه الزيـادة، بالإضافـة إلى تنـاول الأغذيـة القليلـة النفـع، البطيئـة الهضـم، مـع الإكثـار مـن الأغذيـة المختلفـة التراكيـب، تـورث «أمراضـاً متنوعـة، منهـا بطـيء الـزوال وسريعـه، فـإذا توسـط في الغـذاء، وتنـاول منـه قـدر الحاجـة، وكان معتـدلاً في كميتـه وكيفيتـه، كان انتفـاع البـدن بـه أكـثر مـن انتفاعـه بالغـذاء الكثـير»[15].

ولتوضيـح ثلـث الثلاثـة للغـذاء، وهـو قـوام الاعتـدال والوسـطية، يصنـف النبي مراتـب الغـذاء بثـلاث: مرتبـة الحاجـة، مرتبـة الكفايـة، ومرتبـة الفضلـة. ومـا قالـه في هـذا المجـال، «إنـه يكفيـه لقيـمات يقمـن صلبـه، فـلا تسـقط قوتـه، ولا تضعـف معهـا، فـإن تجاوزهـا، فليـأكل في ثلـث بطنـه، ويـدع الثلـث الآخـر للـماء، والثالـث للنفـس». ذلـك أن هـذا كثـير النفـع للجسـم والقلـب. فالبطـن إذا امتـلأ بالطعـام مـا عـاد قـادراً عـلى تلقّـي المـاء، وإذا شرب المتخـم ضـاق جسـده عـن النفـس، «وعـرض لـه الكـرب والتعـب بمحملـه بمنزلـة حامـل الحمـل الثقيـل. هـذا إلى مـا يلـزم ذلـك مـن فسـاد القلـب، وكسـل الجـوارح عـن الطاعـات، وتحرّكهـا في الشـهوات التـي يسـتلزمها الشـبع. فامتـلاء البطـن مـن الطعـام مـضرّ للقلـب والبـدن»[16].

هـذا طبعـاً، عـلى سـبيل التعـوّد حتـى يصبـح سـجيّة في النفـس والجسـد. أمـا إذا تجـاوز أحدهـم المقـدار المعتـدل ووصـل إلى حـدّ الشـبع أو تجـاوزه، فـلا بـأس، عـلى أن تكـون في فـترات متباعـدة، حتـى لا يسـمن الجسـم ويبتـلى بالمـرض. ذلـك أن الشـبع المفـرط يضعـف القـوى والبـدن، وإن أخصبـه. والملاحظـة اللامعـة في هـذا السـبيل، القـول بـأن البـدن يقـوى «بحسـب مـا يقبـل مـن الغـذاء، لا بحسـب كثرتـه»[17].

---

15 . المصدر نفسه، ص12- 13.

16 . المصدر نفسه، ص13.

17 . المصدر نفسه، ص13.

لقد ذكر النبي أول العلاجات باستعمال الأدوية الطبيعية التي وصفها واستعملها، ومن ثم الأدوية الإلهية، والمركّبة. أما العلاج بالأدوية الطبيعية فقد شملت جملة من الأمراض الشائعة التي يمكن أن تصيب البدن عندما يبتعد عن الاعتدال، ومنها:

الحمّى وعلاجها

جاء في كتب السيَر، على ما يقول إبن القيم، أن الرسول قال: «إنما الحمّى أو شدة الحمّى من فيح (لهيب) جهنم، فأبردوها بالماء»[18].

لقد استمدّ الرسول قولته هذه من ظروف الحياة في الجزيرة العربية شديدة الحرارة. فتأتي، لذلك، الحمّى على شكل عرضي متاتٍّ من حرارة الشمس. ما يعني أن العلاج بالماء هو المفيد في الجو الحار. والعلاج بهذه الطريقة خاضع لهذه الظروف، ويمكن أن لا ينفع في غيرها، على ما يقول إبن القيّم. وهذا يعني أن المرض، ومنه الحمى، ناشئ عن التفاعل بين الجسم والبيئة التي ينشأ فيها، ما يؤدي به إلى الانحراف، وما على العلاج إلا أن يعيد الجسم إلى الاعتدال. والحمّى في هذه الحالة ينفعها الماء البارد شرباً واغتسالاً، لأنها «حرارة غريبة تشتعل في القلب، وتنبثّ منه، بتوسط الروح والدم في الشرايين والعروق، إلى جميع البدن، فتشتعل فيه اشتعالًا يضرّ بالأفعال الطبيعية»[19].

ويزداد التفصيل في أنواع الحمّى، فإذا هي على أنواع متعددة. منها ما هو عرضي ناشئ عن ورم، أو حركة، أو إصابة من حرارة الشمس، أو القيظ الشديد. ومنها ما هو مرضي في ثلاثة أنواع: منها ما يكون في مادة أولى يسخن على أساسها البدن بمجمله، وتذهب في غضون يومين أو ثلاثة، ومنها ما يكون عفنياً في أصناف متعددة، ومنها ما يكون ناشئاً عن خلل

18 . المصدر نفسه، ص18.

19 . المصدر نفسه، ص19.

في الأعضاء الصلبة، وهي أصناف متعددة أيضاً.

هذا التفصيل في أنواع الحمّى وأصنافها يدلّ على التعمّق في أحوالها، وفي مدى فائدتها للجسم في بعض أصنافها، إذ تدل على وصول الجسم إلى مبلغ نهايته من المرض، فتقوم بما لا يستطيع الدواء على فعله. فتكون «سبباً لإنضاج مواد غليظة لم تكن تنضج بدونها، وسبباً لتفتّح سدَد لم يكن تصل إليها الأدوية المفتحة»[20].

ويؤكد إبن القيم ذلك بما قاله أحد الأطباء بعد السؤال عن أحوال الحمّى: «إن كثيراً من الأمراض نستبشر فيها بالحمّى، كما يستبشر المريض بالعافية، فتكون الحمّى فيه أنفع من شرب الدواء بكثير، فإنها تنضج من الأخلاط والمواد الفاسدة ما يضرّ بالبدن، فإذا أنضجتها صادفها الدواء متهيئة للخروج بنضاجها، فأخرجها، فكانت سبباً للشفاء».

وعلى ذلك، ذكر إبن القيم أن النبي نهى عن شتم الحمّى، إذ قال لرجل سبّها،»لا تسبّها فإنها تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الحديد»[21]. ذلك أن التعامل مع الحمّى بالابتعاد عن الأغذية المضرّة، وتناول الأغذية المفيدة ما يساعد على تنقية البدن من الخبائث المضرّة، فتعمل الحمّى، عند ذلك، على نفي الخبائث من الجسم وتصفّي جوهره، كما تعمل النار في الحديد. وما تفعله الحمّى في الجسم تفعله بالقلوب أيضاً، فهي تصفّيه من أدرانه ووسخه، وتُخرج خبائثه. فهي إذاً «تنفع البدن والقلب، وما كان بهذه المثابة، فسبّه ظلم وعدوان»[22].

ما يمكن استخلاصه من معالجة الحمى، وخصوصاً أنها مشخّصة في بلد حار، هو وجوب الابتراد بالماء، ومن ثم اتباع حمية، وتناول نوعيّة

20 . المصدر نفسه، ص20.

21 . المصدر نفسه، ص23.

22 . المصدر نفسه، ص23.

مفيدة للجسم من الأغذية والأدوية اللذين يساعدان الحمّى على تنقية الجسم من السموم والأدران، وتُجَوهِره كما تجوهر النار الحديد. فالحمّى إذاً، تسرّع في خروج المريض من المرض، وتؤشر على قرب شفائه. لذلك على المريض وأهله أن يستبشروا بها خيراً، بدل التطيّر منها وشتمها.

عِرق النَّسا وعلاجه

لا يزال اسم هذا المرض متداولاً إلى اليوم، ويتم علاجه خارج نظرة الطب الحديث إليه وإلى كيفية معالجته، أو حتى الاعتراف بوجوده، باعتباره حاملاً لهذا الإسم. فالعوارض والأسباب، وبالتالي المرض، يمكن أن تكون موجودة، بتعاريف أخرى وأسباب مغايرة وبتشخيص طبي حديث. إلا أن الكثيرين يعتبرون أن المعالجات القديمة المتعلقة بهذا المرض كانت ولا زالت أكثر جدوى من وسائل وأساليب الطب الحديث. وربما هنا، تلعب النظرة التقليدية للمرض وعوارضه وأسبابه وعلاجه دورها في عملية الشفاء.

كان هذا المرض موجوداً. والأمر فيه متداول بين الأطباء عند العرب وغيرهم. وقد وصف النبي علاجاً له يكفل تليين موضع الألم. وفي التليين بداية الشفاء منه. لقد جاء في حديث مسند، على ما يقول إبن القيم، أن النبي قال: «دواء عرق النسا إلية شاة أعرابية تُذاب، ثم تجزّأ ثلاثة أجزاء، ثم يُشرب على الريق في كل يوم جزء».

وفي وصف هذا المرض وتبيين عوارضه وأسبابه ومن ثم علاجه، يبدأ إبن القيّم في القول: إنه «وجع يبتدئ من مفصل الورك، وينزل من خلف على الفخذ، وربما على الكعب، وكلما طالت مدته، زاد نزوله، وتهزّل معه الرجل والفخذ»[23]. وهذا الحديث فيه معنى لغوي، ومعنى طبي. فأما المعنى اللغوي، فدليل على جواز تسمية هذا المرض بعرق النسا خلافاً

23 . المصدر نفسه، ص56.

لمـن يعتـبر أن النسـا مـرض يصيـب أحـد العـروق في جسـم الإنسـان، وهـو محـدّد مـن أعـلى الـورك مـن الخلـف إلى أسـفل القـدم. وربمـا سـمّي بذلـك لأنـه يـورّث ألمـاً شـديداً ينـسي كل مـا عـداه، ولا علاقـة للإسـم بالنسـاء. وطبّيـاً هـو يبـاس في الرِجـل ناشـئ عـن ظـروف محـددة في الزمـان والمـكان المنتجـين للحـرارة المرتفعـة. واليبـس هـذا قـد يحـدث مـن مـادة غليظـة لزجـة. لذلـك لا بـد مـن تليينهـا. وإليـة الشـاة كفيلـة بهـذا الأمـر لأسـباب متعلقـة بالإليـة نفسـها وبخصائصهـا. فهـي تقـوم بعمليـة الانضـاج والاخـراج. والمـرض يحتـاج لهذيـن الأمريـن ليحصـل الشـفاء. والـسر في ذلـك يكمـن في نوعيـة غـذاء هـذه الشـاة بالـذات. والغـذاء هـو الـذي يوصـل الإليـة إلى أن تقـوم بمهـام الشـفاء بعـد غليهـا وشرب سـائلها عـلى مقـدار معلـوم وفي أيـام محـدّدة[24].

إستطلاق البطن وعلاجه

في عـلاج اسـتطلاق البطـن(الإسـهال) تظهـر قـدرة الرسـول في التعاطـي مـع المـرض وفي كيفيـة وصـف العـلاج الـذي لا يمكـن أن ينفـع إلا إذا كان تناولـه بالمقـدار الـلازم لمواجهـة المـرض، وهـذه معلومـة بديهيـة في قامـوس الطـب الحديـث، تشـهد عليهـا أعـيرة (مـن عيـار) الأدويـة ومقاديـر تركيبهـا. ففـي كتـب الأحاديـث روايـة تُظهـر هـذه المسـألة عـلى أبهـى وجـه: أتى رجـل إلى النبـي وقـال لـه: إن أخـي يشـتكي بطنـه. أجابـه: اسـقه عسـلًا، فذهـب ثـم عـاد ليقـول: لقـد سـقيته، ولكـن اسـتطلاقه زاد.. وظـل النبـي يقـول لـه اسـقه عسـلاً، فيعـود ليقـول لـه الـكلام نفسـه. فـما كان عـلى الرسـول إلا أن قـال لـه: «صـدق اللـه، وكـذب بطـن أخيـك»[25].

عندمـا علـم النبـي أن اسـتطلاق بطـن المريـض نشـأ عـن تخمـة أصابتـه، أمـره

24 . للمزيد من التفصيل حول هذا المرض وكيفية علاجه، أنظر:

المصدر نفسه، ص56- 57.

25 . المصدر نفسه، ص25.

بشرب العسل، لما لهذا الصنف من فائدة لصحة الإنسان، سنراها في حينه، كما جاءت في كتاب الطب البدني. والمأمول من الدواء (العسل) هو دفع الفضلات المتجمعة في المعدة والأمعاء للمساعدة على جريان الأخلاط اللزجة المتمسكة بجدران المعدة. والعسل هو الكفيل بذلك. ولم ينجح الأمر لأن الكمية المستهلكة هي دون اللازم للقيام بمهمة الشفاء.

وفي التكرار، لا بد من الوصول إلى الكمية اللازمة للشفاء. فالدواء يجب أن يكون بمقدار حسب حالة الداء. في قلّته هدر لا ينفع، وفي كثرته تعب للجسم وحماوة. فلما أمره النبي أن يداوي أخاه بالعسل، أعطاه كمية قليلة لم تقدر على مواجهة الداء. وفي التكرار وصل إلى الكمية المطلوبة النافعة التي لا بد أن يُشفى المريض بعدها. لذلك جاء كذب البطن لتمسّك الداء فيه، ولقلة مقدار الدواء، وليس لقصور العسل عن العلاج.

الصداع والشقيقة

الصداع ألم من الآلام الموجعة التي تصيب الرأس أو جزءاً منه. في حال أصيب جزء من الرأس بالصداع كان شقيقة. وإذا أصيب كله كان بيضة أو خودة، على ما يقول إبن القيم. وعادة ما يكون الألم شديداً إما في مقدمة الرأس أو مؤخرته. أما أنواعه فهي كثيرة، وأسبابه مختلفة. وحقيقته سخونة في الرأس لا احتماء منها إلا في النفوذ ولا تنفذ، ما يؤدي إلى صداع في الرأس. وبعد أن يعدّد أسباب الإصابة به التي وصلت إلى العشرين، وأكثر ما يحصل منها ناشئ عن خلل في المعدة، يبحث في الشقيقة. فيقول إنها مادة في شرايين الرأس تؤثّر في الجانب الأضعف منها، فيحصل الألم الذي يمكن أن يخفّ بعصْب الرأس[26].

وذكر إبن القيم أن النبي كان مصاباً بهذا الداء. وكان يعصب رأسه

26 . للمزيد من التفصيل حول الصداع والشقيقة وأنواعهما وأسباب الاصابة بهما، أنظر: المصدر نفسه، ص ص66 - 69.

بعصابـة إتقـاء لـلألم. ويمكـث ليـوم أو يومـين في بيتـه ولا يخـرج[27].

أمـا علاجـه فمتعـدّد، منـه بالاسـتفراغ، ومنـه بتنـاول الغـذاء، ومنـه بالاستسـلام للسـكون وعـدم الحركـة، ومنـه بمـا يمكـن أن يكـون بالضـمادات أو بالتبريـد. وعـلى أي حـال، فـإن نـوع الشـقيقة ومـدى شـدّتها يوحيـان بالعـلاج الـذي يمكـن أن يكـون بالحنّـاء والخـل، إذا لم ينفـع الاسـتفراغ. وقـد أوصى الرسـول بالاحتجـام للتخفيـف مـن وجـع الـرأس عـلى أنواعـه.

التداخل بين العلاج المادي والروحي

هنـا، يتداخـل العـلاج البـدني مـع العـلاج الروحـي ليصـير أكـثر وضوحـاً في إسـتدراك إبـن القيـم عندمـا يقـول إن الشـفاء لا يرتبـط بالـدواء وحـده. فالإيمـان ومقـداره والثقـة بقـدرة النبـي عـلى الشـفاء باعتبارهـا صـادرة «عـن الوحـي ومشـكاة النبـوة وكـمال العقـل». فطـب الرسـول ليـس كطـب الأطبـاء الممـزوج بالحـدس والظنـون والتجريـب. لذلـك فالشـفاء مقـرون بالإيمـان والثقـة بقـدرة النبـي عـلى الشـفاء، بـصرف النظـر عـن الـدواء. «ولا ينكـر عـدم انتفـاع كثـير مـن المـرضى بطـب النبـوة، فإنـه إنمـا ينتفـع بـه مـن تلقّـاه بالقبـول، واعتقـاد الشـفاء بـه، وكـمال التلقّـي لـه بالإيمـان والإذعـان.. فطـب النبـوّة لا يناسـب إلا الأبـدان الطيبـة، كـما أن شـفاء القـرآن لا يناسـب إلا الأرواح الطيبـة والقلـوب الحيّـة. فإعـراض النـاس عـن طـب النبـوة كإعراضهـم عـن طـب الإستشـفاء بالقـرآن الـذي هـو الشـفاء النافـع. وليـس ذلـك لقصـور فى الـدواء، ولكـن لخبـث الطبيعـة، وفسـاد المحـل، وعـدم قبولـه»[28].

الصرع وعلاجه

يعتمـد إبـن القيـم في نظـره إلى مـرض الـصرع عـلى حديـث مسـند للنبـي في

27 . المصدر نفسه، ص69.

28 . المصدر نفسه، ص28.

ردّه على شكوى لإمرأة سوداء أتته: «إني أصرع وإني أتكشّف، فادعُ الله لي، فقال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله لك أن يعافيك، فقالت: أصبر. قالت: فإني أتكشّف، فادعُ الله أن لا أتكشف، فدعا لها»[29].

وعليه، يميّز إبن القيم بين صرع الأرواح الناشئ عن فعل الأرواح الخبيثة، وصرع الأبدان الناتج عن جملة من الأخلاط الرديئة؛ وهو الذي يُخضعه الأطباء للتشخيص والعلاج.

أما صرع الأرواح، فهو معترف به من قبل الأطباء، ولكن ليس باستطاعتهم معالجته، باعتبار أن له شأناً آخر يتعلق بنوع من الصراع بين الأرواح الشريرة والأرواح الخيّرة التي تعمل على إخراج الأرواح الشريرة بالإيمان والتعوّذ بالله. وتدفع ضررها بهذا العلاج. وقد اعتمد إبن القيّم على ما قرّره «أبو الأطباء» أبقراط الذي ذكر بعض علاجات الصرع البدني. أما الصرع الروحي، فلا إمكانية لعلاجه، على ما يقول، كما تعالج الأبدان. وفي هذا ما يدل على التفاعل الثقافي في المجال الطبي بين العرب والمسلمين وبين اليونانيين وغيرهم، كما في المجالات الثقافية كافة.

لم يكتفِ إبن القيم بذلك، بل اعتبر أن منكري صرع الأرواح ما هم إلا من الجهلة والمنافقين، مع علمهم بعدم وجود ما يمكن أن يشفي من ذلك من الصناعة الطبية؛ مع علمه بما قرّره الأطباء اليونان، وخصوصاً جالينوس من أن ثمة ما يسمى بالصرع الإلهي. وهو ما يحدث في الرأس من الأوجاع التي تضرب الجزء الإلهي الطاهر الذي يسكن الدماغ. وعدم معرفة الأطباء بهذا النوع من المرض، على ما يقول إبن القيّم، لا يعني عدم وجوده. لذلك اقتصر همهم على معالجة الصرع الجسماني المتأتّي من الأخلاط المادية.

وعلى قياس الحديث النبوي، يضرب إبن القيم معارف الأطباء الزنادقة

29 . المصدر نفسه، ص51.

بيد من الإيمان معيّراً بالجهل وضعف العقل. ذلك أن الله قادر على كل شيء. وما على المصروع إلا أن يكون قوياً بنفسه، مؤمناً بالله، ومتعوّذاً به في قلبه ولسانه. وبهما معاً، قوة النفس وقوة الإيمان، يشفى من الصرع، وكأنه لم يكن. أما إذا خلى من أي منهما فلا شفاء له؛ فكيف إذا خلى من الإثنين؟

هذا من جهة المصروع. أما من جهة الطبيب المعالج، فمن البديهي أن يكون حاملاً للأمرين معاً. ففي قوة نفسه، يكفي أن يقول للشيطان الرجيم الموجود في المصروع: أخرج منه. فيخرج. ولكن ذلك محال بدون إرادة الله وعطفه. إذاً، عليه أن يكون شديد الإيمان وصادقه، لينفذ أمره باسم الله. وما يزيد من قوة الفعل ونفاذه، قول ذلك باسم الله جهراً، أو بقول لا حول ولا قوة إلا بالله. وكان النبي نفسه يقول: «أخرج عدوَّ الله، أنا رسول الله»[30].

يذكر لنا إبن القيم حادثة تعبّر خير تعبير عن معالجة صرع الأرواح. وهي تتعلق بكيفية القضاء على روح ماردة استوطنت جسداً ولا تريد أن تبارحه. فيقول إن شيخاً ذا ثقة قرأ في أذن مريض مسكون، الآية: «أفَحَسِبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون»[31]. وهو في ذلك يخاطب الروح المسبّبة للصرع. فقال المصروع بصوته الممدود نعم، وكأنه يتكلم بلسان الروح الشريرة».. قال: فأخذت له عصا، وضربته بها في عروق عنقه حتى كلّت يداي من الضرب، ولم يشكّ الحاضرون أنه يموت لذلك الضرب. ففي أثناء الضرب قالت (الروح): أنا أحبّه، فقلت لها: هو لا يحبك، قالت: أنا أريد أن أحجّ به، فقلت لها: هو لا يريد أن يحجّ معك، فقالت: أنا أدعه كرامة لك، (قال): قلت: لا ولكن طاعة لله

30 . المصدر نفسه، ص52. وللتفصيل حول كيفية معالجة الصرع جسدياً وروحياً، ص ص 51- 55.

31 . سورة المؤمنون، الآية 115.

ولرسوله، قالت: فأنا أخرج منه، قال: فقعد المصروع يلتفت يميناً وشمالًا، وقال: ما جاء بي إلى حضرة الشيخ، قالوا له: وهذا الضرب كله؟ فقال: وعلى أي شيء يضربني الشيخ ولم أذنب، ولم يشعر بأنه وقع به ضرب البتّة»[32]. وكان هذا الشيخ، على ما يقول إبن القيّم، يعالج بآية الكرسي، وكان يأمر المصروع والمعالج بكثرة قراءتها، وبقراءة المعوذتين.

وللتأكيد على ما سبق، يقرر إبن القيّم أن وجود هذا الصرع مع كيفية علاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة. وتسلّط هذه الأرواح الشريرة لا تتأتّى إلا على أصحاب النفوس الضعيفة، قليلة التقوى والخالية من الإيمان[33]. وليس في ذلك إلا الحضّ على اتباع الدين وتقوية الإيمان والتقرب من الله ورسوله. وفي ذلك وحده، ليس فقط القضاء على الصرع، بل منع اقتراب الأرواح الشريرة من الإنسان وتحصينه.

أما صرع الأبدان، فشأن آخر. يمكن معالجته، على ما يقول إبن القيم بالأدوية المناسبة، وهي التي يمكن أن تشفي، إلا إذا كان المرض مستعصياً. وفي هذه الحالة، ما على المريض إلا الصبر. وفي تشخيصه له، يقول إنه «علّة تمنع الأعضاء النفيسة من الأفعال والحركة والانتصاب، منعاً غير تام». أما سبب إصابة البدن به فناشئ عن «خلط غليظ لزج يسدّ منافذ بطون الدماغ سدّة غير تامة فيمتنع نفوذ الحس والحركة».. ولكن مؤقتاً، ومن ثم يعود بعد مدة. كما أن له أسباباً أخرى تشنّج الجسم وتمنعه من الحركة. وهو مزمن ولا شفاء منه، لأنه يصيب جوهر الدماغ. ويتّخذ إبن القيم من أبقراط سنداً له، بقوله: «إن الصرع يبقى في هؤلاء حتى يموتوا»[34]. وما على المصروعين في هذه الحالة إلا الصبر مع جواز ترك المعالجة باعتبارها غير ذات جدوى. وربما لهذا السبب خيّر النبي المرأة

32 . إبن القيّم، الطب النبوي، مذكور سابقاً، ص53.

33 . المصدر نفسه، ص53.

34 . المصدر نفسه، ص54- 55.

التـي جاءتـه طالبـة الدعـاء، بـين الصـبر والجنـة، أو الدعـاء غـير المضمـون. فاختـارت الصـبر.

الأمراض المُعدِية

ظهـر تحـت عنـوان الأمـراض المعديـة، في كتـاب الطـب النبـوي، مرضـان مـن أهـم الأمـراض التـي عانـت منهـما البشريـة منـذ أقـدم العصـور، وهـما: الطاعـون والجـذام. وفي الطـب النبـوي الدلائـل عـلى فهـم كيفيـة انتقـال المـرض مـن المريـض إلى سـليم الجسـم بوسـاطة العـدوى.

الجذام وعلاجه

ثمـة أحاديـث متعـددة تثبـت وجـوب الابتعـاد عـن المريـض المصـاب بالجـذام مخافـة العـدوى. ذلـك لأن الحـرص عـلى صحـة الإنسـان واجـب دون إيقـاع الـضرر بالمريـض. لقـد قـال النبي لمجـذوم جـاء لمبايعته «إرجـع فقـد بايعناك». وقـال أيضـاً: « فـرّ مـن المجـذوم كـما تفـرّ مـن الأسـد». و«لا تديمـوا النظـر إلى المجذومـين». يظهـر مـن هـذه الأحاديـث أن الجـذام مـرض معـدٍ يتوجّـب الابتعـاد عـن حاملـه مخافـة العـدوى، وانتقـال المـرض إلى الجسـم السـليم. ويؤكـد النبـي عـلى وجـوب ابتعـاد المريـض عـن صحيـح الجسـم، فيقـول: «لا يـوردنّ ممـرض عـلى مصـح». ويذكـر عنـه أنـه قـال: «كلّـم المجـذوم وبينـك وبينـه قيـد رمـح أو رمحـين». جـلّ هـذه الأحاديـث مسـندة في الصحيحـين وفي سـنن إبـن ماجـة، عـلى مـا يقـول إبـن القيّـم، وهـي تـدل عـلى وجـوب الابتعـاد عـن المجـذوم مخافـة العـدوى[35]. وإذا كان ثمـة تعـارض معهـا فـلا بـد إلا أن يكـون الأمـر في الناقـل، إمـا لعـدم اسـتيعابه جيـداً لمـا سـمعه أو لخلـل في الفهـم، أو لأن المـرض لا يـزال في بدايتـه ولا خـوف مـن انتقالـه. ذلـك ان التناقـض في أقـوال النبـي غـير وارد البتـة. وفي هـذه الحالـة، حسـب إبـن القيم،

35 . انظر في هذا الخصوص:

المصدر نفسه، ص116.

لا يمكن أن ينسخ حديث نبوي حديثاً آخر[36].

يتناول إبن القيم هذه الأحاديث بالتفصيل تفسيراً لما يراد منها في تجنّب هذا المرض والتحذير منه، باعتباره لا ينتقل بالملامسة والاختلاط فحسب، بل بالإضافة إلى ذلك، عن طريق الهواء بالاستنشاق، لأنه ذو رائحة نفّاذة توصل المريض بصحيح الجسم، ما يعني أن الهواء ناقل أساسي للمرض. وليس ذلك إلا الإرهاصات الأولى لوجود الجراثيم وتأثيرها في نقل المرض.

وما يساعد المرض على الانتشار هو وجود أجسام بذاتها مستعدة لاستقبال المرض أكثر من سواها. و«قد يكون خوفها من ذلك ووهمها من أكبر أسباب إصابة تلك العلة لها، فإن الوهم فعّال مستولٍ على القوى والطبائع، وقد تصل رائحة العليل إلى الصحيح فتسقمه، وهذا معاين في بعض الأمراض، والرائحة أحد أسباب العدوى (الهواء)، ومع هذا كلّه، لا بد من وجود استعداد البدن وقبوله لذلك الداء»[37]. ومع ذلك، يمكن للجسم المريض أن لا يقبل المرض لحصانته بالإيمان وبالقرب من الله. وإذا كان لحصول المرض مسبباته الجسمانية في النقل والانتقال، فإن هذه المسببات، على ما يقول إبن القيم بإيمان مطلق، تبطل بإرادة من الله وفعله. ذلك أن العلاقة بين الأسباب والنتائج لا فعل لها بذاتها بمعزل عن الارادة الإلهية موجدة الأسباب والنتائج معاً، فيمكن أن ترتبط على سبيل العادة، كما يمكن أن ينفكّ هذا الارتباط بإرادة الله وفضله. هذه المقولة أساسية في الفكر الإسلامي الأشعري، حاجج بها الغزالي الفلاسفة العرب والمسلمين الذين قالوا بالارتباط الضروري بين الأسباب

36 . حول ورود تناقض في أحاديث النبي حول مرض الجذام وضرورة الابتعاد عن المريض وعدم ملامسته، وبين أحاديث تدل على عكس ذلك، أنظر:

المصدر نفسه، ص ص117 - 121.

37 . المصدر نفسه، ص117.

والنتائـج المتأتيـة عنهـا[38].

تبـيّن لنـا مـن خـلال عـرض مـرض الجـذام في أسـبابه وعوارضـه وملازمتـه للمريـض أن لا عـلاج لـه، حسـب هـدي النبـي، وعـرض إبـن القيّـم لـه. إلا أن مـا يفيـد في هـذا المجـال هـو الوقايـة منـه حتـى لا ينتـشر، ويتحـول إلى وبـاء، وهكـذا الحـال، كـما سـنرى في مـرض الطاعـون.

الطاعون وعلاجه والاحتراز منه

يـدلّ هـذا العنـوان، كـما جـاء في الطـب النبـوي، عـلى خطـورة المـرض والعمـل قـدر الامـكان عـلى الاحـتراز منـه. مـا يعنـي أن ثمـة وعيـاً تامـاً بخطورتـه وسـهولة انتشـاره بالعـدوى، وإمكانيـة تحوّلـه إلى وبـاء يقـضي عـلى الآلاف مـن النـاس في سرعـة قياسـية.

جـاء في الصحيحـين، عـلى مـا يقـول إبـن القيـم، أن الرسـول قـال في الطاعـون إنـه «رجـز أرسـل عـلى طائفـة مـن بنـي إسرائيـل، وعـلى مـن كان قبلكـم؛ فـإذا سـمعتم بـه بـأرض، فـلا تدخلـوا عليـه، وإذا وقـع بـأرض وأنتـم فيهـا، فـلا تخرجـوا منهـا فـراراً منـه»[39].

مـن الواضـح في هـذه التوصيـة أسـبقية الوقايـة عـلى المعالجـة. وتحمـل إمكانيـة الإصابـة بالمـرض، وتفضيلهـا عـلى نـشره خـارج المـكان الـذي ضرب المـرض فيـه. والوقايـة هنـا مـا هـي إلا العـزل لإبطـال مفعـول المـرض بإبطـال إمكانيـة انتقالـه بعـد العـزل، وإن ضرب مكانـاً أو مدينـة وقـضى عـلى سـكانها أو جلّهـم. وهـذا مـا يـدل عـلى أن النظـرة النبويـة إلى الطـب هـي نظـرة

38 . أنظر في هذا الخصوص ما قاله الإمام الغزالي، حجة الإسلام، في تفنيده لآراء إبن سينا وغيره من الذين قالوا هذا القول، في:

أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، الطبعة الخامسة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، 1972، القاهرة، ص239 وما بعدها.

39 . إبن القيم، الطب النبوي، مذكور سابقاً، ص35.

وقائيـة أكـثر منهـا علاجيـة، ناشـئة عـن حكمـة النبـي وسـعة إطّلاعـه وقدرتـه عـلى النصـح والإرشـاد بمـا يفيـد الإنسـان بجملتـه، جسـداً وروحـاً ومكمنـاً للشـعور والأحاسـيس النفسـية. هـذا بالإضافـة إلى قدرتـه عـلى الاسـتعانة بعلاجـات مفـردة معروفـة نتائجهـا، دون أن يدّعـي بالمطلـق أنـه قـادر عـلى شـفاء المـرضى مـن أي مـرض يمكـن أن يصيبهـم[40].

لذلـك، بنـى إبـن القيـم عـلى مـا جـاء في أحاديـث الرسـول حـول الطاعـون رأيـاً طبّيـاً يفصّـل فيـه كيفيـة التعامـل مـع هـذا المـرض، لتخفيـف الـضرر قـدر الإمـكان. فهـو، عـلى مـا يقـول، مـن الوبـاء، يظهر عـلى شـكل تورّمـات يصاحبها ألم شـديد صعـب الاحتـمال، تصـل إلى التقـرح في أماكـن بعينهـا. وينتقـل مـن حـال إلى حـال بسرعـة. وعندمـا يصـير الجلـد أسـود في أماكـن التقـرح، فهـذا يعنـي أن لا أمـل في الشـفاء، ويصـل المريـض إلى المـوت. لأن لا أمـل في شـفاء المصـاب بالطاعـون، قـال النبـي: «الطاعـون شـهادة لـكل مسـلم». وقـد عـبّر إبـن القيـم عـن الطاعـون بثلاثـة أمـور كانـت متداولـة في زمنـه: شـكل الجلـد ولونـه، وهـو المعـروف بـين الأطبـاء؛ المـوت المؤكـد للمصـاب بـه؛ والسـبب الـذي يتـأتّى عنـه. ولا يسـتبعد إبـن القيـم دور الأرواح الشريـرة في اسـتفحال هـذا المـرض. شـأنه شـأن أي مـرض صعـب الشـفاء إلا بالإيمـان وتسـليم المقاديـر إلى اللـه الـذي يفعـل بإرادتـه أي شيء، ومنهـا القـدرة اللامتناهيـة عـلى الشـفاء مـن أي مـرض يمكـن أن يصيـب الإنسـان. وفي هـذا الإطـار، يركّـز إبـن القيـم عـلى الأسـباب الماديـة التـي تسـاهم بنقـل المـرض واسـتفحاله عـن طريـق العـدوى والهـواء الفاسـد الـذي يكـثر فسـاده في أوقـات محـددة مـن

40 . جـاء هـذا الـكلام عـلى لسـان طبيـب مختـص بالطـب البديـل والطـب النبـوي في مقابلـة عـلى شاشـة الجزيـرة في برنامـج الشريعـة والحيـاة، أجراهـا معـد البرنامـج ماهـر عبداللـه مـع الطبيـب سـمير الحلـو، في 20 تمـوز/ يوليـو 2003. أنظـر المقابلـة عـلى الرابـط التـالي:

http://www.aljazeera.net/programs/religionandlife/20043/6/

الطب النبوي والطب الحديث.

السنة، بين أواخر الصيف وفي الخريف غالباً، «لبرد الجو وردغة الأبخرة والفضلات التي كانت تتحلل في زمن الصيف، فتنحصر فتسخن، فتحدث الأمراض العفنة، وخصوصاً إذا صادفت البدن مستعداً قابلاً رهلاً قليل الحركة، كثير المواد، فهذا لا يكاد يفلت من العطب»[41]. ويسند إبن القيم رأيه، هنا، بما قاله أبقراط في هذا الصدد الذي يعتبر أن الخريف هو موسم الأمراض والموت، بينما الربيع هو أقل الفصول إنتاجاً لهما. ليس هذا فحسب؛ بل يستند إبن القيم على ملاحظة طريفة تحصل في الشارع، وفي الممارسة العملية للحياة اليومة. فيقول إن الصيادلة ومجهّزي الموتى قد تعوّدوا على الاستدانة، في أوقات معينة في السنة. ذلك أنهم يتسلّفون في الربيع والصيف، لضعف موسم المرض والموت، على الخريف الذي يعتبرونه ربيعهم، وإليه يتشوّقون، وبقدومه يفرحون[42].

العلاج الروحاني

النوع الثالث من الطب النبوي هو ما يتناول العلاج الروحاني الناشئ عن الظروف النفسية التي تصيب الإنسان، نتيجة ضغوطات الحياة المتأتية من الفشل والخيبة والصدمات التي يمكن أن تلحق بالإنسان في مجريات حياته اليومية. وهذا يعني أن هذه الظروف التي تظهر مسبباتها وكيفية التحاقها بالإنسان، أوجدت طرقاً متعددة للمعالجة، منها السحر وطقوسه، والرقى وصنع التعاويذ المنجّية من الوقوع فيها، أو الشفاء منها. وقد كان للسحر وموجباته، ودوره، حسب ممارسيه، في الشفاء من الأمراض النفسية على اختلافها، مدار بحث مطوّل في مدوّنتنا

41 . إبن القيّم، الطب النبوي، مذكور سابقاً، ص32.

42 . أنظر في هذا الخصوص للتفصيل حول أوقات هجوم المرض والموت وأوقات انحساره، وخصوصاً تأثير فساد الهواء أو نقائه في هذه الأوقات:

المصدر نفسه، ص ص 31-35.

حـول المعتقـدات والتقاليـد[43]. ومـن المهـم هنـا، أن نعـرض ونحلـل كيفيـة تعاطـي الطـب النبـوي مـع الأمـراض النفسـية، والطريقـة التـي اتبعهـا لمعالجة هـذه الأمـراض، إن كان عـن طريـق فـكّ السـحر، أو الحمايـة منـه، أو عـن طريـق الرقـى والتعاويـذ التـي تتميـز بأنهـا لم تتوجـه إلا إلى اللـه وحـده، واعتبـار أن كل توجّـه غـيره يدخـل في بـاب المحرّمـات والخـروج عـلى الديـن.

العلاج بالرقية

أوصى النبـي صحابتـه بمـا عليهـم أن يفعلـوا في حـال اشـتكى أحدهـم شـيئاً، أو اشـتكاه أخ لـه. ومـا أوصاهـم بـه هـو التـالي: «ربنـا اللـه الـذي في السـماء، تقـدّس اسـمُك، أمـرُك في السـماء والأرض كـما رحمتُـك في السـماء، فاجعـل رحمتـك في الأرض، واغفـر لنـا حُوبَنـا وخطايانـا أنـت رب الطيّبـين، أنـزل رحمـة مـن رحمتـك، وشـفاء مـن شـفائك عـلى هـذا الوجـع، فيـبرأ بـإذن اللـه»[44].

وذكـر مسـلم في صحيحـه أن جبريـل سـأل النبـي: «أَشـتكيتَ؟ فقـال النبـي: نعـم، فقـال جبريـل: باسـم اللـه أرقيـك مـن كل شيء يؤذيـك مـن شرّ كل نفـس أو عـين حاسـد، اللـه يشـفيك باسـم اللـه أرقيـك».

وهـذا يعنـي أن الرقيـة مشروعـة، وإن حصرهـا النبـي في ثـلاث، عـلى مـا يقـول إبـن القيـم، وهـي: الرقيـة مـن العـين، والحمـة (أي كل الكائنـات السـامة) أو دم لا يرقـأ (لا يجـف).

والرقيـة تكـون بالتعـوّذ وقـراءة آيـات مـن القـرآن، بالإضافـة إلى مـا يتيـسر مـن الدعـوات بالشـفاء والتخلـص مـن المحنـة التـي اسـتوجبت الرقيـة. وخـير دواء في ذلـك هـو القـرآن. وفي ذلـك سـند مـن القـرآن نفسـه: «وننـزّل مـن

43 . عطيه، المعتقدات في التقاليد والعادات، مذكور سابقاً، ص ص117- 129.

44 . إبن القيم، الطب النبوي، مذكور سابقاً، ص136.

القـرآن مـا هـو شـفاء ورحمـة للمؤمنـين»[45]. وهـذ يعنـي أن الإيمـان بالقـرآن، وذكـر مـا يتضمنـه بقلـب منـصرف بالكليّـة إليـه، والدعـاء المخلـص بالشـفاء مـن كل مـا يقلـق الجسـم والـروح، هـو مـا يوصـل إلى الراحـة والخـلاص. «وبالجملـة، فـما تضمنتـه الفاتحـة مـن إخـلاص العبوديـة، والثنـاء عـلى اللـه، وتفويـض الأمـر كلّـه إليـه، والإسـتعانة بـه، والتـوكل عليـه، وسـؤاله مجامـع النعـم كلهـا؛ وهـي الهدايـة التـي تجلـب النعـم، وتدفـع النقـم، مـن أعظـم الأدويـة الشـافية الكافيـة»[46].

وأوضـح مـا يمكـن أن تكـون عليـه الرقيـة هـو في التعامـل مـع لدغـة حيـوان سـام. ذلـك أن اللدغـة، حسـب إبـن القيـم، صـادرة عـن نفـوس خبيثـة. وبمـا أن لـكل داء دواء، حسـب الحديـث الشريـف، فالـدواء هنـا هـو نفـس الراقـي التـي عليهـا أن تفعـل في نفـس المرقـي، كـما يفعـل الـدواء في الـداء في جسـم المريـض. فيقـع الاتصـال بـين الفعـل والانفعـال، ويغلـب فعـل الراقـي الـداءَ الـذي أصـاب المرقـي. وبقـدر قـوة نفـس الراقـي، تكـون السرعـة في الشـفاء. إذ كـما يحصـل في التأثـير والتأثـر في التفاعـل بـين الـدواء والـداء الطبيعيـين، يحصـل مثلـه بـين الـدواء والـداء الروحانيـين. «فالرقيـة تخـرج من قلـب الراقي وفمـه، فـإذا صاحبهـا شيء مـن أجـزاء باطنـه مـن الريـق والهـواء والنفـس، كانـت أتـم تأثـيراً، وأقـوى فعـلًا ونفـوذاً، ويحصـل بـالإزدواج بينهـما كيفيـة مؤثّـرة شـبيهة بالكيفيـة الحادثـة عنـد تركيـب الأدويـة. وبالجملـة، فنفـس الراقـي تقابـل تلـك النفـوس الخبيثـة، وتزيـد بكيفيـة نفسـه... وكلـما كانـت كيفيـة نَفَـس الراقـي أقـوى، كانـت الرقيـة أتـمّ، واسـتعانته بنفثـه كاسـتعانة تلـك النفـوس الرديئـة بلسـعها»[47].

---

45 . سورة الإسراء، الآية 82.

46 . إبن القيم، الطب النبوي، مذكور سابقاً، ص139.

47 . المصدر نفسه، ص140.

العلاج من تأثير القوى السحرية

كان تعاطي النبي مع الأمور السحرية ناتجاً عن إصابته بالسحر، ربما على أيدي اليهود. وقد أنكر عليه ذلك الكثيرون الذين اعتبروا أن السحر لا يجوز أن يصل إلى الرسول. وظنّوا أن السحر المؤثّر فيه يشكل نقصاً وعيباً، وهو المرسل من رب العالمين. إلا أن الأمر ليس كذلك، حسب إبن القيم، لأن ما كان يعتري النبي محمد هو بعض الأسقام والأوجاع التي عادة ما يصاب بها كإصابته بالسم. وقد ثبت في الصحيحين، على ما يقول إبن القيم، أن عائشة، زوجة النبي، قالت إن النبي سُحر، حتى أنه تخيّل إتيانه نساءه، مع أنه لم يأتهن، «وذلك أشد ما يكون من السحر»[48].

ومن أجل إسناد رأيه بما يدعمه، أورد رأي أحد القضاة المعتبرين الذي قال في السحر والمسحور ما يثبت إصابة الرسول بالسحر دون أن ينتقص ذلك من نبوّته. ذلك أن السحر مرض من الأمراض، وعارض مؤقّت لا يقدحان في نبوة محمد. وإذا كان يخيّل إليه بأن قام بعمل، وهو لم يقم به، لا يطعن في صدقه، لقيام الاجماع على عصمته، لأن هذا من شؤون «دنياه التي لم يبعث لسببها، ولا فضّل من أجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أنه يخيّل إليه من أمورها ما لاح حقيقة له، ثم ينجلي عنه كما كان»[49]. وكانت إصابته هذه سبباً في طريقة علاجه للسحر. وقد رُوي عنه أن فيه نوعين:

الأول، وهو الأبلغ، تكون معالجته باستخراجه وإبطاله. وتم للرسول الأمر بعد أن سأل ربّه في ذلك. وكان أن استخرجه من بئر وهو في مواد معلومة. وكان أن شفي مما هو فيه بعد استخراجه مباشرة. ما يعني أن الساحر

48 . المصدر نفسه، ص98.

49 . المصدر نفسه، ص99.

يقـوم بعملـه مـن خـلال مـا يخـصّ المسـحور مـن أشـيائه ويدفـن في مـكان قـصي، ولا يشـفى المسـحور إلا بعـد الحصـول عـلى أداة السـحر ومادتهـا. وهـو أبلـغ مـا يعالـج بـه المسحور. ولا يـزال المشـتغلون بالسـحر حتـى اليـوم يسـتعملون هـذه المنهجيـة في تخليـص المسـحور مـما هـو فيـه. وقـد أتينـا على ذكـر ذلـك في كتابنـا، «المعتقـدات في التقاليـد والعـادات»، السـالف الذكـر.

أمـا النـوع الثـاني، فهـو يتعلـق بعـلاج العضـو الـذي ضربـه السـحر بتقنيّـات معلومـة تقـضي بإزالـة المـادة الرديئـة مـن ذلـك العضـو. وفي ذلـك روايـة تقـول إن الرسـول احتجـم عـلى رأسـه بقـرن حـين سُـحر. وقـد شـكّل ذلـك نوعـاً مـن البلبلـة مـن خـلال الربـط بـين الحجامـة والسـحر. إلا أن ابـن القيـم اسـتند إلى تعاليـم اليونـان وابـن سـينا (980م- 1036م) في تبريـر الربـط بـين الإثنـين. وفي تفسـير هـذه المسـألة يقـول إبـن القيـم إن السـحر الـذي أصيـب بـه الرسـول انتهـى إلى رأسـه، ووصـل إلى إحـدى القـوى التـي تعطلـت مؤقتـاً بحيـث يحسّ المصـاب أنـه فعـل شـيئاً وهـو لم يفعلـه. وهـو فعـل مـن السـاحر الـذي سـيطر سـحره عـلى فعـل هـذا العضـو. أمـا السـحر نفسـه فهـو مركّـب مـن تأثـيرات الأرواح الخبيثـة التـي تفعـل في القـوى الطبيعيـة وتعطّلهـا. في هـذه الحالـة لا بـد مـن معالجـة هـذه القـوة التـي تـضرّرت. وبالتـالي يصـير عمـل الحجامـة منطقيـاً، إذا مـورس كـما ينبغـي.

إلا أن هـذه المعالجـة تبطّلـت بعـد الرجـوع إلى اللـه وإبدالهـا بمعالجـة أخـرى أكـثر تأثـيراً، وأبلـغ شـفاء، وهـو اسـتخراج السـحر وإبطالـه. ومـا كان ذلـك إلا بالأدويـة الإلهيـة المرافقـة التـي تُبطـل فعـل السـحر بمـا يقابـل الأرواح الشريـرة مـن الأرواح الخـيّرة التي عـلى المسـحور أن يعتصـم بهـا، ويوجّههـا لمعارضتهـا ومقاومتهـا، مـع مـا يتيـسّر مـن الأذكار والآيـات والدعـوات التـي تبطـل تأثيراتهـا. ويكـون ذلـك «بمنزلـة التقـاء جيشـين مـع كل واحـد منهـما عدتـه وسـلاحه، فأيهـما غلـب الآخـر، قهـره، وكان الحكـم لـه. فالقلـب إذا كان ممتلئـاً مـن اللـه مغمـوراً بذكـره، ولـه مـن التوجّهـات والدعـوات والأذكار

والتعـوّذات وردٌ لا يُخـلّ بـه يطابـق فيـه قلبُـه لسـانَه، كان هـذا مـن أعظـم الأسـباب التـي تمنـع إصابـة السـحر لـه ، ومـن أعظـم العلاجـات لـه بعـد مـا يصيبـه»[50] .

لذلـك يمكـن القـول إن تأثـير السـحر لا يـأتي إلا عـلى القلـوب الضعيفـة التـي تميـل إلى شـهوات الدنيـا. وغالبـاً مـا يكـون هـؤلاء مـن «النسـاء والصبيـان والجهّـال وأهـل البـوادي، ومـن ضعـف حظـه مـن الديـن والتـوكل والتوحيـد، ومـن لا نصيـب لـه مـن الأوراد الإلهيـة والدعـوات والتعـوّذات النبويـة»[51]. ومـن كان عـلى عكـس ذلـك، فـلا مـكان لتأثـير السـحر فيـه.

من أصناف العلاج والوقاية

نظّـم إبـن قيـم الجوزيـة مـسرداً ألفبائيـاً في كتـاب الطـب النبـوي يبـين فيـه أهـم الأصنـاف العلاجيـة أو الوقائيـة التـي اسـتعملها النبـي محمـد أو نصـح باسـتعمالها، وبـيّن فوائدهـا باعتبارهـا أدويـة مفـردة يمكـن أن تقـوم بالفائـدة المرجـوّة، كـما بمـا يمكـن أن يركّـب منهـا لتكـون أكـثر فائـدة، وهـو مـا عـلى الأطبـاء المحترفـين القيـام بـه ليكـون الإشـتغال فيـه ناجحـاً ومفيـداً. وكان مـن البـيّن أن أكـثر هـذه الأصنـاف تفيـد، منفـردة أو مجتمعـة بـين البعـض منهـا، في تقويـة كل عضـو مـن أعضـاء الجسـم. مـا يعنـي غلبـة العلاجـات الوقائيـة عـلى العلاجـات المسـتعملة للتخلـص مـن مـرض مـا، أو خلـل في توازن الجسـم. وكان هــذا التصنيــف المنبثـق مــن هــدي النبــي، مدخــلاً لمعرفــة الــشروط التـي عـلى الطبيـب التحـلي بهـا ليـمارس دوره بالشرعيـة اللازمـة، مـن جهـة؛ وللإطمئنـان عـلى صحـة المريـض، مـن جهـة أخـرى، وقـد أوردهـا إبـن القيـم بالتفصيـل في الطـب النبـوي[52].

---

50 . المصدر نفسه، ص101. وللتفصيل حول أنواع السحر وأحواله وكيفية الإفادة منه بهدي النبي، أنظر: ص ص98- 102.

51 . المصدر نفسه، ص101.

52 . حول الشروط التي من الواجب أن تتوفر في الطبيب لممارسة دوره يحدد إبن القيم

العسل

كانـت أولى هـذه الأصنـاف، بـلا منـازع، العسـل. فقـد أفـرد لهـا الرسـول، عـلى مـا يقـول إبـن القيـم، حيّـزاً واسـعاً مـن الصفـات والفوائـد، ظهـرت في بدايـات كتـاب الطـب النبـوي للتأكيـد عـلى أنـه يدخـل في الأكثريـة السـاحقة مـن الوصفـات العلاجيـة، باعتبـار أنـه يفيـد في كل الأحـوال، ولا يتـأتّى أي ضرر منـه إلا في القليـل النـادر.

كان لوصـف العسـل مـن أجـل معالجـة اسـتطلاق البطـن الظـرف المناسـب لإظهـار الفوائـد العظيمـة لـه. وجـاء الدليـل، بالاسـتعمال، بـأن مقـدار العـلاج هـو الكفيـل وحـده بالشـفاء. وهـذا مـا دعـا الرسـول إلى إجابـة الشـاكي مـن عـدم شـفاء أخيـه لعـدم فعاليـة الـدواء: «صـدق اللـه وكَـذَب بطـنُ أخيـك».

كان هـذا الجـواب مناسـبة لتعـداد منافـع العسـل وخصائصـه، كـما بيّنهـا إبـن القيـم. ولا بـأس هنـا، مـن ذكرهـا كـما جـاءت في كتـاب الطـب النبـوي لأهميتهـا. «العسـل فيـه منافـع عظيمـة، فإنـه جـلاء للأوسـاخ التـي في العـروق والأمعـاء وغيرهـا، محلـل للرطوبـات أكلاً وطـلاءً، نافـع للمشـايخ وأصحـاب البلغـم، ومـن كان مزاجـه بـارداً رطبـاً. وهـو مغـذّ ملـيّن للطبيعـة، حافـظ لقـوى المعاجـين ولمـا اسـتودع فيـه، مُذهِـب لكيفيـات الأدويـة الكريهـة، منقٍّ للكبـد والصـدر، مـدرٌّ للبـول، موافـق للسـعال الكائـن عـن البلغـم. وإذا شرب حـاراً بدهـن الـورد، نفـع مـن نهـش الهـوام وشرب الأفيـون. وإن شُرب وحـده ممزوجـاً بمـاء نفـع مـن عضـة الكلْـب الكلِـب، وأكل الفطـر القتـال. وإذا جُعـل فيـه اللحـم الطـريّ، حفـظ طراوتـه ثلاثـة أشـهر، وكذلـك إن جُعـل فيـه القثـاء، والخيـار، والقـرع، والباذنجـان، ويحفـظ كثـيراً مـن الفاكهـة سـتة أشـهر، ويحفـظ جثـة المـوتى، ويُسـمى الحافـظ الأمـين. وإذا لطّـخ بـه البـدن المقمّـل والشـعِر، قتـل قملـه وصئبانـه، وطـوّل الشـعر، وحسّـنه، ونعّمـه،

---

20 بنداً تسمح مجتمعة للطبيب بأن يمارس دوره في علاج المرضى. أنظر في هذا الخصوص: المصدر نفسه، ص ص112- 114.

وإن اكتُحل به، جلا ظلمة البصر، وإن استُنّ به، بيّض الأسنان وصقلها، وحفظ صحتها، وصحة اللثة. ويفتح أفواه العروق، ويدرّ الطمث. ولعقه على الريق يُذهب البلغم، ويغسل خمل المعدة، ويدفع الفضلات عنها، ويسخّنها تسخيناً معتدلاً، ويفتح سددها، ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة، وهو أقل ضرراً لسدد الكبد والطحال من كل حلو.

وهو مع هذا كله، مأمون الغائلة، قليل المضار، مضرّ بالعرَض للصفراويين، ودفعُها بالخل ونحوه، فيعود حينئذ نافعاً له جداً»[53].

ليس هذا فحسب، بل العسل، بالإضافة إلى ذلك، «غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وحلو مع الحلوى، وطلاء مع الأطلية، ومفرح مع المفرحات، فما خلق لنا شيء في معناه أفضل منه، ولا مثله، ولا قريباً منه، ولم يكن معوّل القدماء إلا عليه، وأكثر كتب القدماء لا ذكر فيها للسكّر البتة، ولا يعرفونه، فإنه حديث العهد حدث قريباً، وكان النبي(ص) يشربه بالماء على الريق، وفي ذلك سر بديع في حفظ الصحة لا يدركه إلا الفطن الفاضل»[54].

وقد ذكر إبن القيم من الأحاديث الموثّقة التي تبيّن فوائد العسل أن «من لعق العسل ثلاث غدوات كل شهر، لم يصبه عظيم من البلاء». كما ذكر حديثاً آخر يجسد نوعاً من المساواة بين الشفاء بالعسل والشفاء بالقرآن، «عليكم بالشفائين: العسل والقرآن». فيكون هذا الحديث قد جمع بين الطب البشري (بالعسل) والطب الإلهي (بالقرآن)؛ بين طب الأبدان، وطب الأرواح؛ وبين الدواء الأرضي والدواء السماوي[55].

---

53 . المصدر نفسه، ص25- 26.

54 . المصدر نفسه، ص26.

55 . المصدر نفسه، ص27.

البلح

شجّع الرسول على تناول البلح لما له من فوائد ، فقال «كلوا البلح بالتمر، فإن الشيطان إذا نظر إلى ابن آدم يأكل البلح بالتمر يقول: بقي ابن آدم حتى أكل الحديث بالعتيق». وفي رواية أخرى »كلوا البلح بالتمر، فإن الشيطان يحزن إذا رأى ابن آدم يأكله يقول: عاش ابن آدم حتى أكل الجديد بالخلق». وفي تعليق ابن القيم على الأمر يقول إن حديث النبي أساس في أصل صناعة الطب لموافقة البلح للتمر لأنهما متضادان من ناحية الرطوبة والحرارة، من جهة؛ والبرودة واليبوسة، من جهة ثانية. ذلك أن كلاً منهما فيه إصلاح للآخر، بمعنى إحلال التوازن في الجسم. وهذا لا يصير بالمنطق الطبي أن يجتمع حاران، مثل التمر مع البسر، أو باردان.

ولأن في البلح برودة ويبوسة، فهو نافع للفم واللثة والمعدة. ولكنه مضرّ بالصدر والرئتين للخشونة التي فيه. بطيء في التغذية. وهو بمثابة الحصرم في العنب يولّد الغازات والنفخة ولاسيما مع الماء. إلا أن هذه المضرّة تذهب بالتمر، وبالعسل والزبد. وفي ذلك ما يدل على أن هدي الرسول في البلح هو الذي أملى على الطبيب إبن القيم ذكر فوائده وفي طريقة تناوله.

البصل

من المهم في تناول مسألة الفائدة من البصل التركيز على الفرق بين تناوله لفائدته، وضرره في الرائحة القوية المنبعثة من فم آكله. لقد ثبت في الصحيحين، على ما يقول إبن القيم، أن الرسول منع آكله من دخول المسجد. وهذا، من دون شك، من أجل تجنّب رائحة البصل المنبعثة منه.

أما من ناحية فائدته، فالبصل حار ورطب ينفع في حال تغيّر المياه،

يدفع ريح السموم ويفتح الشهية ويقوي المعدة ويهيّج الشهوة الجنسية ويزيد في المنيّ ويحسّن اللون ويقطع البلغم، ويجلو المعدة. أما بزره فيُذهب البهاق، ويدلّك به حول داء الثعلب، فينفع جدًا. ويمكن ان ينزع الثآليل إذا مزج بالملح. ويمنع القيء والسيلان إذا شمّه من أخذ دواء مسهّلاً، وذلك بحجب رائحة ذلك الدواء. وإذا تُسعِّط بمائه (الشمّ بقوة) نقى الرأس. «ويُقطّر في الأذن لثقل السمع والطنين والقيح، والماء الحادث في الأذنين. وينفع من الماء النازل في العينين اكتحالًا يكتحل ببزره مع العسل لبياض العين. والمطبوخ منه كثير الغذاء ينفع من اليرقان والسعال، وخشونة الصدر، ويدرّ البول، ويليّن الطبع، وينفع من عضة الكلب غير الكلِب إذا نُطل عليها ماؤه بملح وسذاب، وإذا احتمل، فتح أفواه البواسير»[56].

هذا في منافعه. أما ضرره فإنه يورّث الشقيقة، ويصدّع الرأس، ويولّد أرياحاً، ويظلم البصر. وكثرة أكله تورّث النسيان، ويُفسد العقل، ويغيّر رائحة الفم والنكهة، ويؤذي الجليس، والملائكة، وإماتته طبخًا تُذهب بهذه المضرات منه. ومن الأحاديث النبوية أن الرسول أمر بإماتته مع الثوم طبخاً. وتُذهب برائحته بعضُ الأعشاب[57].

الثوم

الثوم قريب من البصل، وخصوصاً في الرائحة المنبعثة منه بعد أكله. وقد أوصى الرسول، كما رأينا، بطبخه، هو والبصل، لإماتة الرائحة.

والثوم حار ويابس، يسخّن ويجفّف، فينفع المبرودين، والمبتلين بالبلغم والمشرفين على الوقوع بالفالج. «مجفّف للمنيّ، مفتّح للسدد، محلّل للرياح الغليظة، هاضم للطعام، قاطع للعطش، مطلق للبطن، مدرّ

56 . المصدر نفسه، ص224.

57 . المصدر نفسه، ص224.

للبـول. يقـوم في لسـع الهـوام وجميـع الأورام البـاردة مقـام الترياـق. وإذا دُقّ وعُمـل منـه ضـماد عـلى نهـش الحيّـات، أو عـلى لسـع العقـارب، نفعهـا وجـذب السـموم منهـا. ويسـخّن البـدن، ويزيـد في حرارتـه... يـؤكل نيئـاً ومطبوخـاً ومشـوياً، وينفـع مـن وجـع الصـدر مـن الـبرد، ويخـرج العلـق مـن الحلـق، وإذا دُقّ مـع الخـل والملـح والعسـل، ثـم وُضـع عـلى الـضرس المتـآكل، فتّتـه وأسـقطه، وعـلى الـضرس الوجِـع، سـكّن وجعـه». إلا أنـه مـضرّ في بعـض الحـالات. فهـو يـؤذي الدمـاغ والعينـين، «ويُضعـف البـصر والبـاه (الممارسـة الجنسـية) ويعطـش، ويهيّـج الصفـراء، ويجيّـف رائحـة الفـم»[58].

الحبة السوداء

يقـول الرسـول في الحبـة السـوداء: «عليكـم بهـذه الحبـة السـوداء، فـإن فيهـا شـفاء مـن كل داء إلا السـام». والسـام هـو المـوت. وتسـمى اليوم بحبـة البركة. وهــي كثـيرة المنافـع. ولا تـزال معتـبرة إلى يومنـا هـذا وتعتـبر مـن العنـاصر الشـافية للكثـير مـن الأمـراض. فهـي كثـيرة المنافـع وتسـتعمل لمعالجـة جميـع الأمـراض البـاردة. وهـي مُذهبـة للنفخـة، مخرجـة لحـب القـرع، نافعـة مـن الـبرص والحمـى، مفتّحـة للسـدد، ومحللـة للريـاح، مجففـة لبلـة المعـدة ورطوبتهـا. وفي حـال دقـت وعجنـت بالعسـل، وشربـت بالمـاء الحـار، أذابـت الحصـاة التـي تكـون في الكليتـين والمثانـة. وهـي مـدرّة للبـول والحيـض واللـبن، في حـال تكـرار شربهـا أيامـاً. وإن سـخّنت مـع الخـل وطـلي بهـا البطـن قتلـت حـب القـرع. وإذا عجنـت بمـاء الحنظـل الرطـب، أو المطبـوخ، كان فعلهـا في إخـراج الـدود أقـوى. وهـي بالإضافـة إلى ذلـك تشـفي مـن الـزكام البـارد إذا دُقـت وصُـيّرت في خرقـة، واشـتمت دائمـاً، أذهبتـه.

وللحبـة السـوداء منافـع أخـرى، فـإذا طُبخـت بخـل، وتُمضمِـض بهـا، خفّفـت مـن وجـع الأسـنان. وإذا تُنشـقت مسـحوقًا، نفعـت العينين. وإن اسـتعملت في

58 . المصدر نفسه، ص227.

التضميد مع الخل أزالت البثور والجرب المتقرّح. وتنفع في حال أصيب المرء بلسعة الرتيلاء، كما تنفع في حالات البرد والزكام العارض، إذا قُطر منها، بعد سحقها وخلطها بمواد أخرى، في الأذن ثلاث مرات. كما تنفع في إزالة القروح في حال خلطها بالشمع المُذاب بدهن الحناء أو السوسن.

وإذا أحرق وخلط بشمع مذاب بدهن السوسن، أو دهن الحناء، وطليت به القروح الخارجة من الساقين بعد غسلها بالخل، نفعها وأزال القروح. كما أنها تحمي من الكَلَب والفالج. وتشفي من البواسير والبهاق[59].

الزيت

ما ذكره الرسول عن الزيت هو المستخرج من الزيتون. وشجرة الزيتون مباركة في القرآن. «يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار»...[60]. وفي هذا الاطار، ثمة حديث موثوق للرسول يقول: كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة». وكذلك يقول: «إئتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة».

هذا ما دعا ابن القيم إلى التوسع في مواصفات زيت الزيتون وفي فوائده. فهو حار رطب في مواصفاته العامة، ونوعيته بحسب زيتونه، والمعتصر في نضجه أجوده وأعدله بحسب زيتونه، فالمعتصر من النضيج أعدله وأجوده. ومن الفج أبردُه وأيبسُه. ومن الأحمر أوسطه بين النوعين. ومن الأسود ما يسخّن ويرطّب باعتدال. والزيت على العموم ينفع في مواجهة السموم. يطلق البطن، ويخرج الدود، والعتيق منه أشد تسخينًا وتحليلًا، وما استخرج منه بالماء، فهو أقل حرارة، وألطف وأبلغ في النفع، وجميع أصنافه مليّنة للبشرة، وتبطئ الشيب[61].

59 . المصدر نفسه، ص 229.

60 . سورة النور، الآيه 35.

61 . إبن القيم، الطب النبوي، مذكور سابقاً، 244.

الزنجبيل

جـاء ذكـر الزنجبيـل في آيـة مـن القـرآن تقـول: «ويسـقون فيهـا كأسـا كان مزاجهـا زنجبيـلاً»[62].

الزنجبيـل حـار ورطـب مسـخّن معـين عـلى هضـم الطعـام، ملـيّن للبطـن تلييـناً معتـدلاً، نافـع في حـل مشـاكل الكبـد العارضـة والمتأتيـة مـن الـبرد والرطوبـة. كـما يكبـح ظلمـة البـصر الحادثـة عـن الرطوبـة، إمـا بـالأكل أو الاكتحـال. وهـو يسـاعد في الجـماع، ومحلـل للريـاح الغليظـة الحادثـة في الأمعـاء والمعـدة. وهـو بالإضافـة إلى ذلـك، صالـح للكبـد والمعـدة. وإذا أخـذ منـه مـع السـكر وزن درهمـين بالمـاء الحـار، سـاهم في عمليـة الاسـهال، وينفـع في تحلـل البلغـم وإذابتـه.

ومنـه نـوع حـار ويابـس يزيـد مـن الشـهوة الجنسـية ويسـخّن المعـدة والكبـد، ويعمـل عـلى إزالـة البلغـم، ويوافـق بـرد الكبـد والمعـدة، ويزيـل بلّتهـا الحادثـة عـن أكل الفاكهـة، ويطيّـب النكهـة، ويُدفـع بـه ضرر الأطعمـة الغليظـة البـاردة[63].

السِواك

احتـل السـواك أهميـة كـبرى في الطـب النبـوي، لمـا حظـي بـه مـن اهتـمام النبـي في أحاديثـه وفي اسـتعماله. يقـول: «لـولا أن أشـق عـلى أمتـي لأمرتهـم بالسـواك عنـد كل صـلاة». وقـد قيـل عنـه أنـه إذا قـام مـن الليـل يشـوص فـاه بالسـواك. وكان إذا دخـل بيتـه، عـلى مـا يقـول مسـلم في صحيحـه، بـدأ بالسـواك. ويقـول البخـاري في صحيحـه نقـلاً عنـه، إنـه قـال: «السـواك مطهـرة

62 . سورة الإنسان، الآية 17.

63 . إبن القيم، المصدر نفسه، ص246- 247

للفم مرضاة للرب». كما نقل عنه أنه قال: «أكثرت عليكم في السواك»[64].

هذه الأحاديث وغيرها الكثير تبيّن أهمية السواك في تنظيف الفم والأسنان. ولا يزال اعتباره قائماً إلى اليوم. وقد صنع منه معاجين بأسماء متعددة مستخرجة منه، وتستعمل على أنها من التراث المرغوب استعماله بكثرة تيمّناً بفعل واستعمال الرسول.

وفي هذا الاطار يتوسّع إبن القيم في شرح أصناف السواك وفوائده مستنداً إلى تراث الطب النبوي. وبدأ بالتأكيد على أهمية معرفة الشجرة التي يمكن أن يؤخذ منها، لأن الشجرة المجهولة يمكن أن تكون مضرّة أو سامة. كما أن على مستعمله أن يعتدل ويقتصد في استعماله، وإلا أضرّ بالأسنان وعرّاها من طلاوتها ونعومتها وهيّأها لاستقبال الأبخرة المتصاعدة من المعدة، والأوساخ التي يمكن أن تتجمّع في تجاويفها المستحدثة بالتآكل. وإذا استعمل باعتدال « جلا الأسنان وقوّى العمود، وأطلق اللسان، ومنع الحفر، وطيّب النكهة، ونقّى الدماغ وشهّى الطعام».

أما أجود استعماله فهو ذلك المبلول بماء الورد. وأنفعه ما كان مستخرجاً من خشب الجوز. وفيه عدة منافع منها تنقية الرأس وتصفية الحواس وحِدّية الذهن. وهو يطيّب الفم ويقوّي اللثة، ويقضي على البلغم، ويجلو البصر، ويذهب بالحفر، ويجعل المعدة في تمام الصحة، ويصفّي الصوت، ويساعد «على هضم الطعام، ويسهّل مجاري الكلام، وينشط للقراءة، والذكر والصلاة، ويطرد النوم، ويرضي الرب، ويعجب الملائكة، ويكثر الحسنات. ويستحب كل وقت، ويتأكد عند الصلاة والوضوء، والإنتباه من النوم، وتغيير رائحة الفم، ويستحب للمفطر والصائم في كل وقت لعموم الأحاديث فيه، ولحاجة الصائم إليه، ولأنه مرضاة للرب، ومرضاته مطلوبة في الصوم أشد من طلبها في الفطر، ولأنه مطهرة للفم،

64 . المصدر نفسه، ص248.

والطهـور للصائـم مـن أفضـل أعمالـه».

وللسـواك دور في الصيـام، عـلى مـا يقـول إبـن القيـم. فهـو مُذهـب لرائحـة فـم الصائـم لأن لا غـرض للـه في التقـرب إليـه بالرائحـة الكريهـة. مـا يعنـي أن الصائـم أحـوج إلى السـواك مـن المفطـر. ذلـك أن مخلفـات الطعـام لا تـزول بالسـواك لأن المعـدة خاويـة بالصيـام. ومـا يـزول هـو فقـط الأثـر المعقـود بـين الأسـنان واللثـة[65].

الصبر

مــن ضمــن أنــواع العــلاج المتضمّنــة في كتــاب الطــب النبــوي مــا يفيــد الأزمـات النفسـية والعاطفيـة التـي يمـرّ فيهـا الإنسـان. ويعتبرهـا الرسـول، أولاً، مـن أصنـاف العـلاج المفيـدة باعتبـار أن أي عـلاج، حتـى وإن مـن أصنـاف العلاجـات البدنيـة، لا يفيـد بكامـل قدرتـه، إذا لم يرافقـه الإيمـان بـه وبمقدرتـه عـلى الشـفاء. فكيـف الحـال إذا كان الخلـل في النفـس، وهـو عـادة مـا ينشـأ نتيجـة ضغـط عاطفـي أو صدمـة أو فشـل في أمـر مـن الأمـور؟ ومـن أصنـاف هـذه العلاجـات الصـبر والتـوكل والصـوم والصـلاة والإيمـان بالمقاديـر وغيرهـا التـي زخـر بهـا كتـاب إبـن القيـم.

يـأتي الصـبر في مقدمـة هـذه الأصنـاف. فهـو نصـف الإيمـان. وهـو ماهيـة مركبـة مـن صـبر وشـكر. وفي ذلـك وصلنـا مـن تـراث السـلف أن الإيمـان نصفـان: نصـف صـبر ونصـف شـكر. ولأن الصـبر ضروري في حـالات كثـيرة تصيـب الإنسـان، جـاء في القـرآن: «...إن في ذلـك لآيـات لـكل صبّـار شـكور»[66]. والصـبر لـه الأهميـة الكـبرى في الديـن. وهـو بالنسـبة للإيمـان بمنزلـة الـرأس

65 . للتفصيل حول أهمية السواك ومدى اهتمام الرسول به، وللزيادة في إظهار فوائده، أنظر:

المصدر نفسه، ص ص248- 250.

66 . سورة إبراهيم، الآية 5.

من الجسد. والصبر هنا يتجلى في ثلاثة أنواع: «صبر على فرائض الله، فلا يضيّعها، وصبر عن محارمه، فلا يرتكبها، وصبر على أقضيته وأقداره، فلا يتسخّطها. ومن استكمل هذه المراتب الثلاث، استكمل الصبر، ولذة الدنيا والآخرة ونعيمها، والفوز والظفر فيهما. لا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر، كما لا يصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط»[67]. ذلك كله يفيد أن أي نجاح في أي أمر منوط بالصبر. وأي فشل يمكن أن يصيب الإنسان مرتبط بعدم الصبر. وأكثر ما يصيب البدن من الخلل متأتٍ من الاستعجال أو القنوط. ولم تحفظ صحة الأجسام والقلوب والأرواح إلا بالصبر. فالله مع الصابرين.. «ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»[68]. والنصر مع الصبر، «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون»[69].

هذا في ما يتعلق بالحالة النفسية التي على المؤمن انتهاجها ليظفر بصحة نفسه وبدنه. ولكن ماذا عن الصبر، النبات الذي له فوائد جمة لجسم الإنسان؟

يقول إبن القيم إن «الصبر كثير المنافع (الهندي)، ينقّي الفضول الصفراوية التي في الدماغ وأعصاب البصر. وإذا طلي على الجبهة والصدغ بدهن الورد، نفع من الصداع، وينفع من قروح الأنف والفم، ويسهّل السوداء والماليخوليا. (والفارسي منه) يذكّي العقل، ويمدّ الفؤاد، وينقّي الفضول الصفراوية والبلغمية من المعدة إذا شُرب منه ملعقتان بماء، ويردّ الشهوة الباطلة والفاسدة، وإذا شُرب في البرد، خيف أن يسهّل دماً»[70].

67 . إبن القيم، الطب النبوي، ص257.

68 . سورة النحل، الآية 126.

69 . سورة آل عمران، الآية 200.

70 . إبن القيم، الطب النبوي، ص258.

الصوم

يدخل الصوم في المعالجات الروحية والجسمانية. وقد اعتبر إبن القيم، أن «الصوم جنة من أدواء الروح والقلب والبدن، منافعه تفوت الإحصاء، وله تأثير عجيب في حفظ الصحة، وإذابة الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها، ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعاً، وحاجة البدن إليه طبعاً»[71]. كما يعمل الصوم على إراحة الجسم ويحفظ قواه ويحافظ على الصحة. لذلك يدخل الصوم في الأدوية الجسمانية والروحانية، لأنه يحبس المواد الفاسدة من الإضرار بالبدن، كما يعمل على الإراحة النفسية للصائم من خلال تنفيذه ما يريد الله من المؤمن. فيتمّ القصد من الصيام برجاء الجنة والوقاية من الأمراض. قصد إيماني روحاني، وقصد جسماني مادي يحفظان قواعد الصحة النفسية والبدنية.

بالإضافة إلى ما جاء في القرآن حول وجوب الصيام وعلاقته الوثيقة بالتقوى، «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون»[72]، قدم لنا إبن القيم فصلًا كاملًا عن هدي النبي في الصوم يتناوله في كل تفاصيله وفوائده[73].

ما سبق من أصناف العلاج يشكل مثالاً لا حصراً عما جاء في كتاب الطب النبوي مع ذكر فوائدها وما يمكن أن تقدّمه لجسم الإنسان وروحه من العلاج من المرض والوقاية منه. إنطلق منها إبن القيم مما قاله النبي محمد في مسيرته الحياتية، إما من خلال إجابته عن أسئلة المتسائلين أو إبداء رأيه في المرض وكيفية علاجه. وكان على إبن القيم، من بعد، أن يستهلّ آراءه في الطب والعلاج، باعتباره طبيباً، من هذه الأجوبة

71 . المصدر نفسه، ص258.

72 . سورة البقرة، الآية 183.

73 . إبن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، 1998، بيروت، ص ص27- 82.

والآراء ليفصّل القول، كما جاء في كتاب الطب النبوي، مؤكداً على التلازم الضروري بين طب الأبدان وطب الإيمان، باعتبار أن لا نفع يذكر من نتائج الطب البدني، إذا لم يترافق، بهذا التلازم، مع الطب الإلهي الذي يفعل فعله بالإيمان والثقة والاتكال، وبقدرة الله المطلقة على الشفاء من الأمراض الجسدية والروحية.

الفصل الثالث

التقنيات في الطب الشعبي

يتناول البحث في التقنيات، الوسائل المستعملة في العلاج وأصنافها وكيفية تحضيرها ومناسبتها لهذا المرض أو ذاك، مثلما علقت هذه الوسائل في الذهنية العامة للناس، والحاضرة في مداركهم للدرجة التي تدفعهم إلى ممارسة علاج بعينه لمرض محدّد؛ وهو العلاج الذي عادة ما يكون من حواضر البيت، ومحفوظ من أجل استعماله في الوقت المناسب لمعالجة انحراف طارئ أصاب جسم أحد أفراد الأسرة. فإذا عاد الجسم إلى الاعتدال كان به، وإلا تنتقل المعالجة إلى الجهة الأخرى التي عليها أن تداوي المريض وتواجه المرض، إما بما يرتئيه الطبيب الشعبي من صنوف العلاج في الحي أو البلدة، أو بما يشخّص المرض من الأطباء المحدثين، ويقرر بنتيجة ذلك العلاج المناسب أو الدخول إلى المستشفى.

التداوي بالأعشاب

كان للتداوي بالأعشاب تقنيات مخصوصة تتعلق في كيفية تحضير الدواء للمعالجة. وبما أن التداوي يتوسّل كل ما ينبت في الطبيعة من أجل تحضير الأدوية النافعة للجسم، حسب العلة التي تعلّه وتفقده اعتداله وتوازنه، وبعد التجارب التي لا حصر لها على امتداد تاريخ العلاقة مع المرض والأعشاب والنباتات التي تجود بها الطبيعة، بالإضافة إلى حيواناتها التي استعملت هي ومنتوجاتها كأدوية للشفاء.

وعليه، كانت كل هذه المنتوجات النباتية والحيوانية تستعمل في طرق متعددة، حسب نوع المرض وموقعه في داخل الجسم أو في خارجه. من هذه الطرق ما ينتج شراباً، أو ما ينتج لصقة بعد الطحن والعرك

منفـردة أو مركبـة مـع مـواد أخـرى مناسـبة تحصّلـت معرفـة فوائدهـا مـن خـلال التجربـة والتكـرار، حسـب منهجيـة الخطـأ والصـواب. كـما أن الكثـير مـن هـذه المـواد كانـت تسـتعمل كأدويـة شـافية عـن طريـق المـدغ والبلـع كالطعـام. وكذلـك كان يسـتعمل الكثـير منهـا للإستنشـاق بعـد سـحقها وتنعيمهـا في مرحلـة اليبـاس.

وعليه، يمكن الكلام على تقنيات تحضير الأدوية العشبية بالطرق التالية:

حصـاد الأعشـاب، كل صنـف عـلى حـدة، وكل جـزء مـن الصنـف عـلى حـدة لتعـدد الاسـتعمالات للنبتـة الواحـدة. ومـن ثـم تجفـف الأعشـاب لوحدهـا، والبـذور لوحدهـا، وكذلـك الأزهـار.

تحضـير الخلاصـات، وذلـك بغـلي الجـزء مـن النبتـة عـلى نـار هادئـة، ومـن ثـم، بعـد تبريدهـا، تصفّـى وتحفـظ في أوعيـة زجاجيـة محكمـة الإغـلاق.

تحضـير المنقوعـات مـن الأعشـاب بإضافـة المـاء إلى العشـبة المنتقـاة ومـن ثـم تصفيتهـا بعـد مـدة، وحفظهـا أو اسـتعمالها مبـاشرة.

تحضـير الصبغـات بإضافـة الكحـول عـلى نباتـات بعينهـا، ومـن ثـم اسـتخلاص السـائل بعـد عـصره بشـدة وتعبئتـه وحفظـه.

تحضـير المراهـم مـن خـلال الغـلي الخفيـف والتصفيـة، ومـن ثـم عـصر الأعشـاب وحفظهـا.

تحضـير الضـمادات العشـبية (اللبخـة)، وذلـك بغـلي العشـبة اللازمـة، ومـن ثـم وضعهـا عـلى المـكان الخارجـي المعتـلّ مـن الجسـم (ورم أو جـرح متخـثر)، ومـن ثـم ربطهـا بعـد تغطيتهـا بقطعـة مـن القـماش. ومنهـا نقـع قطعـة مـن القـماش في محلـول محـضّر سـابقاً، ومـن ثـم وضـع وربـط الضـمادة عـلى المـكان المعتـلّ مـن الجسـم.

تحضير الكريمات من خلال غلي الأعشاب اللازمة مع الشمع، للحصول على المادة السميكة اللزجة، وتعبّأ في أوعية. وتستعمل لمعالجات متعدّدة، منها إخراج البثور بعد تقيّحها، وإزالة الأورام، بالإضافة إلى تنقية الوجه والبشرة في شكل عام.

تحضير أنواع الشراب من خلال إعداد النقيع أولاً، ومن ثم تصفيته وإضافة العسل إليه وتسخينه، ومن ثم تعبئته ووسمه لتفرقة كل نوع عن غيره من الأشربة.

تحضير النقائع الزيتية من خلال غلي الأعشاب الزيتية، ومن ثم تصفية الزيت من النبتة، وتعبئتها وحفظها.

تحضير النقائع الزيتية على البارد دون أن تمسها النار، وذلك بعد إضافة الزيت إليها، ونقعها لفترة، ومن ثم تصفيتها وتعبئتها وحفظها في زجاجات تُغلق بإحكام[1].

ولأن العرب، كغيرهم من شعوب العالم، يعانون من اعتلال الصحة وانحرافها عن طريق الاعتدال، فقد كانت المنتوجات الطبيعية المتوفّرة حسب ما تنتجه الطبيعة، وما يقتنونه من الحيوانات ومنتوجاتها، هي سبيلهم الوحيد المتوفر للعلاج. وبذلك، استطاعوا أن يبنوا، على توالي الأيام صرحاً عالياً من المعارف الطبية المبنيّة على تحديد أنواع الأمراض بعد معرفة عوارضها ومسبباتها، وما يمكن أن يناسبها من الأدوية اللازمة للشفاء، إنطلاقاً من منهجية معتبرة لديهم تقوم على الرطوبة والبرودة، من ناحية؛ وعلى الحرارة واليبوسة، من ناحية ثانية؛ ومن ثم مقارنة هذه الخصائص مع مثيلاتها من النباتات والمنتوجات الحيوانية، وحتى الطبيعية الجامدة. وبعد تشخيص العلّة وتصنيفها، وتحديد أماكن

1 . من مقابلة مع أحد العطارين في مدينة طرابلس، لبنان، بعد سؤاله عن التقنيات المستعملة في تحضير النباتات الطبية للعلاج، كما هي موروثة أباً عن جد.

وجودهـا وضررهـا، يـأتي وصـف العـلاج الـذي يقـوم عـلى التناسـب العكسي مـع المـرض مـن أجـل أن يعـود التـوازن إلى الجسـم. فالحـرارة لا بـدّ لهـا إلا أن تعالـج بالـبرودة، والـبرودة بالحـرارة، وإزالـة مـا هـو زائـد بمـا يؤمّـن النقصـان، وزيـادة مـا هـو ناقـص بمـا يؤمّـن هـذه الزيـادة في الأدويـة.

النباتات، الخصائص والمداواة

مـن البديهـي أن تكـون المعرفـة بخصائـص النباتـات والمنتوجـات الحيوانيـة وفوائدهـا، مـن الضروريـات اللازمـة للإفـادة مـن العـلاج، والانتقـال مـن المرض إلى الصحـة. لذلـك كـثر الـكلام عـلى الفوائـد الطبيـة لهـذه الموجـودات، منـذ مـا قبـل الطـب النبـوي بالنسـبة للعـرب، وبالنسـبة للشـعوب المجـاورة التـي كانـت عـلى معرفـة وثيقـة بأمـور الطـب والعـلاج، وخصوصـاً الهنـود والفـرس وأهـل اليونـان. ومـا رأينـاه في الفصـل السـابق عـن الطـب النبـوي، وعـمّا قدّمـه المؤلـف مـن شرح لأقـوال الرسـول المتعلقـة بالمـرض وأنـواع العـلاج، ومـن ثـم التفصيـل في هـذه المسـائل، وإظهـار أهميـة معرفـة العلّـة قبـل وصـف الـدواء أو التـداوي بـه، خـير دليـل عـلى ذلـك. هـذا مع العلـم أن إبـن القيـم، واضـع هـذا الكتـاب، كان طبيبـاً مشـهوراً ومعتـبراً بـين الأطبـاء.

مـا سبق، يدفعنـا إلى تقديـم نمـاذج مـن النباتـات الطبيـة التـي كانـت توصـف للمـرضى مـع كيفيـة تحضيرهـا. وإذا كان الطبيـب يـدرك نوعيّـة العـلاج ومقاديـره وتركيبـه، فـإن غـيره مـن المختصـين كان يقـوم بمهمـة تحضـير هـذا الـدواء، حسـب المقاييـس المقـدّرة مـن قبـل الطبيـب. وقـد ذكرنـا في الفصـل الأول الظـروف التـي أدت إلى تطـوّر أمـور الطـب عنـد العـرب؛ الأمـر الـذي أدى إلى فصـل الطـب عـن العشـابة، والطبيـب عـن العشّـاب، بحيـث صـار لـكل منهـما اختصاصـه، ناهيـك عـن تـوزع اختصاصـات الطـب عـلى أطبـاء متعدّديـن يقـوم كل واحـد منهـم عـلى مـا اختـصّ بـه مـن أمـور العـلاج. لذلك يمكـن القـول إن متابعـة أمـور الصحـة غـير العـلاج الـذي يقـوم عـلى إجـراء العمليـات الناشـئة عـن حـوادث معيّنـة، كالكسـور والشـلل وإزالـة مـا طـرأ

على الجسم من مواد خارجة عنه، أو أورام نشأت عن خلل أصيب به، أو ما يمكن أن يعيق عمل الجسم من أخلاط وفضلات تستوجب عمليات محدّدة، مثل الحجامة والكيّ. وسيكون لنا عودة إلى هذه التقنيات لاحقاً.

ولكن من المهم التأكيد على أن ما ندعوه هنا بالطب الشعبي، أو التداوي الشعبي بالأعشاب، ما كان على هذه التسمية في الماضي، وإن كان يحاكي عامة الناس ما كان يرشح إليهم من ممارسات طبية عالمة ورسمية. إلا أن ما كان يميّز العشّابين العقلانيين والمتنوّرين عن ممارسي السحر والشعوذة من العامة، مع استعمال الأعشاب أو المواد المطلوب جمعها، لممارسة عملية الشفاء بحضور الأرواح ومساعدتهم؛ تحول إلى نوع من التمييز بين المعالجات التقليدية، بالمقارنة مع الحداثة الطبية اليوم. فتحول الأمر إلى التداوي الشعبي بالأعشاب بالاستعمال المباشر لهذا النوع أو ذاك وبطرق متعددة، إلى استعمال حديث يقوم على وصفة طبية يصرفها الصيدلاني الذي صار متبطلاً في عصر المصانع الضخمة التي تتكفل بإيصال الأدوية على اختلافها معلبة وجاهزة للاستعمال مع بذخ في تقديم الحسومات تغني الاختصاصي عن البحث في شؤون الأدوية وتركيباتها والانهمام بكيفية صنعها.

في هذا الإطار، لا شك في أن التسمية بالتقليدي أو الحديث في تحضير الدواء وتقديمه للشفاء من المرض هي نسبيّة. وتسمى العملية بالمقارنة مع ما يقابلها. والزمن وحده هو الذي يقرّر الفرق بين التقليدي والحديث، أو بين الشعبي والنخبوي، أو بين العامّي والرسمي. إلا أن ما تأتّت عنه مراكز البحوث والمختبرات من إنتاج الأدوية الكيميائية المتشكلة من مواد صناعية مع أو بدون المواد الطبيعية قد أثبتت ضررها من خلال القضاء على المرض من هنا، وإنتاج أمراض أخرى من هناك داخل الجسم نفسه.

هذا ما أدّى إلى إعادة النظر بتكوين الأدوية، ومن ثم العودة المتدرّجة

إلى الطبيعـة لإنتاجهـا بالاعتـماد، في الدرجـة الأولى، عـلى الأعشـاب والنباتـات. وتحـوّل الطـب الشـعبي إلى الطـب البديـل الـذي أصبـح ينافـس الطـب الحديـث في الكثـير مـن المجـالات. وقـد عـادت مستشـفيات كثـيرة في العـالم، إلى اعتـماد مـا كان معتمـداً إبـان ازدهـار المعـارف الطبيـة في الدولـة العباسـية، وهـو إنشـاء الحدائـق الضخمـة حـول المستشـفيات لإنتـاج الأصنـاف المتنوّعـة والعديـدة مـن النباتـات الطبيـة، واسـتعمالها في معالجـة المـرضى، وبمقاييـس متقدمـة وأعـيرة حديثـة تراعـي التـوازن الدقيـق بـين أنـواع الأعشـاب الداخلـة في تركيـب الـدواء. ولم تختلـف هـذه النظـرة في تركيـب الـدواء عـن النظـرة في الطـب النبـوي إلا مـن خـلال الوسـيلة وتقـدم التكنولوجيـا في الأبحـاث وطـرق التركيـب.

يقـدّم لنـا موقـع «العـلاج دوت كـوم» أوصـاف وخصائـص وقـدرات علاجيـة لنباتـات كثـيرة معروفـة في البلـدان العربيـة، ومسـتعملة منـذ أزمنـة قديمـة بأسـمائها وبخصائصهـا العلاجيـة. بعـد التعريـف بالنبتـة وأهميتهـا الطبيـة، يتنـاول أحـد الأطبـاء بالـشرح الـوافي لـكل مـا يتعلـق بهـا بتركيبهـا وأسـمائها حسـب البلـدان، وكيفيـة اسـتعمالها للعـلاج، وفي كل حالـة مـن الحـالات المرضيـة الموصوفـة. هـذا بالإضافـة إلى مـا تتميـز بـه مـن خصائـص مغذّيـة ومفيـدة للجسـم، مـع الحـذر مـن اسـتعمالها كعـلاج في حـالات موصوفـة. ولكـن لم نسـتطع التأكـد مـن انتـماء هـذا الطبيـب إلى الطـب الحديـث أو االتقليـدي، أو الطـب الأكـثر حداثـة: الطـب البديـل.

بعـد ذلـك، يقـدم الطبيـب سـليم الأغـبري، لمحـة تاريخيـة عـن اسـتعمال النبتـة، وآراء أهـم الأطبـاء والعشّـابين العـرب والمسـلمين، منـذ إبـن سـينا ومـا قبـل، ومـن ثـم نظـرة الطـب الحديـث إليهـا، وأهـم فوائدهـا، بالإضافـة طبعـاً إلى إمكانياتهـا العلاجيـة، حسـب كل طريقـة في تحضيرهـا وكيفيـة اسـتعمالها. ومـن المهـم أن نذكـر عينـة مـن هـذه النباتـات مـع خصائصهـا العلاجيـة،

وكيفيـة تحضيرهـا وطـرق اسـتعمالها[2].

الصعتر أو الزعتر

نبتـة عريقـة في القـدم. كتـب عنهـا الكثـيرون من الذيـن تداولوا طب الأعشـاب وجمعوهـا. وقـد فصّـل هـؤلاء القـول في فوائدها. وكانـت العلاج الرئيـس للربو والروماتيـزم وضعـف الأمعـاء. كـما ذكـروا فوائدهـا عنـد خلطهـا بالعسـل، المغـذّي والـدواء الأثـير عنـد العـرب منـذ مـا قبـل النبـوة، والـذي أفـاض النبـي محمـد في ذكـر محاسـنه وفوائـده للمريـض وصحيـح الجسـم. ذلـك أن هـذا المزيـج يتكفـل بإزالـة البلغـم وتقويـة البـصر، ويقـدر عـلى تحليـل الأورام وتلطيـف المغـص والسـعال. والزعـتر موجـود في كل البلـدان العربيـة، ويعـرف بهـذا الاسـم وتنسـب إليـه بلـدان متعـددة، منهـا وأفضلهـا: المقـدسي والأردني واليمنـي والشـامي، وموجـود بكـثرة في محـلات البقالـة والعطـارة ورقـاً مجففـاً أو مطحونـاً. وهـو قابـل للبقـاء مـدة طويلـة دون أن يصيبـه تلـف.

بعـد التعريـف بالزعـتر، عمـره وشـكله ولـون أزهـاره ورائحتـه العطريـة القويـة وطعمـه الحـار، ونوعـه، يبحـث الأغـبري في طـرق اسـتعماله والأماكـن منـه التـي يمكـن الافـادة منهـا، وهـي الجـذع والأوراق والأزهـار. ومـن ثـم كيفيـة الاسـتعمال. فالزعـتر عـلى العمـوم، يـؤكل ويُغـلى ويُنقـع. وفي الأيـام الحـاضرة يُسـتخرج منـه الزيـت وتُصنـع منـه الأدويـة[3].

أمـا موطنـه، ففـي المناطـق المعتدلـة والحـارة، وخصوصـاً حـوض المتوسـط والجزيـرة العربيـة. وأهـم مـا تحتويـه هـذه النبتـة مـادة التيمـول المطهّـرة والمضـادة للبكتيريـا والطـاردة للطفيليـات مـن المعـدة. كـما فيـه مـواد مسـكّنة

2 . للتفصيل حول هذا الموقع وأهميته وكيفية عرضه للمعطيات المتعلقة بالنبتة وقدرتها العلاجية، أنظر:

http://www.al3laj.com/Herbs

3 . http://www.al3laj.com/Herbs/Thyme.htm

ومطهّـرة ومـدرّة للبـول وطـاردة للبلغـم ومضـادة للسـموم، وتسـاعد عـلى شـفاء الجـروح. كذلـك يحتـوي الزعـتر عـلى الأليـاف الغذائيـة الضروريـة لصحـة الجهـاز الهضمـي. وفيـه مـواد مقوّيـة للعضـلات؛ تمنـع تصلّـب الشرايين وطـاردة للأمـلاح الضـارّة.

أمـا مـا قيـل عـن الزعـتر قديمـاً فهـو كثـير. يقـول ابـن سـينا عنـه: «الزعـتر مـدرّ للطمـث عنـد النسـاء كـما أنـه يسـاعد عـلى عـلاج التشـنّج والنـزلات المخاطيـة المزمنـة، وهـو مقـوّ للمعـدة مفيـد لعـلاج الربـو وضعـف الشُـعب الهوائيـة والاحتقانـات الناشـئة عـن الـبرد». ويقـول عنـه إبـن البيطـار: «الزعـتر يبطـل السـموم، ويحلـل الريـاح، وينشّـط الأعصـاب، ويُفـرح القلـب ويقوّيـه، ويطهّـر الـدم وينقّيـه».

أمـا فوائـده، فهـو يقـضي عـلى الميكروبـات بالزيـت المسـتخرج منـه. وهـو مفيـد لعـلاج أمـراض الجهـاز التنفـسي والـدوري. في هـذه الحالـة يعمـل الزعـتر عـلى تليـين المخـاط الشـعبي مـما يسـهّل طـرده للخـارج كـما يهـدّئ الشـعب الهوائيـة ويلطفهـا، وكذلـك يحتـوى عـلى مـواد لهـا خاصيـة مسـكّنة لـلألم ومطهّـرة ومنشّـطة للـدورة الدمويـة. وينشّـط الزعـتر عامـة كل الوظائـف المضـادة للتسـمّم، ويسـهّل إفـراز العـرق، ويـدرّ البـول. والزعـتر يحتـوى عـلى مـواد مقوّيـة لعضـلات القلـب، ويمنـع تصلـب الشرايـين، ويعالـج التهابـات المسـالك البوليـة والمثانـة، ويشـفي مـن مـرض المغـص الكلـوي ويخفـض الكولسـترول. وهـو فاتـح للشـهية يعمـل عـلى تنبيـه المعـدة وطـرد الغـازات. وهـو مضـاد للأكسـدة ومنبـه للذاكـرة.

ويمكـن اسـتعمال الزعـتر كمعجـون لتقويـة الشـعر. كـما يمكـن مضغـه لتهدئـة وجـع الأسـنان والتهابـات اللثـة. كـما يمكـن اسـتعماله بعـد غليـه بالمـاء للمضمضـة بعـد أن يـبرد، كـما يقـي الأسـنان مـن التسـوس، بمضغـه وهـو أخـضر. وهـو عامـل مهـم في تهدئـة التهابـات الحنجـرة. كـما يسـتعمل كضـمادات لتطهـير الجـروح والقـروح، والاغتسـال بمائـه للتخفيـف مـن التعب

ووجـع المفاصـل[4].

إكليل الجبل

تعـود المعرفـة الطبيـة لهـذه النبتـة إلى أزمنـة مغرقـة في القـدم، وفي حضـارات مختلفـة. وقـد اسـتعملت لعـلاج أوجـاع الـرأس وصعوبـة التنفـس وعـسر الهضـم. واعتـبرت مفيـدة لتقويـة الذاكـرة وتنشـيطها.

يقـدم لنـا الأغـبري معلومـات هامـة عـن نبتـة إكليـل الجبـل. ويذكـر لهـا أسـماء متعـددة حسـب البلـدان التـي تسـتعملها في المعالجـة الطبيـة. فهـي حـصى البـان، ونـدى البحـر، والروزمـاري، والحـوران، وحشيشـة العـرب، وإكليل النفسـاء، وعشـب البوصلـة، وغيرهـا.

تعتـبر هـذه النبتـة مـن النباتـات المعمّـرة، ويصـل طولهـا إلى المتريـن، ولهـا رائحـة زكيـة مشـابهة لرائحـة الكافـور. وتسـتعمل جميـع أجزائهـا الهوائيـة (الظاهـرة) كأدويـة للعـلاج. وهـي موجـودة بكـثرة في البلـدان العربيـة. ويمكن أن تـزرع في أي مـكان مفتـوح للإفـادة منهـا في العـلاج.

استعملت هـذه النبتـة قديمـاً لحفـظ اللحـوم مـن الفسـاد. وقـد ذكر العشّـاب العـربي إبـن البيطـار أن إكليـل الجبـل يفيـد في اسـتدرار البـول والطمـث، ويحلـل الريـاح ويفتـح سـدد الكبـد والطحـال، وينقّـي الرئـة وينفـع في الخفقـان والربـو والسـعال.

يسـتخدم محلـول النبتـة بعـد نقعهـا لتقويـة الشـعر والقضـاء عـلى القـشرة. ويفيـد في الاسـتخدامات النسـائية لمعالجـة مشـاكل الجهـاز التناسـلي. كـما يفيـد في معالجـة الاضطرابـات العصبيـة الناشـئة عـن الإدمـان مـن خـلال شرب منقـوع النبتـة في أوقـات محـدّدة في اليـوم، ولمـدة محـدّدة.

4 . أنظر للتفصيل حول فوائد الزعتر واستعمالاته، الموقع المذكور سابقاً.

أمـا في مـا يتعلـق بالتعـب، والضعـف العـام، فيُنصـح بتنـاول منقـوع أكليـل الجبـل بعـد الوجبـات وقبـل النـوم. فهـو منشـط لمـن يعانـون مـن سرعـة التعـب والخمـول وضعـف الأعصـاب.

ويعتـبر إكليـل الجبـل مـادة حافظـة للمـواد العضويـة يمنعهـا مـن التعفـن والتلـف. وهـو عـلاج مسـاعد لحـالات الاكتئـاب[5].

البابونج

يعتـبر البابونـج مـن أعـرق النباتـات الموجـودة والمعروفـة منـذ زمـن طويـل. وقلـما يخلـو منهـا بيـت في عصرنـا الحـاضر. تعيـش هـذه النبتـة في أغلـب بلـدان العـالم، وتنمـو حـول المنـازل وفي الحقـول والأوديـة. وتحولـت إلى زراعـة منزليـة للإفـادة منهـا في شـكل مسـتمر. رائحتهـا لطيفـة وطعمهـا عطـري قليـل المـرارة، وتسـتخدم شـعبياً منـذ القـدم لمعالجـة المغـص المعـوي والغـازات. ولـه فائـدة مؤكـدة في تطهـير الجهـاز الهضمـي والتنفّـسي وفاتـح للشـهية ومنشـط للـدورة الدمويـة. كـما يفيـد في الاسـتعمال الخارجـي لمعالجـة الجلـد المتقـرّح.

البابونـج نبـات عشـبي حـولي (سـنوي) يُزهـر بعـد فترة مـن إنباته، ويسـتخدم مـن هـذه النبتـة الأزهـار المتفتحـة فقط.

أظهـر الطـب القديـم فائـدة البابونـج بعـد تجفيـف أزهـاره وحفظهـا، ومـن ثـم اسـتعمالها كمـشروب بعـد غليهـا. فهـي تنفـع، حسـب إبـن البيطـار، في حـالات الإعيـاء والوجـع ويلـيّن الأعضـاء والمفاصـل ويسـهّل عمـل الأمعـاء، ويذهـب بالنفخـة ، ويـدرّ البـول وينفـع في التخفيـف مـن الصـداع.

هـذا مـا قالـه إبـن البيطـار. أمـا داود الانطـاكي فقـال: لا شيء أفضـل منـه في

5 . للتفصيـل حـول نبتـة إكليـل الجبـل وأهميتهـا فـي معالجـة بعـض الأمـراض كمـا عرفـت عنـد العـرب القدامـى، وأهميتهـا فـي الطـب البديـل، أنظـر الرابـط التالـي: http://www.al3laj.com/Herbs/Rosemary.htm

تفتيح السداد وازالة الصداع. يفتّت الحصى، وينقّي الصدر من نمو الربو، ويقلع البثور، ويُذهب التعب.

أهم استخدامات البابونج تتجلى في معالجات المشكلات الهضمية مثل عسر الهضم والحموضة وإلتهاب المعدة والنفخة والمغص. كذلك ينفع في إزالة التوتر ويرخّي العضلات المشدودة، ويفيد في حالات الربو وحمى الكلى. ويساعد على النوم.

هذا كله إذا استعمل كمشروب بعد غليه وتصفيته. إلا أنه يستعمل أيضاً كلبخات على الجلد لمعالجة الحكّة وعلى العين لإراحتها من الإجهاد[6].

ويعتبر البابونج من المصادر الأساسية لصنع الأدوية في الطب الحديث. وقد اعتمد عليه الطب البديل كمشروب في معالجة الكثير من الأمراض الباطنية، وكمراهم لمعالجة تقرحات الجلد وغيرها من المعالجات الخارجية للجسم.

المريمية

تعتبر نبتة المريمية من أشهر النباتات الطبية وأقدمها وأكثرها فائدة. وهي تستخدم حديثاً بكثرة، كما استخدمت في الأزمنة القديمة. وهي موجودة بكثرة في البلدان العربية، وتتشكل منها غابات في الجبال والسفوح المطلّة على الوديان. وهي معروفة بفوائدها لدى عامة الناس، ويقتنونها في منازلهم كما الكثير من أنواع الزهور والنباتات.

تعرف المريمية بأسماء متعددة، حتى ضمن البلد الواحد. فهي المرمية والميرمية والمرامية والقصعين والأوّيسة ولسان الأيل والعيزقان والناعمة والسالمية وغيرها من الأسماء. وهي نبتة عشبية معمّرة ناعمة الملمس

---

6 . للمزيد من التفصيل حول نبتة البابونج وفوائدها واستعمالاتها، أنظر:
http://www.al3laj.com/Herbs/Chamomile.htm

خضراء مع ميل إلى اللون الرمادي. وهي من النباتات العطرية التي تنتمي إلى الفصيلة الشفوية. ويُستعمل منها للأغراض الطبية، الأوراق والرؤوس المزهرة.

تعتبر المريمية من النباتات المهدّئة والمطهّرة للإلتهابات. واستخدمت ولا تزال تستخدم اليوم في علاج الكثير من الأمراض والمشاكل الصحية، منها: مشاكل الجهاز الهضمي، وفقدان الشهية والمغص وزيادة الإفرازات في المعدة، والتخفيف من الحرقة، وارتجاع البخار إلى المريء. وهي فعّالة في إضطرابات الدورة الشهرية لدى الفتيات ولبعض المشكلات المتعلقة بالجهاز التناسلي لدى المرأة. تطهّر الجسم من الماء الزائد وتعالج مشكلة التعرق. تنشّط الدورة الدموية، وتنفع في حالات الرشح والنزلات الصدرية والحساسية. وكذلك في حالات الالتهاب ونزيف اللثة واحتقان الحلق والحنجرة، فتستعمل هنا بالمضمضة أو الغرغرة. وتنفع لإضفاء الارتخاء على الجسم، وخصوصاً قبل النوم، فتساعد بذلك، على التخفيف من الأرق والقلق والإرهاق، وخصوصاً لدى المسنين.. كما يمكن أن تستعمل أوراقها كمادة حافظة.

أما طريقة الاستخدام فهي بنقع الأوراق في الماء المغلي، ومن ثم يصفّى ويشرب في أوقات معلومة حسب الحالة. كما تستعمل النبتة كمادة حافظة[7].

القرّاص

القُرّاص، ويسمى في بلادنا «الحلقيس“ المعروف بشوكه الدقيق الذي ”يحلقس“ أو يلهب المكان الذي يلامسه من جسم الإنسان المكشوف، ويزيد لهبه في حال الحكّ. ولا يخفّ ألمه إلا بعد دهنه بالزيت. والقرّاص

7 . للمزيد من التفصيل حول نبتة المريمية، أنظر الرابط التالي:
http://www.al3laj.com/Herbs/Saga.htm

مـن النباتـات السـنوية التـى تظهـر في الأراضى الزراعيـة، وفي جـوار سـواقي الـري. ونظـراً لـضرره مـن خـلال اللمـس، يعتـبر مـن الأعشـاب غـير المرغـوب فيهـا مـع صعوبـة التخلـص منهـا. وكان يسـتعمل بكـثرة في صناعـة الأصبـاغ النسـيجية، ويسـتخدم داخليـاً وخارجيـاً لعـلاج العديـد مـن العلـل والأمـراض. وقـد ثبـت مـن خـلال التجربـة أنـه فعّـال في تطهـير الجـروح الملوثـة.

للقُـرّاص أسـماء كثـيرة، حسـب تسـمية البلـدان المتعـددة لهـذه النبتـة. فهـي تعـرف بالقرّيـص والحلقيـس والحـرّاق والحريـق والزعطـوف وبنـت النـار وشـعر العجـوز، وغيرهـا مـن الأسـماء. وهـو موجـود بكـثرة في البلـدان العربية، وخصوصـاً في المـشرق، وفي أماكـن كثـيرة مـن العـالم.

القـرّاص نبـات عشـبي مـن الفصيلـة القراصيـة، أزهـاره صغـيرة الحجـم، عـلى شـكل عناقيـد تتـدلّى إلى الأسـفل، تكسـوه والسـاق شـعيرات لاسـعة دقيقـة، وتنفتـح هـذه الشـعيرات عنـد قممهـا المدببـة بمجـرد ملامسـتها لجسـم الإنسـان، وتفـرغ فيـه محتوياتهـا مسـبّبة إحساسـاً بالحـرق وحـك الجلـد. أمـا الجـزء المسـتخدم طبيـاً فهـو كل مـا يتعلـق بهـذه النبتـة، مـما هـو ظاهـر، ومـا يشـكّل الجـذور، بالإضافـة إلى البـذور.

يحتـوي نبـات القـرّاص عـلى مركّبـات طبيعيـة تسـاهم في معالجـة الكثـير مـن الأمـراض الداخليـة والجلديـة. شرابـه مـدرّ للبـول ومانـع للنـزف ومقـوّ للجسـم.

كانـت هـذه النبتـة معتـبرة في المـاضي مـن قبـل العشّـابين. وقـد فصّلـوا القـول في فوائدهـا وقدراتهـا العلاجيـة. ومـن أصنـاف المعالجـات الطريفـة بتوسـل هـذه النبتـة، ضرب الموجـوع مـن داء المفاصـل بـه مـا يـؤدي إلى هرش جسـمه وحكّـه بشـدة مـع التلـوّي والتمايـل السريـع الـذي يوصـل إلى التخفيـف مـن ألم الإلتهـاب. كـما اسـتعمل القـراص لتنشـيط الشرايـين والعضـلات المتأثـرة مـن داء عـرق النسـا، وكذلـك لإعـادة النشـاط إلى الشـفاه المشـلولة.

أمـا داخليـاً، فقـد اسـتعمل القـرّاص لعـلاج نفـث الـدم مـن الرئـة وأنـواع النزيـف الأخـرى، ولا يـزال يسـتعمل إلى اليـوم. وقـد أطنـب في وصـف فوائـده الكثـير مـن الأطبـاء العـرب. فهـو، عـلى مـا يقولـون، يفيـد في تضميـد الجـراح مـن أوراقـه ويفقـأ الخرّاجـات والأورام، ويقـوّي بـزره الشـهوة الجنسـية. ويزيـل الربـو. وإذا اختلـط بمـاء الشـعير ينقّـي الصـدر. ويقطـع الرعـاف (نزيـف الأنـف) إذا استُنشـق. وإذا دُقّ وخُلـط بالعسـل وأُكل نَفـع مـن عـسر التنفـس ووسّـع الصـدر وفتـح الرئـة. كـما ذكـر بعضهـم أن بـزره يفتـت الحصى في المثانـة. وفي حـال خلطـه مـع العـرق سـوس نفـع في التخفيـف مـن وجـع المثانـة وحرقتهـا. وقـد صـار للقـرّاص مقـدار كبـير مـن الاهتـمام مـن قبـل مختـبرات البحـوث الطبيـة الحديثـة، وأبحـاث الطـب البديـل[8].

أمـا اسـتعمالاته المعلومـة، فتتجـلّى في أكلِـه وهـو طـازج كـما نبتـة السـبانخ. ويُصنـع منـه حسـاء مفيـد. كـما أنـه يُنقـع ويُـشرب نقيعُه كـما الشـاي. ويوجد منـه مسـتحضرات جاهـزة مـن القـراص المجفـف تبـاع في الأسـواق الشـعبية. كذلـك يسـتخدم كـشراب في تهدئـة الأعصـاب وتسـكين الآلام وفي معالجـة فقـر الـدم مـن خـلال تناولـه وهـو طـازج، أو شربـه طازجـاً بعـد عـصره.

وفي حـال معالجـة مناطـق الألم في الجسـم، يمكـن تحويـل كل أجـزاء النبتـة إلى ضـمادات يمكـن ان توضـع وتربـط عـلى مـكان الألم، فيخـفّ رويـداً رويـداً ثـم يختفـي. كـما أن نقيـع القـراص يخفّـف مـن كميـة السـكر الموجـودة في الـدم. وفي حـال تضميـد الجـروح والالتهابـات الجلديـة بـه يخـف الالتهـاب والـورم ومـن ثـم يـزولان.

8 . للمزيد من التفصيل حول نبتة القراص وخصائصها وفوائدها الطبية قديماً وحديثاً، أنظر:

http://www.al3laj.com/Herbs/Nettle.htm

الطب الشعبي الجراحي والعملي

لم يقتصر الطب الشعبي العربي على معالجة الأمراض التي تصيب الجسم وأعضاءه باستعمال الأدوية العشبية والعضوية المصنّعة، حسب ما تقتضيه المعرفة الطبية المبنيّة على الخبرة والتجربة، وعلى التفاعل مع ثقافات الآخرين الطبية، بل تجاوزت ذلك إلى إجراء العمليات الجراحية الخارجية، وتجبير الكسور، والقيام بأعمال الحجامة والكيّ والفصد، وغيرها من العمليات التي كانت معروفة بأشكالها البسيطة في ذلك الزمان.

إلا أن الطب الرسمي تجاوز ما هو شعبي إلى ما هو أدقّ وأصعب. ذلك أنه استعمل أدوات من المباضع والمشارط والمخارز المبتكرة التي لا تختلف في وظائفها عما هو موجود في الطب الحديث، للقيام بعمليات جراحية داخلية، لا تختلف إلا في دقّتها وجودتها وكثرتها عن تلك التي ابتكرها الطب الجراحي في العصر الحاضر.

لقد ذاع صيت الزهراوي في هذا المجال، باعتباره رائداً في الطب العقلاني الجراحي، وخصوصاً من خلال موسوعته الكبرى «التصريف لمن عجز عن التأليف»، وفيه المقالة الثلاثون التي تبحث في الطب، وهي: «كتاب الزهراوي في الطب لعمل الجراحين»[9]، وفيه رسوم وصور الآلات الجراحية والطبّية المبتكرة والمستعملة في عملياته ، وقد زادت عن المئتي شكل منها. هذا بالإضافة إلى البحث في كيفية العلاج بالكيّ، وفي الجراحة العامة ووصف عملياتها، وفي علاج كسر العظام وخلعها. كما ثمة صور لبعض هذه الآلات في الكتب التراثية الطبية العربية[10].

إلا أن ما يهمّ في هذا المجال، إظهار المنجزات الشعبية في الطب العربي،

9 . أبو القاسم الزهراوي الأندلسي، كتاب الزهراوي في الطب لعمل الجراحين، تحقيق محمد ياسر بكور، وزارة الثقافة السورية، 2009، دمشق، 816ص.

10 . خليل الجر وآخرون، تاريخ العلوم عند العرب، مؤسسة الكتاب المدرسي، 1979، طرابلس، لبنان، ص84.

مـدار بحثنـا، علـماً أن ثمّـة الكثـير مـن الانجـازات الطبّيـة العربيـة عـلى الصعيد الرسـمي أفـادت العـالم أجمـع في القـرون الوسـطى. وليـس هنـا مجـال البحـث فيها .

التجبير

عالـج العـرب منـذ الطـور البـدوي الكسـور التـي تصيـب مواشـيهم، باعتبارهـم أهـل رعـي وتنقّـل، متدربـين عـلى تجبـير كسـور الحيوانـات، وإعادتهـا إلى طبيعتهـا. واسـتعملوا التقنيـة نفسـها في تجبـير كسـور جسـم الإنسـان، وخصوصـاً مـا يصيـب اليديـن والرجلـين. وكانـت المهمـة الأساسـية للمجـبّر الـذي اكتسـب خبرتـه بالممارسـة، أن يعيـد العظـم إلى سـابق عهـده بلصقـه، أو بإعـادة العظـم إلى مكانـه في حـال خروجـه مـن مكانـه، في مـا يسـمى بالخلـع. والأهـم في هـذه العمليـة لصـق العظـم المكسـور وإعادتـه كـما كان بالضبـط قبـل الكسر، أو الخلـع، ومـن ثـم تثبيتـه لمنـع الحركـة عنـه، تجنباً للإنفصـال أو الفـكاك. وعـادة مـا يتـمّ ذلـك بوضـع لصقـة يتـم تحضيرهـا مـن الصابـون الناعـم أو الطحـين المخفـوق مـع زلال البيـض، تُشـدّ عـلى مـكان الكـسر، ومـن ثـم توضـع خشـبتان مـن كل جانـب وشـدهما بمـا يؤمّـن ثبـات العظـم، ومنـع حركتـه، حتـى يلتئـم الكـسر ويَجـبُر العظـم.

إلا أن هـذه العمليـة لا تجـري عـلى هـذا الشـكل إلا بعـد القيـام بسلسـلة مـن الإجـراءات يعرفهـا المجـبّر جيـداً، تحضـيراً للعمليـة التـي عـادة مـا تكـون مؤلمـة، دون وجـود الوسـائل المخفّفـة لـلألم، وإن انوجـد ذلـك بعـد تقـدّم الطـب، والدخـول في ميـدان العمليـات الجراحيـة الداخليـة والمعقّـدة، مـا اسـتوجب إيجـاد الأعشـاب والمـواد المخـدّرة للتخفيـف مـن آلام المريـض. ولكـن هنـا، كان عـلى المجـبّر أن يحضّر المريـض جسـدياً ونفسـياً لتقبّـل العلاج. فيبـدأ أولاً بالتخفيـف عنـه بالتأكيـد عـلى سـهولة معالجتـه، وأن عليـه أن لا يخـاف لرجولتـه وشـجاعته، ثـم يبـدأ بتسـميد مـكان الكـسر بالمـاء السـاخن والصابـون مـع الـكلام المهـدّئ. كـما يمكـن أن يلـيّن العظـم ببخـار نبتـة الطيون

المعروفة. وبعد ذلك يبدأ المجبّر بإعادة العظم المكسور ليتّصل مع مثيله في مكان الكسر ليحسّ أنهما صارا عظماً واحداً. هنا يمكن أن يكون أقصى الوجع. وبعد عملية الالتحام، كما قدّرها المجبّر يمكن الربط بإحكام باللزقة المذكورة آنفاً، ومن ثم شدّها لمنع الحركة. ليس هذا فحسب، بل على المريض أن لا يحرّك العضو المكسور لفترة زمنية يقدّرها المجبّر. لذلك تربط يده إلى عنقه، إذا كانت هي المكسورة، أو يُمنع من المشي إذا كانت قدمه. وعادة ما يعود الكسر إلى الالتحام بعد مرور شهر.

اشتهر الكثيرون من المجبّرين في العالم العربي. وكان هؤلاء من سكان الأرياف ومربّي المواشي لتجاربهم المستمرة في معالجة كسور المواشي المعرّضة أكثر من غيرها لهذه الحوادث، كون الماعز أو الغنم الأكثر حساسية وتعرضاً، وكذلك الإنسان في الريف والمناطق التي تتطلب الجهد والحركة والتسلّق. وفي أحيان كثيرة يقوم هؤلاء بإجراء عمليات تجبير يعجز الطب الحديث عن إجرائها[11].

في هذا الإطار، ينقل لنا موقع «إبن فلسطين» عملية تجبير عربية لا يخطر في بال الطبيب الحديث القيام بها خارج غرفة العمليات، وبمعزل عن التقنيات الطبية الحديثة. ذلك أن أحدهم تعرض لحادث، فخرج عظم الفخد من مكانه مورّثاً ألماً فظيعاً. وعلى المجبر أن يعيد العظم إلى مكانه. فقام بما هو مبتكر ومفاجئ للحاضرين. طلب من أهل المصاب أن يأتوه بحمار، وأشار عليهم أن يربطوه في مكان محدد دون طعام ودون ماء لمدة ثلاثة أيام، فنفّذوا ما طلب، وفي اليوم الثالث طلب منهم إحضاره، وسط ألم المصاب وصراخه. فأشار عليهم المجبّر أن يطعموه الشعير حتى يشبع. وبعد ذلك وضعوا له الماء ليشرب، في الوقت الذي

11 . أنظر للتفصيل حول الطب الشعبي وإنجازاته في فلسطين والمشرق العربي، الموقع التالي:

http://ibnpalestine.ahlamontada.com/t195-topic

أركبوا المصاب على ظهر الحمار. وصار يكبر وينتفخ بطن الحمار من شرب الماء، وفي الوقت نفسه، بدأ عظم المصاب يعود تدريجياً إلى مكانه الطبيعي بعد ربط رجليه بإحكام تحت بطن الحمار. وهكذا بدأ الفخذ يعود إلى مكانه مع الألم والصراخ. ومن ثم سمع جميع الحاضرين صوت دخول العظم في تجويف الحوض، وسط ذهولهم. بعد ذلك، أمر بإنزاله برويّة وتمهل ليتمدد على الأرض، ليلصق اللزقة المحضّرة مسبقاً على فخذه مع الخشبتين المتقابلتين. وبعد ثلاثة أيام كان الفخذ في مكانه الصحيح، بانتظار بعض الأيام، ليعاود سيره الطبيعي[12]. وقد شاهدت بنفسي أكثر من عملية تجبير في قريتي، كانت إحداها لرفيقي في المدرسة تعرّض لوقعة أخرجت الساعد من كوع يده. عالجه قريبي المجبّر بإعادة الساعد إلى مكانه، بضربة واحدة مفاجئة بعد أن شغله بحكاية مضحكة، وهو يمسّد يده بالماء الساخن. ما أخافني أكثر في هذا المشهد هو غياب رفيقي عن الوعي من شدة الألم. إلا أنه استفاق بعد فترة وجيزة، وكان ساعده في مكانه من الكوع[13].

ويروي لنا أحدهم قصة عن براعة المجبّر العربي فيقول: «أصيب أحد أقاربي بكسر متفتّت في عظم الكوع، وقرّر الأطباء بتر الذراع من أعلى الكتف كي لا تصاب الذراع بالغرغرينا. ولكن والد المكسور قرّر تهريبه من المشفى، ونقله إلى البطيحة في الجولان السوري المحتل، إلى مضارب بيت النادر، وذهبت مع من ذهب ورأيت كيف أجرى المجبّر حسن النادر عملية الكشف، فاستمع أولاً إلى القصة السريرية، كما يسميها الأطباء الآن، ثم قام بمعاينة الذراع المكسورة، مطَمئناً المريض إلى أن كل شي سيكون على ما يرام، وفي هذا الوقت قام أولاده بجلب نبات الطيّون من منطقة قريبة، في الوقت الذي أوقدت قرينته النار تحت قِدر كبيرة، وحين تصاعد البخار مرّر الذراع فوق البخار الساخن جداً لفترة معينة،

12 . المصدر نفسه.

13 . المصدر نفسه.

وبعدها عالج الكسر ووضع عليه اللزقة وألواح الخشب. وشفيت الذراع، ونجت من البتر[14].

التخريم

يعني التخريم في الطب الشعبي العربي الوخز بالإبر، ولكن على غير منهجية الطب الصيني. ذلك أن هذه المعالجات تنشأ عن الإحساس بارتخاء عام في الجسم، وتعب يعيق حركته، مع الإحساس بألم عام يجتاحه. فكان أن تم تشخيص هذا المرض على أنه نوع من إعاقة مسيرة الدورة الدموية، بسبب وجود فضلات سامة في أنحاء الجسم، ناشئة عن الرطوبة الزائدة. وما على المعالج إلا أن يهتم بمناطق المعالجة بعد تحديد أماكنها. من أجل ذلك، يقوم بدهن جسم المريض بالزيت وتعريضه للشمس وقت الضحى، أي قبل أن تشتدّ حرارتها. فتظهر بعد ذلك نقاط سوداء كالنمش، في أماكن محددة من الجسم. وتتم المعالجة بدهن هذه النقاط بالثوم والملح ثم يبدأ المعالج بوخز هذه النقاط بالإبر، فتخرج منها مادة صفراء تكون سبب البلاء. وبخروجها يشفى المريض من الخرام دون أن يشعر بالألم الكثير. وغالباً ما يقوم بالعلاج رجل أو إمرأة ورثت هذه المعالجة عن الأهل والأجداد.

إلتهاب اللوزتين

تنتمي معالجة إلتهاب اللوزيتين إلى العمليات البسيطة التي تنشأ وتتطور بالممارسة والتجربة. وقد خضعت أنا وغيري إلى هذه العملية لإعادة اللوزتين إلى وضعهما الطبيعي على جانبي الحلق وتخليصهما من الإلتهاب بالملح المذاب في المياة الفاترة والمضمضة. وما كان على المعالج، وهو هنا والدي، الخبير في الطب الشعبي، إلا تمسيد اللوزتين (بنات الدينين أي الأذنين) بالزيت الفاتر ورفعهما. وفي حال تقيّحهما، يضغط عليهما لإخراج

14 . المصدر نفسه.

الدم الفاسد (القيح) منهما، ومن ثم تبدأ المضمضة بالملح لتطهير الجرح.

اليرقان

معروف باللغة الشعبية العاميّة بالريقان. يظهر المصاب به وهو هزيل الجسم، والإصفرار يضربه بكامله. والريقان يعالج من مكانين في الجسم، مفترق الشعر في الرأس في منتصفه الأعلى، أو تحت اللسان. وفي الحالتين تجرح فروة الرأس أو يقطع شريان دقيق تحت اللسان، ويوضع على أي من الجرحين قطعة من الثوم بعد هرسها، وتوضع لزقة على الرأس، أو يضغط المصاب بلسانه على قطعة الثوم لفترة زمنية معينة. بهذه الطريقة يشفى المصاب من اليرقان ويعود لون جسمه ووزنه إلى طبيعتهما.

وقد حصل لي أن رأيت عملية من هذا النوع لمصاب قطع أمله من الشفاء، بعد أن زار أهم المستشفيات في طرابلس وبيروت. وقد أصبح أقرب إلى الهيكل العظمي المتحرك. جاء إلى والدي، وكان مشهوراً في معالجة اليرقان، وطلب منه أن يعالجه ولو ذهب به الأمر إلى الموت. فضحك والدي وقال له لا لن تموت. تركه ودخل إلى المطبخ ليحمّي سكيناً مروّسة كانت رفيقته الدائمة. وطلب مني، وكنت لا أزال في الثانية عشرة من عمري، أن أحضر «سنّاً» من الثوم مهروساً في وعاء. أحضرت المطلوب، وإذا بي أراه ينتهي من قص الشريان من تحت اللسان، وكان قد أحضر معه وعاء كان سابقاً عبوة من السمن الأجنبي. طلب من المصاب أن يدلّي رأسه فوق الوعاء ويفتح فمه ويرفع لسانه.

بدأ الدم يسيل كالخيط الرفيع ولكن بلونه الأسود. وبقي على هذه الحالة دقائق معدودة، حتى بدأ الخيط بالانقطاع والتحول إلى نقاط متلاحقة، إلى أن نفدت. عند ذلك طلب والدي منه أن يرفع رأسه ولسانه ليضع قطع التوم تحته، وأشار أن يضغط عليها ويطبق فمه. كانت هذه

هـي العمليـة، وبعـد نصـف سـاعة غادرنـا المصـاب.

إلا أن المهـم في الأمـر هـو أن هـذا المصـاب، وهـو مـن بلـدة بحنـين قـرب المنيـة في شـمالي لبنـان، جـاء لزيارتنـا بعـد ثلاثـة أشـهر مـن العمليـة في سـيارة محمّلـة بشـتى أنـواع الفواكـه والخضـار. توقفـت بمحـاذاة البيـت وأفـرغ كل مـا فيهـا قـرب الـدرج الموصـل إلى الفنـاء الداخـلي، قبـل أن يبادرنـا السـلام. لم نتعـرّف عليـه في البدايـة. وعندمـا مـدّ يـده للسـلام عـلى والـدي انحنـى ليقبّـل يـده، فسحبها والـدي سريعـاً، وهـو يقـول: أسـتغفر اللـه. مـا بـك يـا عـم؟ وكان هـو بعمـر والـدي تقريبـاً. بعـد أن عرّفـه عـن نفسـه، تذكّـر والـدي العمليـة، ولم يعرفـه لأن جسـمه عـاد إلى حجمـه الطبيعـي، وبلونـه العـادي الـذي لا يـدل عـلى أي مـرض. هـذه الواقعـة أذكرهـا كشـاهد عيـان، وكأنهـا حصلـت البارحـة[15].

الإلتهابات الخارجية والجروح

للإلتهابـات والجـروح شـأن هـام في الطـب الشـعبي، لأنهـا الأكـثر وقوعـاً وانتشـاراً باعتبارهـا ناشـئة عـن عـدم مراعـاة شـؤون النظافـة، أو التعـرض لحـادث وقـوع، أو غـير ذلـك مـن الـذي يـؤدي إلى جـروح في الجسـم، أو كسـور في اليـد أو الرِجـل.

ولأن كلامنـاً جـاء وافيـاً عـن عمليـات التجبـير، فـإن الـكلام هنـا سـيقتصر عـلى الجـروح التـي تنشـأ وتـؤدي إلى الإلتهـاب والتقيّـح. ومـا عـلى المعالـج إلا أن ينظـف الجـرح، ويطهـره بالكحـول أو الملـح المـذاب، ومـن ثـم يضـع عليـه مرهـماً مسـتخرجاً مـن الأعشـاب الطبّيـة، ويربطـه جيـداً إلى أن يختـم. أمـا

15 . كان والدي جميل محرز عطيه، حلاقاً وخبيراً في خلع الأسنان، وإجراء العمليات الجراحية البسيطة ومعالجة اليرقان بالقص، والفالج من خلال الكي. وكان مقصوداً من مختلف المناطق في الضنية والمنية. وكانت عملياته تنجح، وفي حال الصعوبة كان يوصي بأخذ المصاب إلى إحدى المستشفيات في طرابلس. وكان يقدم كل خدماته بالمجان، بالإضافة إلى ما يلزم من حاجات العمليات التي يجريها.

الأورام التـي تصـل إلى مرحلـة الانتفـاخ والتقيّـح، فلهـا معالجـة تقـوم عـلى الشـق واسـتخراج الـدم الفاسـد المتقيّـح وعـلى التطهـير والربـط.

في هــذه الحالــة لا أزال أذكــر عمليتــين قــام بهــما والــدي بحضــوري. الأولى، لإمـرأة مـن قريـة مسـلمة مجـاورة تشـكو مـن إلتهـاب في ثديهـا، وهـي أم مرضعـة، وقـد تعرّضـت للإلتهـاب لسـوء النظافـة ولكـثرة الجراثيـم. وعـلى والـدي أن يعالجهـا. قـال زوجهـا لوالـدي وهـو مـن أصدقائـه المقرّبـين: هـذه المـرأة أختـك يـا بـو محـرز، وعليـك أن تشـفيها. تحـرّج والـدي في البدايـة، ومن ثـم قـال: اللـه الحكيـم. وجـاء بالسـكين نفسـها وطهّرهـا بالنـار والكحـول، بعد أن حـدد مركـز الالتهـاب وشـقّه بسرعـة، وطلـب مـن المـرأة أن تضغـط عـلى الثـدي لإخـراج القيـح منـه، إلا أنهـا غابـت للحظـات عـن الوعـي، فطلـب مـن زوجهـا أن يفعـل ذلـك، فأجابـه: أنـت الحكيـم. ومـارس والـدي عملـه حتـى لم يبـق في الجـرح مـا يسـيل. وضـع عـلى الجـرح ضـمادة مغطّـاة بمرهـم أسـود مصنـوع بيديـه وضمّـد الجـرح، وانتهـى.

أمـا العمليـة الثانيـة فكانـت لأحـد أبنـاء بلـدتي في الثمانينيـات مـن القـرن المـاضي، وكنـت شـاهداً عليهـا أيضـاً. وقـد أصابنـي الرعـب مـن المشـهد.

جاءنـا المصـاب وهـو مبعـد يـده اليـسري عـن جسـمه، وبـادر والـدي بالقـول: «دخيلـك يـا بـو محـرز، مـا شـفت النـوم مـن 3 أيـام». ودلّـه عـلى موضـع الألم تحـت إبطـه الأيـسر، وكان مغطـى بالشـعر. أزال والـدي الشـعر أولاً، وكان المصـاب يـصرخ عنـد ملامسـة مـوسى الحلاقـة لجسـمه. أدرك المعالج بالملامسـة أن الـورم وصـل إلى نهايتـه، ولا بـد مـن فتحـه. حـضّر السـكين التـي مـا زالـت بحوزتـه، وقـام بالـلازم مـن التحضـير والتطهـير، وهـو يضحـك ليسـهّل عـلى المصـاب الأمـر. ومـن ثـم، وبسرعـة، شـقّ الجلـد تحـت إبطـه، وبلحظـة خـرج الـدم المائـل إلى البيـاض كالشـلال في منظـر رهيـب أرعبنـي. ومـن ثـم بـدأ والـدي يضغـط ويعـصر الجـرح حتـى جـف. بعـد ذلـك مسـحه بقطعـة مـن القطـن، ومـن ثـم الشـاش مـع المرهـم. وأجلسـه عـلى الكـرسي ليغسـل يديـه.

وعند عودته وجده يغط في نوم عميق افتقده لأيام ثلاثة.

إلا أن العملية التي تشي بفطنة والدي وذكائه في المعالجة الطارئة، حصلت عندما جاء إليه والد مع ولده وهو يستغيث. علم والدي أن شوكة من القندول انغرزت في عين الصبي وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره. وشوكة القندول ثخينة وقاسية. نظر والدي في عين الصبي وشاهد الشوكة المغروزة إلى آخرها. فما كان منه إلا أن وقف وراءه مباشرة، وغمره بيديه بقوة وسرعة مع قوله: يا ألله. في هذه اللحظة جحظت عينا الصبي بقوة، ما أدىّ إلى خروج الشوكة من العين. لم أشهد هذه العملية، إلا أن من رواها لي بعد وفاة والدي، هو مختار بلدة الروضة وشيخها، وكان حاضراً وشاهد ما حصل[16].

الحجامة

مما لا شك فيه أن الحجامة من أهم المعالجات في الطب الشعبي والرسمي العربيين. ذلك أنها من الأصناف العلاجية التي ظهرت منذ ما قبل الاسلام. وأعطاها العرب منذ أزمنة مغرقة في القدم الأهمية اللازمة لمعالجة الآلام في الجسم، الناشئة عن التعب والإرهاق وتمدّد أو تقلّص العضلات، أو أوعية الدم في مناطق مختلفة من الجسم، وخصوصاً الظهر والعنق والرقبة والرأس. وهذا ما حدا بالنبي محمد على الأخذ بها واعتمادها، والتوصية بإجرائها لكل من يحسّ ألماً أو تعباً في أنحاء جسمه. وقد استعمل الرسول الحجامة في مرّات متعددة، وهو ما ذكره إبن القيم في الطب النبوي، بعد أن أفرد لها، كعلاج، صفحات متعددة من كتابه[17].

16 . الشاهد هو مصطفى أحمد سيف، شيخ عشيرة آل سيف من بلدة الروضة، وهو شيخ صلح معروف.

17 . إبن القيم، الطب النبوي، مذكور سابقاً، ص ص40- 48.

عـلى أي حـال، مـا زالـت الحجامـة مسـتعملة إلى أيامنـا هـذه، ودخلـت في منجـزات الطـب البديـل، واعتمـدت في الغـرب، وتـدرّس تقنياتهـا في الجامعـات الأميركيـة، عـلى مـا يقـول موقـع مركـز المالـكي للمعلومـات الطبيـة[18].

أمـا الحجامـة، تعريفـاً، فهـي مـا يقـوم بـه الحجّـام في معالجـة الجسـم العليـل. هـي حرفـة وعمـل طبـي رسـمي وشـعبي. أمـا شـعبيته فمتأتّيـة مـن كونهـا سـهلة التعلـم، وبسـيطة التقنيّـة. والحجامـة هـي امتصـاص الـدم مـن العضـو المريـض بإخراجـه عـن طريـق المـصّ، أو المِحجَـم (المـشرط) الـذي بوسـاطته يسـتخرج الحَجّـام الـدم مـن مـكان محـدّد في جسـم المصـاب. ومـن الحديـث، أن الحجامـة هـي "لعقـة عسـل أو شَرطَـة مِحجَـم"[19].

لم تكـن الحجامـة إنجـازاً عربيـاً صرفـاً. فهـي تقنيّـة معروفـة لـدى حضـارات قديمـة كانـت عـلى تواصـل مبـاشر مـع عـرب الجزيـرة، منهـا حضـارة مـا بـين النهريـن والمـشرق العـربي في شـكل عـام، والحضـارة الفرعونيـة. كـما عرفتهـا الحضـارات الصينيـة والهنديـة. وكانـت تقنيتهـا غايـة في البسـاطة تقـوم عـلى امتصـاص الـدم الـذي اعتورتـه علّـة بوسـاطة قرن ثـور أو غـيره مـن الحيوانات، يوضـع عـلى المـكان المجـروح لامتصـاص الـدم المـراق بعـد إفراغـه مـن الهـواء، عـن طريـق الضغـط بالمـص. وبعـد إفـراغ الهـواء مـن الكـوب بوسـاطة قطعـة مـن القطـن أو القـماش يتجمّـع الـدم عـلى محيـط الكـوب ويتـورّم الجلـد، ومـن ثـم يُـشرط ليخـرج الـدم الحامـل للـداء.

---

18 . أنظر للتفصيل اللقاء الصحافي مع الدكتور أمير محمد صالح، الأستاذ الزائر في جامعة شيكاغو، وعضو الجمعية الأميركية للطب البديل في مجلة "حياة الناس"، العدد 218، 2001. يقول: "لم نلتفت إلى الطب النبوي إلا عندما دخلنا إلى الجامعات الأميركية.. فمن يصدق أن العلاج بالحجامة يتم تدريسه في مناهج الطب في أمريكا؟ ومن يصدق أيضاً أن هذا الأسلوب النبوي الذي هاجمه وأنكره أطباء عرب أصبح علاجاً نافعاً للعديد من الآلام الخطيرة في معظم عواصم العالم"؟
http://www.medical-centeronline.net/index.php

19 . للتفصيل حول الحجامة وأصل تسميتها ووظيفتها، أنظر:
إبن منظور، لسان العرب، مادة حجم، دار المعارف بمصر، 1981، القاهرة، ص790.

ليس هذا فحسب، بل توسّع العرب في إظهار أهمية الحجامة للكثير من الأمراض بعد تعيين مواضعها في الجسم، ومن ثم حدّدوا الأيام التي تقضي بإقامة عملية الحجامة في الشهر؛ وهي عادة بعد منتصفه، وقبل بداية ربعه الأخير، وهو الوقت الملائم الذي يجمع حال الجسم مع المناخ، وأفضل الأيام، على ما ورثه العرب، السابع عشر والتاسع عشر والواحد والعشرين من كل شهر. وكذلك فضلوا، بناء على توصية من النبي أن يكون الاحتجام في أيام معينة في الأسبوع، وهي الإثنين والثلاثاء والخميس. ونهاهم عن الاحتجام بقية أيام الأسبوع، إلا عن ضرورة. أما أماكن الحجامة، فهي متنوعة وتطول كافة أعضاء الجسم. ويحدّد المكان بناء على تحديد المحتجم بالتشاور والمساعدة من المعالج باعتبارها مسألة طبّية في الأساس.

أما الدم المراق، بفعل الحجامة، فعليه أن يختفي عن عين أي إنسان أو حيوان. وهذه مسألة لها علاقة بالسحر لقربه من الطب الشعبي، ولتوسّله في المعالجة، منذ بدايات الطب الشعبي العربي، ولا يزال سارياً إلى اليوم.

والحجامة أربعة أنواع، الفصد، الحجامة الجافة، الحجامة الرطبة، والحجامة بدودة العلقة. والأنواع تعمل في طرق مغايرة على إخراج الدم الفاسد من الجسم، إما عن طريق الفصد، أي بجرح الجسم بطريقة معينة للوصول إلى العِرق لإخراج الدم الفاسد؛ أو باستعمال المحاجم (كاسات الهوا) في طريقتين متشابهتين لتليين العضل مكان التحجيم بتحميته، وهي الحجامة الجافة، أو بتشطيب المكان لإخراج الدم، ومن ثم سحبه مرّات متتالية في الجلسة الواحدة؛ أو باستعمال العلق وهي نوع من الديدان توضع على مكان الألم وتُترك بعد تجويعها فتمتص الدم من الجلد، وتتكرّر العملية حتى يتم الشفاء[20].

20 . للمزيد من التفاصيل حول الحجامة وأهميتها، وطرق المعالجة، أنظر موقع

الكيّ

كان الكي وما زال من التقنيات المتّبعة في الطب الشعبي العربي، علماً أن النبي صرّح بكرهه لهذه التقنية باعتبار أنها تؤلم، بالإضافة إلى أن الناس يعظّمون أمرها في حسمها للداء، فنهاهم عن استعمالها لهذا الوجه، لأن الله هو الشافي، وأباحها في حال النفع منها لا باعتبارها علّة للشفاء، وإن كان الشفاء بوساطتها. لأن السبب المباشر هنا للشفاء كان بموجب إرادة الله، العلة الأولى لكل ما هو موجود، ومنه الداء والدواء[21].

إلا أنها بقيت موجودة بكثرة من ضمن التقنيّات المستعملة في الطب الرسمي والشعبي على حد سواء، ولا تزال مستعملة إلى أيامنا هذه. والكي، أو الوسم، هو إحراق الجلد في موقع محدّد، حسب الحالة، بآلة حديدية صنعت خصيصاً للقيام بهذه الوظيفة. وقد جرى الكي مجرى المثل عند العرب: «آخر الدواء الكي». وإذا قيل اكتوى الرجل، فهذا يعني أن الكيّ استُعمِل لمداواته. والكوّاء هو من يقوم بفعل الكي[22].

أما اللذع فهو ما يتأتى عن مس النار للحظة. فيحسّ المكتوي أن حرقة لذعته. وفي حديث عن الرسول أنه قال في رواية للبخاري: «إن كان في شيء من أدويتكم، أو يكون في شيء من أدويتكم خير، ففي شَرْطة مِحجَم أو شربة عسل أو لذعةٍ بنار توافق الداء، وما أحِبُّ أن أكتوي». وثمة أخبار كثيرة عن تكرار استعمال تقنيّة الكي من قبل الصحابة ورجال الإسلام الأولين[23].

وتقنيّة الكيّ تقوم على تحمية حديدة مخصوصة حسب الموضع، وهي المكواة، حتى تصير حمراء بلون الجمر، وتوضع على الموقع المصاب من

الطب الشعبي: http://cupping.khayma.com/cupping1.htm

21 . إبن منظور، لسان العرب، مادة كوى، مذكور سابقاً، ص3964.

22 . المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

23 . أنظر في هذا الخصوص للتفصيل:
http://cupping.khayma.com/moxa/MOXA.htm

جسم المريض. وثمة أنواع كثيرة منها، فصّل القول فيها وعدّد أنواعها الزهراوي في كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف». إلا أن الطريقة الشعبية عادة ما تستخدم مكواة واحدة في جميع الحالات، وهي عبارة عن سيخ من الحديد يحمّى بالنار ويوضع على المكان للكيّ. وربما كان ثمة أكثر من نوع واحد، حسب مقدرة الكوّاء وخبرته وسعة إطلاعه.

أما طرق الكيّ، أو الوسم، فهي متعدّدة، منها الخبط، أي وضع سيخ الوسم على المكان المقصود طولياً. ومنها وضع السيخ في شكل طولي وعرضي على شكل صليب. ومنها ما يسمّى بالترقيش، ويكون بمثابة الكيّ الخفيف الذي يلامس الجلد بسرعة خاطفة بوساطة عود ملتهب الرأس (سيجارة أو نحوها) يلذع به لذعات خفيفة مكان المرض، وهو اللذع الذي أتينا على ذكره سابقاً. ويمكن أن تستعمل هذه التقنيّة في لذع الأصابع والأظافر. ومنها تحمية الرمل ومن ثم غمره للجسم أو لجزء منه، على أن يكون محتمل الحرارة. ويبقى ما هو مغمور حتى يبرد الرمل. في ذلك تليين للجسم وتخفيف لآلام المرض والشفاء منه.

وفي كل الحالات، لا بد من تحديد مواقع الكيّ ومعرفة الغاية منه. وذلك يعود إلى خبرة المعالج وتجربته في هذا الميدان. والقيام بهذا الأمر بالاستناد إلى الخبرة والتجربة، يخفّف من مقادير الكي ومواقعه، من أجل الوصول إلى أفضل النتائج[24].

والكيّ في كل الحالات أصعب من بقية التقنيات المستعملة في الطب الشعبي. ذلك أنه بحاجة إلى المعرفة التامة بأعضاء الجسم، والمواقع التي يمكن ان تتقبّل الكيّ من أجل الوصول إلى النتيجة المأمولة، دون الإضرار بالجسم، ودون الدخول في مداواة المكان الذي تعرّض للكي، أو الإضرار بالجسم كله إذا لم يكن العمل متقناً وناشئاً عن معرفة وافية بكيفية إجرائه، وما يمكن أن ينشأ عنه من تداعيات. وثمة طرق معالجة لمختلف هذه التداعيات في حول وقوعها.

24 . أنظر للتفصيل الموقع نفسه.

الفصل الرابع
الأمثال الشعبية العربية

يقتضي البحث في الأمثال الشعبية، النظر أولاً بأول في معنى كلمة المثل، واشتقاقها اللغوي، قبل تحديد ما نعنيه بالمثل في بحثنا هذا. ذلك أن الجذر يفيد معاني كثيرة، منها ما يدخل ضمن اهتماماتنا في وضع الأمثال الشعبية في مجال الثقافة الشعبية، ومنها ما يبتعد عن هذا القصد. وفي مستهلّ بحثنا في هذا الأمر، لا بدّ من القول إن أي واحد منا، قلّ علمُه أو كثُر، يدرك بالبداهة ما يعنيه المثل، حتى دون أن يكلّف نفسه جهد التعريف، أو إظهار الفهم إلى الغير. ذلك أن المرء، وفي أي عمر كان، ذكراً أو أنثى، يسمع يومياً ما يُطرح أمامه من أمثال، إن كان لتثبيت رأي، أو تشبيه ما يلحظه أمامه، بما مرّ سابقاً، من خلال سرد جملة ما ترمي الشبه على ما حصل، بما حصل في أيام سالفة. وفي هذه المناسبة، ليس من المهم معرفة التفصيل أو الظرف الذي أدّى إلى توليد خلاصته بما صار مثلاً سائراً، أو معرفة قائله. وغالباً ما يأتي المثل مرسِّخاً لرأي آني ظهر فجأة في موقف محدّد. فإذا حصلت مشادّة بين الأب وإبنه المراهق تنبري الأم لتقول لزوجها: «إذا كبر إبنك خاويه». وإذا تجادل معه حول أمر معيّن، وبالغ الإبن في عناده، يقول الأب: «بقلّك تيس بتقول حلبو». وهكذا يظهر المثل إما للتدليل على انتهاء الحوار بالإفحام، وإما لتأجيجه بتقديم مبرّرات أخرى، وربما المزيد من الأمثال.

الأمثال، المعنى والدلالة

يكاد لا يخلو كتاب من كتب التراث الأدبي العربي من ذكر مفصّل يتناول الأمثال وأهميتها ودورها في عملية التثقيف الاجتماعي، وفي الدلالة على ما يمكن أن يكون، أو ما هو كائن، بمعطيات لا بدّ من أنها تختلف،

أو تأتلـف، في وصـف موقـف، واسـتخراج مـا يمكـن أن يـدلّ عليـه، بمواقـف متناقضـة متأتّيـة مـن النظـرة الشـخصية لمسـبّبات هـذا الموقـف وتداعياتـه، إمـا بالتهـرّب مـن نتائجـه، أو الخضـوع لهـا، أو مواجهتهـا. وهـذا يعنـي، أن الموقـف نفسـه يمكـن أن ينتـج علاقـات معـه تبـدو متباعـدة ومتناقضـة، تعبّر عـما يـدور في أذهـان المتعاملـين معـه، سـلباً وإيجابـاً، رفضـاً وخضوعـاً ومواجهـة، خوفـاً أو جـرأة. ولهـذا التناقـض في التعاطـي مـع الموقـف المسـتجدّ، مـع أنـه المصـدر الوحيـد لهـذا التعاطـي المتناقـض، يحتّـم علينـا النظـر في المثـل، وفي معنـاه، وفي أهميتـه ووظيفتـه في التعاطـي مـع مـا هـو واقـع، للوصـول إلى تجـاوزه، بمـا يمكـن أن يسـاند الموقـف المسـتجدّ. فمـن قائـل في حالـة الرفـض: «ميّـة كلمـة ألله يرحمـو ولا كلمـة جبـان»، يظهـر مـا يعاكسـها في القـول إمـا «ميّـة كلمـة جبـان ولا ألله يرحمـو» أو «العـين مـا بتقـاوم المخـرز»، أو «بـوس إيـد السـلطان، وادع عليهـا بالكسر».

لذلـك تـأتي مفـردة «المثـل» في هـذا السـياق، عـلى أنهـا تشـبيه شيء حاصـل آنيـاً وحـاضراً بـشيء حصـل في المـاضي، بمـا يأتلـف مـع المعنـى، ويختلـف في ظاهـر القـول. مـن هنـا جـاءت التفاسـير الكثـيرة عـلى امتـداد التاريـخ الأدبي العـربي لمفـردة المثـل، لتسـتقرّ في الأخـير عـلى مـا يتـمّ تداولـه في هـذا المجـال[1].

يـدور الجـذر «مثـل» عـلى الشـبيه والنظـير. يقـول إبـن منظـور: «المِثـل كلمـة تسـوية. فيقـال هـذا مِثلُـه، وهـذا مَثَلُـه، كـما يقـال شِـبهُه وشَـبهُه بمعنـى... والمَثَـل: الـشيء الـذي يُـضرب لـشيء مثـلاً فيُجعـل مثلـه. والمثـل مـا يُـضرب بـه مـن الأمثـال»[2]. وفي الأسـاس والمبـدأ، المثـل مـن المماثلـة، وهـو الـشيء المثيـل لـشيء يشـابهه. وهـو الشـبيه والنظـير. فـإذا قلنـا هـذا الـرداء أبيـض،

---

1 . قـدم لنـا ناهـض قديـح دراسـة قيمـة عـن الأمثـال العربيـة وقائمـة ببيليوغرافيـة تحتـوي عـلى الدراسـات القديمـة والحديثـة التـي تناولـت الأمثـال العربيـة، في: ناهـض قديـح، الأمثـال العربيـة، دراسـتها ومصادرهـا، الفكـر العـربي، العـدد49، كانـون الأول 1987، معهـد الإنمـاء العـربي، بـيروت، ص ص18- 49.

2 . إبن منظور، لسان العرب، مادة مثل، مذكور سابقاً، ص4132- 4133.

وذاك الـرداء مثلـه، أي أبيـض أيضـاً، ولكنـه أوسـع كثـيراً، أي ليـس مثلـه في القيـاس، بـل مختلـف عنـه. لذلـك يُـضرب المثـل عنـد وجـود التشـابه بـين حالـة حادثـة تذكّـر بحالـة مشـابهة، ولهـذا، وعـلى سـبيل التكـرار للحالـة الأولى، ذهبـت مثلاً. فيكـون المثـل تبليغـاً عـن حالـة مشـابهة، فيـه نـوع مـن التوريـة والكنايـة تحـاكي الحالـة التـي يسـتذكرها المثـل.

يعـرّف المرزوقـي (ت. 421هــ - 1030م)المثل في كتابـه «شرح الفصيح لثعلب» بأنــه «جملــة مــن القــول مقتضبــة مــن أصلهــا أو مرســلة بذاتهــا، فتتّســم بالقبـول وتشـتهر بالتـداول فتنتقـل عـما وردت فيـه إلى كل مـا يصـحّ قصـده بهـا مـن غـير تغيـير يلحقهـا في لفظهـا وعـما يوجّـه الظاهـر إلى أشـباهه مـن المعـاني. فلذلـك تُـضرب وإن جُهلـت أسـبابها التـي خرجـت عليهـا»[3]. وذلـك مـع أحقيـة اسـتعمال أسـلوب كلام ومفـردات لا يجـوز اسـتعمالهما في سـائره.

ولعـل أهـم مـا ظهـر في الـتراث الأدبي العـربي مـن مباحـث تتعلـق بالأمثـال، كتـاب «مجمـع الأمثـال» للميـداني (ت. 518هــ ـ 1124م) الـذي يحتـوي عـلى أكـثر مـن سـتة آلاف مثـل[4]. وقـد عـرّف المَثـل بمِثـل مـا عرّفـه إبـن السـكّيت والنظـام. فهـو «لفـظ يخالـف لفـظ المـضروب لـه، ويوافـق معنـاه معنـى ذلـك اللفـظ»... ويجتمـع (فيـه) أربعـة لا تجتمـع في غـيره مـن الـكلام، إيجـاز اللفـظ، وإصابـة المعنـى، وحُسـن التشـبيه، وجـودة الكنايـة، فهـو نهايـة البلاغـة»[5].

3 . المرزوقـي، شرح الفصيـح لثعلـب، تحقيـق سـليمان بـن ابراهيـم العايـد، جامعـة أم القـرى، مكـة المكرمـة، ص297. أنظـر الرابـط:

https://ia802304.us.archive.org/29/items/GS147020147020/.pdf

4 . أبـو الفضـل الميـداني، مجمـع الأمثـال، المجلـد الأول، المكتبـة العصريـة، 2007، بـيروت. أنظـر أيضـاً الرابـط التـالي:

http://al-hakawati.net/arabic/civilizations/255a1.pdf.

وثمة تحقيق آخر لهذا الكتاب:

أبـو الفضـل الميـداني، مجمـع الأمثـال، أربعـة أجـزاء، تحقيـق جـان تومـا، دار صـادر، 2001، بـيروت.

5 . الرابط السابق نفسه، ص6.

ويزيـد الميـداني عليهـما قولـه إن «مَثـل الـشيء ومِثلـه، وشَـبَه وشِـبه، لهـا معنـى واحـد يفيـد مـا يماثلـه ومـا يشـابهه قـدْراً وصفـة». بعكـس مـا يـدل عليـه البَـدَل والبِـدل الـذي هـو غـيره... «غـير أن المِثـل لا يوضـع في موضـع هـذا المَثـل، وإن كان المَثـل يوضـع موضعـه»[6]. مـا يعنـي أن كل مَثـل هـو مِثـل، وليـس كل مِثـل مَثـلاً. ذلـك أن المَثـل مـا يمثّـل بـه الـشيء أي يشـبّه بـه، وإذا كان المَثـل إسـماً، فـإن المِثـل صفـة. وقـد اعتـبرت الأمثـال، عـلى مـا يقـول الأبشـيهي، «مـن أشرف مـا وصـل إليـه اللبيـب خطابـه، وحلّى بجواهـره كتابـه»[7].

أمـا الهاشـمي فيقـول إن المثـل عبـارة عـن تأليـف لا حقيقـة واقعيـة لـه، بـل هـو متضمـن الحكمـة والإرشـاد واسـتشراف نتائـج الأمـور قبـل وقوعهـا، بقياسـها إلى مـا شـابهها، وَقَـع في المـاضي. وبذلـك يصنّفهـا تحـت ثلاثـة أقسـام: الأول، الأمثـال المفترضـة التـي يمكـن حدوثهـا، فتجـري عـلى ألسـنة العقـلاء والحكـماء؛ والثـاني، الأمثـال المتخيَّلـة غـير ممكنـة الحـدوث تجـري عـلى ألسـنة الحيوانـات والجـمادات، فتنطـق وتعمـل بمـا يفيـد الإنسـان ويعظـه ويقـدّم لـه النصيحـة؛ والثالـث، الأمثـال المختلطـة عـلى شـكل حـوار أو مشـاركة بـين الإنسـان والحيـوان مهمتهـا الإرشـاد والنصيحـة وتبيـان السـبيل الـذي يمكـن اتّباعـه لحفـظ السـلامة، أو الوصـول إلى معرفـة مـا يمكـن أن تصـل إليـه الأمـور، أو مـآل موقـف إنسـاني، أو تبعـات سـلوك، أو غـير ذلـك.

تناولـت التعاريـف الحديثـة المثـل، في الطريقـة نفسـها التـي تداولتهـا كتـب الـتراث الأدبي العـربي القديـم والمتوسـط. فالأمثـال، عـلى مـا يقـول أحمـد أمـين، «ليسـت إلا جمـلاً قصـيرة نتيجـة تجـارب طويلـة، وهـي عندمـا تقـال

6 . المصدر نفسه، ص6.

7 . الأبشـيهي، المسـتطرف في كل فـن مسـتظرف، تحقيـق صـلاح الديـن الهـواري، مكتبـة دار الآداب، الشـارقة، دار ومكتبـة الهـلال، 2000، بـيروت، ص58. وقـد أفـرد الأبشـيهي البـاب السـادس مـن الكتـاب للكلام عـلى الأمثـال السـائرة عنـد العـرب، المصـدر نفسـه، ص ص58-79.

لا تكون مثلاً، وإنما يجعلها مثلاً شيوعها، بَعدُ، لموافقتها لذوق الجمهور، ويغلب عندئذ أن يكون قد نُسي قائلوها... (و)المثل لا يستدعي إحاطة بالعالم وشؤونه، ولا يتطلب خيالاً واسعاً، ولا بحثاً عميقاً، إنما يتطلب تجربة محلية في شأن من شؤون الحياة»[8]. وعلى هذا، عرّفته حديثاً نبيلة إبراهيم بأنه «قول قصير مشبع بالذكاء والحكمة»[9]. والمثل، بالإضافة إلى ذلك، حسب إبراهيم، «القول الجاري على ألسنة الشعب والذي يتميّز بطابع تعليمي، وشكل أدبي، يسمو على أشكال التعبير المألوفة. فالمثل قول موجز أو حكاية رمزية شائعة يتمثل بها الإنسان في حالة يعيشها، أو موقفاً يقفه فيشبه به ضمنياً الحالة التي مرّ عليها، بالحالة التي قُيّد فيها المثل»[10].

أما الباحث في شؤون التراث اللبناني سلام الراسي، فقد عرّف المثل بأنه «مرافق للحياة اليومية في كل ما يتعلق بالتربية والأخلاق. فهو حصيلة تجارب اجتماعية أو فردية، وتدل على حقيقة من حقائق الحياة، ثم إنها، لبلاغتها وحسن سبكها وصوغها، سهلة الحفظ، تتعلق بالذهن لمجرد سماعها، فتدخل القلوب في طريقها إلى الذهن وتنساب انسياباً عند الحاجة ووقت الضرورة في أية مناسبة كانت. ومن النادر أن ينتهي حديث العامة مهما كان دون تأييد قولها بمَثل أو حكمة شعبية لأنها بمثابة الحجر الأخير في بنيان الحديث»[11]. وغالباً ما يسبق تلاوة المثل،

8 . أحمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، الطبعة الحادية عشرة، 1979، بيروت، ص62، 64. وللمزيد من التفصيل حول الأمثال وأهميتها ومحاكاتها للواقع أنظر، المرجع نفسه، ص ص60-66.

9 . نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، الفنون الشعبية المصرية، العدد10، 1969، القاهرة، ص98، نقلاً عن:
قديح، الأمثال الشعبية، مذكور سابقاً، ص23، 49.

10 . أنظر للتفصيل حول الأمثال وأهميتها وأهم تعاريفها أيضاً، الرابط التالي:
https://plus.google.com/109202879331230633307/posts/XaSsDiAT5za

11 . سلام الراسي، حكي قرايا وحكي سرايا، الطبعة الثانية، مؤسسة نوفل، 1977، بيروت،

القـول: «الحقيقـة مـا قـال المتـل شي وكِـذِب».

ويقـول إميـل يعقـوب في الإطـار نفسـه، «المثـل عبـارة موجـزة بليغـة شـائعة الاسـتعمال، يتوارثهـا الخلـف عـن السـلف، وتمتـاز، عـادة، بالإيجـاز وصحـة المعنـى، وسـهولة اللغـة، وجـمال جَرْسِـها»[12].

وإذا كان علينـا أن نضيـف شـيئاً عـلى فهمنـا للمثـل، فـلا يتعـدى القـول بأنـه البليـغ المختـصر والمفيـد الـذي يفصـح عـن تجربـة مـن تجـارب الحيـاة، مشـتركة بـين أنـاس ومجتمعـات، يتلقونهـا مجتمعـين ومنفرديـن بمواقـف وردود أفعـال مشـتركة ومنسـجمة، وربمـا متباينـة، تظهـر عـلى شـكل عبـارة بليغـة مسـتخلصة مـن قيـم المجتمـع ومـن مثلـه العليـا، وتشـكّل دروسـاً للأجيـال المتعاقبـة.

الأمثال، البنية والتركيب

مـن المهـم القـول إن للمثـل بنيـة مخصوصـة، تعتـبر مـن شروط حبكـه ليكـون قابـلاً للإسـتمرار والترسّـخ في أذهـان النـاس، عـلى مـا يقـول الهاشـمي، هـي أولاً: البسـاطة في التركيـب ليسـهل اسـتيعابه وحفظـه؛ وثانيـاً: الاختصـار الأقـصى لمفرداتـه؛ ثالثـاً، إضفـاء الطـلاوة والمتعـة والفكاهـة عنـد تلاوتـه، وشـدّة تماثلـه بالمعنـى في الموقـف الـذي اسـتدعى تـلاوة المثـل؛ ورابعـاً، وروده بصـورة محتملـة لا تتوسّـل الحتميـة. أمـا بالنسـبة لفوائـده، فـ«منهـا نزهـة البـال وترويـح الخاطـر، ومنهـا اسـتقصاء الحكـم.. ولا يعـرف اسـم مـن تكلـم بهـا، وكـما تكـون نـثراً تكـون نظـماً»[13].

يقـول أبـو هـلال العسـكري (تـوفي مـا بـين 411 - 420هــ؛ 1021- 1029م) في

ص82.

12 . إميل بديع يعقوب، الأمثال الشعبية اللبنانية، جروس برس، 1984، طرابلس، ص16.

13 . أحمد الهاشـمي، جواهـر الأدب، الجـزء الأول، 1965، الطبعـة 27، المكتبـة التجاريـة الكـبرى، القاهرة، ص 287-288.

كتابـه «جمهـرة الأمثـال»، وهـو كتـاب معتـبر في موضوعـه، إن للمثـل بنيـة وتركيبـاً يضعانـه في قمـة البلاغـة الأدبيـة. وقـد صـاغ ذلـك في كلام بليـغ، بلاغـة المثـل نفسـه؛ يقـول: «ولما عرفـت العـرب أن الأمثـال تتـصرف في أكـثر وجـوه الـكلام، وتدخـل في جـلّ أسـاليب القـول، أخرجوهـا في أقواهـا مـن الألفـاظ؛ ليخـفّ اسـتعمالها، ويسـهل تداولهـا؛ فهـي مـن أجـلّ الـكلام وأنبلـه وأشرفـه وأفضلـه، لقلّـة ألفاظهـا وكـثرة معانيهـا، ويَسـيرِ مؤونتِهـا عـلى المتكلـم، مـع كبـير عنايتهـا، وجسـيم عائدتهـا»[14].

وعليـه، يمكـن القـول إن للمثـل مواصفـات هامـة تجعـل منـه الجانـب المتميّـز مـن الثقافـة الشـعبية لما يختـزن مـن الأسـاليب التـي لا تتوفّـر لأي جانـب مـن جوانـب الأدب الشـعبي، وخصوصـاً الشـفوي منـه.

ومن الأساليب المتبعة في إذاعة المثل وانتشاره ما يلي:

أ ـ **الأسـلوب اللغـوي**، وهـو الـذي يشـدّ الانتباه ويوحـي بأهمية المثـل ووجوب اسـتيعابه، وخصوصـاً في الموقـف الـذي يسـتدعيه. وغالبـاً مـا يقـال قبـل النطق بـه للتأكيـد عـلى صحّتـه: «المثـل مـا قـال شي وكـذب». «صحيـح متـل مـا قـال المثـل». «لأنـو المثـل الـدارج بيقـول». بالإضافـة إلى التخـلّي عـن الكثـير مـن القواعـد النحويـة والصرفيـة، والتأكيـد عـلى اسـتعمال اللغـة المحكيـة باللهجـة المحليّـة لـكل بلـد.

ب ـ **الأسـلوب البرهـاني المنطقـي**، ويحصـل ذلـك باسـتعمال المنطـق في القياس، مـن خـلال مقارنـة المثـل بمـا يحصـل وقـت اسـتحضاره، وذلـك بقيـاس الحـاضر عـلى المـاضي، بمـا يتعلّـق بالمثـل، ومناسـبة النطـق بـه.

ج ـ **الأسـلوب المحـلّي**: وهـو العمـل عـلى جعـل المثـل ينطبـق عـلى حالـة

14 . أبـو هـلال العسـكري، جمهـرة الأمثـال، الجـزء الأول، تحقيـق أحمـد عبـد السـلام، أبـو هاجـر بسـيوني زغلـول، دار الكتـب العلميـة، 1988، بـيروت، ص10. أنظـر أيضـاً الرابـط التـالي: http://waqfeya.com/book.php?bid=4368

حـاضرة باللهجـة المحليـة، وبمـا يتناسـب مـع الأعـراف والتقاليـد الشـعبية السـائدة.

د ـ الأسـلوب الجـدالي : وأداتـه هـي الاسـتفهام، والنقـاش، والـرد، والمحاججـة، باسـتعمال الأمثـال مـن أجـل دعـم صحـة الـرأي، ودحـض الـرأي المخالـف. إذ غالبـاً مـا يكـون المثـل قفـلاً للـرأي وحجّـة لـه ومرجعـاً.

هــ ـ الأسـلوب الدينـي: وغالبـاً مـا يكـون هـذا الأسـلوب مثبّتـاً للقـول، ومجلبة للقناعـة والتصديـق، مـن خـلال اسـتعمال النـص الدينـي بإسـناد القـول بآيـات مـن القـرآن ومـن الأحاديـث النبويـة، بحيـث تبطـل أي إمكانيـة للنقـاش أو المعارضـة، وخصوصـاً عندمـا يسـند قولـه بمـا «قـال اللـه في كتابـه العزيـز» أو بمـا «قـال عليـه السـلام في هـذه الموضـوع».

و ـ الأسـلوب العيـاني الخارجـي: وهـو الأسـلوب المبنـي عـلى الملاحظـة والاسـتنتاج بمـا هـو بـيّن وليـس بحاجـة إلى البرهـان، ويكـون الاحتجـاج بـه كبديهـة ظاهـرة مثـل القـول للـذي يعـترض عـلى رأي متخصّـص وهـو لا يفقـه مـن الأمـر شـيئاً: «إجـت التنيّـة (العنـزة الصغـيرة) تعلّـم إمهـا الرعيّـة».

أمـا **خصائـص المثـل** التـي تميّـزه عـن بقيـة أصنـاف الأدب الشـعبي، فهـي تتجـلى في مـا يـلي:

أ- العبـارة الموجـزة مـع الحفـاظ عـلى المعنـى الواضـح. والإيجـاز هـو الـذي يسـهّل حفـظ المثـل كـما هـو في المبنـى والمعنـى. وسـهولة الحفـظ تؤمّـن انتشـاره واسـتمراريّته عـبر الأجيـال. فعندمـا نقـول «عينـك ميزانـك» ندلّـل عـلى أن الشـاهد العيـان هـو وحـده الـذي يـدرك مـا رآه. والشـهادة هنـا أفضل الأدلـة. و«بـدو منّـو وتفـوه عليـه»، وهـو إيجـاز بليـغ يصـف حالـة المـتردّد الـذي يريـد شـيئاً ولا يريـده في الوقـت نفسـه. وفي الإيجـاز تخـلّ عـن موجبات

اللغـة الفصحـى وقواعدهـا[15].

ب- إصابـة المعنـى، مـا يعنـي أن المثـل هـو عبـارة موجـزة، ولكـن عليهـا أن تعـبّر عـن المعنـى المـراد إظهـاره عـلى أوضـح صـورة في صوابهـا وعمقهـا المتفقـين مـع الواقـع والعقـل. فعندمـا نقـول «الـلي بيحـرث العيـب بيحصـد الندامـة»، نعنـي تأكيـداً عـلى أن هـذا السـبب يعطـي هـذه النتيجـة، ولا مجـال للشـك. و«النقـار بيخـرب الديـار»، دليـل منطقـي واضـح عـلى مغبّـة عـدم الانسـجام والشـجار الدائـم بـين الزوجـين.

ج- التشـبيه، وهـو أكـثر مـا يميّـز الأمثـال الشـعبية لأنـه مبنـيّ عـلى المماثلـة والمقارنـة التشـبيهية. «الـلي بتأمّـن للرجّـال متـل الـلي بتملّي بالغربـال»، مـا يعنـي أن لا أمـل مـن الرجـال ولا أمـان معهـم، كـما لا أمـل مـن حمـل المـاء بالغربـال. «يلـلي متلنـا تعـا لعنّـا»، وهـو يعنـي أهميـة التماثـل في الفئـات الاجتماعيـة لبنـاء حيـاة سـليمة مبنيّـة عـلى الانسـجام والتفاهـم. والمثـل الـذي يقـول: «المـرا بـلا أولاد متـل الخيمـة بـلا أوتـاد»، مـا يعنـي أن الزوجـة لا تسـتقرّ في بيـت زوجهـا إلا بالإنجـاب، وإلا انهـدم بيتهـا عليهـا بالطـلاق، لعـدم ثباتـه، كـما الخيمـة غـير المدعومـة بالأوتـاد؛ وهـي المهـددة دائمـاً بالسـقوط. أمـا الـذي عليـه أن يحتـاط ويحـذر، فعليـه أن لا يعـرّض نفسـه للمخاطـر، فـ«لا تنـام بـين القبـور ولا تشـوف منامات وحشـة» (بشـعة ومخيفـة). والفقر يسـتمر إذا كان الزوجـان فقيريـن، «جـوّز الفقـير للفقـيرة بتكـتر الشـحادين». وإذا كانـت قـوة التاجـر تقـاس بأموالـه، فقـوة العالِـم تقـاس بمـا قـدّم مـن أبحـاث وأعـمال فكريـة، لأن «مجـد التاجـر بكيسـو ومجـد العـالم بكراريسـو». وإذا كانـت اللقمـة مفتـاح الشـهية، فهـي تشـبه في هـذه الحـال الكلمـة التـي توصـل إلى الشـجار، لأن «مفتـاح البطـن لقمـة ومفتـاح الـشر كلمـة».

15 . حول أهمية الإيجاز البلاغي في تركيب الأمثال، أنظر للتفصيل:
يعقوب، الأمثال الشعبية اللبنانية، مذكور سابقاً، ص38-39.

د- الكنايـة ، يعتمـد المثـل الشـعبي عـلى الكناية والتوريـة مـن أجـل إيصـال فكـرة محـدّدة، تبـيّن ببلاغـة مـا هـو المقصـود مـن ذكـر المثـل في طريقـة غـير مبـاشرة. فـإذا قـرّر المـرء أن يجابـه المخاطـر، أو يقـاوم الظلـم، فعليـه أن يتحمّـل تبعـات فعلـه، وأن ينتظـر مـا يمكـن ان يتـأتّى عـن هـذا الفعـل مـن نتائـج. فيقـال عندئـذ: «الـلي بـدو يـاكل عسـل بـدو يتحمّـل عقـص النحـل»، و«الـلي بـدو يلعـب مـع البسـين (الهـر) بـدو يطيـق خراميشـو». والمقتـدر الظـالم يُنظـر إليـه مـن خـلال أعمالـه التـي لا ترحـم، لذلـك فهـو: «بيدبـح بضفـرو». وللتدليـل عـلى المجاهـد الـذي يحصّـل لقمـة عيـش عائلتـه، يقـال عنـه، «بينحَـت الصخـر». أمـا عـن ضعـف الشـخصية والخجـل والـتردّد، فثمـة الكثـير مـن الأمثـال التـي تنبّـه إلى مضارهـا، ويكفـي أن نذكـر المثـل التـالي المعـبّر: «الـلي بيسـتحي مـن مرتـو مـا بيجيـب ولاد».

هـ - رشـاقة اللفـظ، وخفّتـه عـلى السـمع، ووقعـه الموسـيقي المبنـي عـلى السـجع والإيقـاع. ففـي العلاقـات الاجتماعيـة مـا هـو قابـل للانتشـار والإفشـاء في كل الأوقـات مـن اليـوم، في النهـار وفي الليـل، لأن «النهـار بعويناتـو، والليـل بودينـاتـو»، مـا يعنـي أن للنهـار عينـين تريـان، ولليـل أذنـين تسـمعان. وفي الـكلام العامّـي يدخـل السـجع ليزيّـن الـكلام ويسـهّل حفظـه ويؤمّـن اسـتمراره. فالمثـل الـذي يدعـو إلى طـول البـال يظهـر في جـمال لفظـيّ مبنـيّ عـلى السـجع: «طـول البـال بيهـدّ الجبـال». ولأن البنـت تشـبه أمهـا في هيأتهـا وخصالهـا، جـاء المثـل ليقـول، «طـبّ الجـرة عتـمّا البنـت بتطلـع لأمّـا». وكذلـك المثـل الـذي يقـول: «لا تلـمّ قبـل مـا تسـأل عـن الأم». وللتعـاون في العلاقـات الاجتماعيـة والمبادلـة في الخدمـات، جـاء المثـل يقـول: «حكّلـلي تـ حكّللـك». أمـا المثـل الـذي يعطـي للفـلاح قيمتـه ويبـيّن مكانتـه في نمـط الحيـاة الزراعيـة، عـماد الحيـاة الريفيـة، فقـد قـال: «فـلاح مكفـي سـلطان مخفـي». هـذا بالإضافـة إلى أمثـال كثـيرة تبـيّن جـمال التعبـير ورشـاقته في الأمثـال الشـعبية.

و- التساؤل، ثمّة أمثال كثيرة تظهر على شكل سؤال وجواب يدل على حقيقة اجتماعية نشأت عن الخبرة والتجربة. وترمي إلى عدم الوقوع في موقف مشابه لذلك الذي استُنبط المثل منه في ما سبق. فعندما يتجنّب أحدهم موقفاً محدّداً، أو يتحاشى عملاً غير مضمون النتائج، ويُسأل عن ذلك، يجيب بمثل دون أن يُفصح عن سبب موقفه ذاك، فيقول: «ليش بتنفّخ للبن؟ لأنو الحليب كاويني». والسؤال عن سبب تفضيل شيء على شيء آخر، بحيث ينتقي المرء ما هو مناسب له، يتساءل المثل: «شو أحلى من العسل؟ الخل ببلاش». وفي أهمية الجيرة ودورها في العلاقات الاجتماعية، يقول المثل في صيغة التساؤل، ومن ثم الجواب، ليترسّخ وقعه في الذاكرة، «مين أدرى بحالك؟ ربك وجارك». وكذلك في سؤال فرعون: «يا فرعون مين فرعنك؟ فرعنت وما حدا ردّني». ويقال في سؤال آخر يصاغ حسب المنطقة: «يا عنتر مين عنترك؟ عنترت وما حدا ردّني».

ز- القدرة على الاستمرار

تعتبر الأمثال أكثر الأنواع الأدبيّة رسوخاً في الأذهان، ومقدرة على الاستمرار بالحفظ ودوام الترداد، وإلا بطل المثل أن يكون مثلاً. وهي، كذلك، خلاصة التجارب الإنسانية التي ذهبت حوادثها، وبقي ما يعبّر عنها باللغة المكثّفة والبليغة والمختصرة، والسهلة على الفهم والإستيعاب، والعصية على الاندثار، والمستمرّة منذ أزمنة مغرقة في القدم، ما كانت لتبقى وتستمرّ لولا العقل البشري الذي يستمدّ من تجربته وملاحظته ما يخلّد العبرة أو الخلاصة لموقف أو حادثة مرّت في مجرى الحياة الإنسانية في أي مجتمع، بمجرّد أن تتكرّر استعادته في مواقف مشابهة، فتتحول إلى مثل. فعندما يقول المثل: «سبحان مين خلق صيف وشتا على سطح واحد»، فإن قائله يريد أن ينتقد موقفاً لأحدهم يكيل بمكيالين، مبتعداً عن الموضوعية في الحكم ومتأثراً بخلفية منحازة.

لهذا المثل قصة طريفة من المهم ذكرها. تجلس الأم وابنتها وصهرها في

ليلـة ربيعيـة عـلى سـطح المنـزل، ومـن ثـم انضـم إليهـم الإبـن وزوجتـه. وكان أن التصقـت الكنّـة (زوجـة الإبـن) بزوجهـا وغمرتـه. فتضايقـت الأم ونظـرت إلى ابنتهـا قائلـة «لـزّي(إلتصقـي) بزوجـك يـا بنتـي مانـك بردانـة؟ ومـن ثـم التفتـت إلى كنتهـا وانتهرتهـا قائلـة « بعّـدي عـن هالصبـي لهّبتيـه». فهمسـت الكنّـة في أذن زوجهـا مـا ذهـب مثـلاً. « سـبحان مـين خلـق صيـف وشـتا عـلى سـطح واحـد». ولا يـزال هـذا المثـل مسـتعملاً بكـثرة محليـاً، وفي النظـر إلى العلاقـات الدوليـة المنحـازة.

بهـذا التحليـل لمبنـى المثـل وتوجّهـه، يتبـيّن أنـه ذو صفـات هامـة تتيـح تكريـس الـكلام واسـتعادة ذكـره في كل حادثـة أو موقـف مشـابهين للموقـف أو الحادثـة الأوّلـين. وهـذه الصفـات بـكل مـا فيهـا مـن الإيجـاز والوضـوح في المعنـى، حسـب اللهجـة التـي يصـاغ بهـا، والبلاغـة في التشـبيه، تكرّسـه أدبـاً شـعبياً في رأس القائمـة. ولا يتـواني الأدب الرسـمي مـن نـثر وشـعر، وكذلـك الأدب الشـعبي، مـن توسّـل المثـل والاعتـماد عليـه مـن أجـل زيـادة الإيضـاح، وترسـيخ الفكـرة، وتمتـين الربـط بـين الأفـكار، بالإضافـة إلى المزيـد مـن البلاغـة في القـول والكتابـة.

ح- عاميّة الأمثال

ولأن المثـل يتمتـع بهـذه المواصفـات، فهـو يمكـن أن يكـون عصيّـاً عـلى الفهـم في اللهجـة التـي صيـغ فيهـا، مـن غـير قائليهـا. وبهـذا سر قوّتـه واسـتمراره بـين ناطقـي اللهجـة ذاتهـا. وهـذا لا يعنـي أن الأمثـال تقتـصر عـلى اللهجـة العاميـة، أو تتصـف بالمحليـة، فحسـب؛ بـل ثمـة أمثـال فصيحـة وذات أهميـة قصـوى ظهـرت في النـثر والشـعر، وكانـت معينـاً لتوسـيع دائـرة الأمثـال الشـعبية التـي صاغهـا قائلوهـا، بالاقتبـاس والتحويـر اللفظـي. وسـيكون لنـا كلام في هـذا الشـأن. إلا أن مـا يتميـز بـه المثـل الشـعبي هـو القـدرة عـلى التحـوّل، والمطواعيّـة في الانتقـال، إلى أي لهجـة محليّـة، حسـب كل بلـد؛ وهـي اللهجـة التـي تكـون مختلفـة في الألفـاظ، وموحّـدة في المعنـى.

إذا كانت المرأة موضوع المثل، فإنه يتناولها أماً وزوجة وبنتاً في شخصها، أو في علاقتها مع الرجل. ونرى من خلال المثل أن النظرة الشعبية العربية إلى المرأة متماثلة. فهي التي تعطي لإبنتها مواصفاتها. ففي بلاد الشام يقول المثل: «طب الجرّة عتمّا بتطلع البنت لأمّا»، أو «إقلب الجرة عتمها بتطلع البنت لأمها، أو أكفي الجرة على فمها تطلع البنت لأمها»، وذلك على التوالي في لبنان وسورية وفلسطين. أما في المغرب العربي فيتحول المثل إلى: «إقلب الطنجرة على فمها تتطلع البنت لأمها»، وإقلب القدرة على فمها تخرج الطفلة لأمها»، وذلك في تونس والجزائر على التوالي.

أما في بداية العلاقة بين العريس والعروس، وليعوّدها على مخافته وطاعته، يقول المثل المصري: إدبح بسّك (الهر) ليلة عرسك»، لتُخيف عروسك في ليلة الدخلة، ولتبقى كذلك. وفي تونس يقول المثل « إضرب القطوسة تتربى العروسة»، وفي الجزائر: «إضرب الطاروسة تخاف العروسة». والمعنى واحد من أجل إخافة العروس في أول لقاء مع العريس بعد أن صارت زوجته، لتبقى مطيعة له. ولأن المثل يترافق مع نمط من الحياة يفرض إقامة الكنّة والحماة في منزل واحد، حسب ما تتطلبه العائلة الممتدة، ظهرت الأمثال التي تُظهر العلاقة المتوترة والتنافسية بينهما على قلب الإبن – الزوج. ففي بلاد الشام يقول المثل: «مكتوب على بواب الجنة ما عمرها حماة حبّت كنّة». وفي مصر يقول المثل في المعنى نفسه: «إذا كانت الغلة تجي قدّ التبن، كانت الحما تحب مرات الإبن». وفي الجزائر: «إذا تصالحت العجوز والكنّة، الشيطان يخشّ الجنة». وفي المغرب العربي في شكل عام ثمة مثل متداول شبيه بما سبق: «إذا تفاهمت العجوز والكنة، يدخل إبليس الجنة».

أما في أفضلية الزواج من إبن العم في نظام القرابة العربي، فقد أفصحت الأمثال عن عدم ثبات حالة الزواج حتى وقت الإكليل أو عقد القران، لأن إبن العم يستطيع أن يُنزلها عن هودج العرس، لذلك قيل في بلاد

الشام: «إبن عمها ينزّلها من على الحصان». و«عروسك تحت الإكليل ما بتعرف لمين بتصير». وفي الجزائر يقول المثل في المعنى نفسه: «العروسة ركبت لا تحصي لمن كتبت». وهذا يعني أن العروس في زمن عقد المثل ما كان لها رأي في زواجها، ويمكن أن يستبدل عريسها في اللحظة الأخيرة، خصوصاً إذا أراد إبن عمها أن يتزوجها.

وفي مسألة التربية، كانت المهمة تقوم على كاهل الأب الذي عليه أن يربّي إبنه كما تقتضي عادات وتقاليد المجتمع، لذلك، يقول المثل في لبنان وبلاد الشام عموماً: «إبنك الصغير ربّيه، وإذا كِبِر خاويه». وفي المغرب العربي يقال: «إذا كِبر ولدك خاويه». أيضاً: «إلا عندك طفل خاويه». أما في مسألة عدم اهتمام الإبن بتربية والده له، وعدم طاعته بما فيه مصلحته، فقد قيل في المشرق العربي عموماً: «قلبي على ولدي وقلب ولدي عالحجر». وفي السودان: «قلبي على جناي وقلب جناي على الحجر». وفي هذا المجال، وإذا شذ الإبن أو فعل شيئاً مشيناً يستوجب التأنيب والدعاء عليه بما يضرّه، فإن ذلك يدخل في باب طلب الشيء، ورفضه بشدة، في الوقت نفسه، إذ يقول المثل: «إدعي على إبني وأكره اللي يقول آمين». هذا في مصر، أما في بلاد الشام، فيقال: أضرب ولدي بالسكين وأكره اللي بيقول آمين». أما التوصية في التربية فيقال للولد على سبيل التنشئة في المشرق العربي، إنه يجلب الشتيمة إلى أهله في حال قام بفعل عاطل: «الابن الفاسد بيجيب لأهلو المسبّة». ويكثر التداول في الأمثال التي تؤكّد على أهمية التربية، باعتبار أن من يقوم بالتربية الحقة هو الذي يُبكي الطفل بصرامته واهتمامه. أما الذي يُضحكه ويغنّجه، فهو يضرّه ويصنع منه ولداً لا نفع منه. يقول المثل: «إفرح للي بيبكّيك وما تفرح للي بيضحّكك». وفي الجزائر يقول المثل: «إسمع الكلام اللي بكّيك ولا تسمعش الكلام اللي ضحّكك». وفي تونس المثل نفسه تقريباً في المبنى: إسمع الكلام اللي يبكيك وما تسمع الكلام اللي يضحكك. وفي اليمن: «أنا فدا من بكاني ولا من ضحك لي».

أمـا في موضـوع الـزواج والسـعي إليـه للغـير، فهـو مكـروه في كل البلـدان، عـلى الأقـل في مـا يقـول المثـل. ففـي بـلاد الشـام والمـشرق في شـكل عـام، يقـول المثـل: «إمـشي بجنـازة ولا تمـشي بجـازة». أيضـاً في المعنـى نفسـه: «حـطّ إيـدك بجنـازة ولا تحـطّ أيـدك بجـازة». وفي مـصر: «إمـشي في جنـازة ولا تمـشي بجـازة». ولأن الولـد سرّ أبيـه ويمـشي عـلى خطـاه، قيـل في بـلاد الشـام: «فـرخ البـط عـوام»، وفي مـصر: «إبـن الـوز عـوّام».

في مـا يتعلـق بالحـاضر، ونظـراً لضيـق سـبل العيـش، كان لا بـد مـن وجـود الأمثـال التـي تـدلّ عـلى العيـش في الحـاضر لأن الغـد في ظهـر الغيـب. والمهـم هـو اسـتمرار العيـش الـضروري اليـوم. لذلـك يقـول المثـل المـصري: « إحيينـي النهـار ده وموّتنـي بكـرا». وفي فلسـطين وبـلاد الشـام عمومـاً يقـال: «إحيينـي اليـوم واقتلنـي غـدوة».

للقناعـة أيضـاً نصيـب مـن الأمثـال لارتباطهـا بالقضـاء والقـدر، لضرورتهـما في الاسـتقرار النفـسي والاجتماعـي للفـرد والجماعـة. في هـذا السـبيل يقـول المثـل في العـراق، ومنـه انتـشر في بـلاد الشـام: «لـو جريـت جـري الوحـوش غـير رزقـك مـا تحـوش». أيضـاً: «يـا عبـدي لا تلـوج، غـير رزقـك مـا بتحـوش». وهـو مثـل نشـأ في لبنـان وانتـشر منـه. وفي مـصر يقـال: «إجـري يـا إبـن آدم جـري الوحـوش غـير نصيبـك يـا إبـن آدم لم تحـوش». إلا أن القناعـة لم تسـتطع الحـد مـن الطمـع في الأمـور المادّيـة، وإن اسـتطاعت الاكتفـاء بمـا أوتي المـرء مـن العقـل. لذلـك جـاءت الأمثـال لتقـول: «كل مـن بعقلـو راضي، لكـن برزقـو لا». هـذا في العـراق، أمـا في بـلاد الشـام، فقـد جـاء المثـل نفسـه ولكـن بصيغـة أكـثر تفصيـلاً، إذ يقـول: «لمـا تفرّقـت الـرزاق مـا حـدا عجبـو رزقـو، ولمـا توزعـت العقـول الـكل رضي بعقلـو». هـذا في لبنـان، أمـا في سـورية، فجـاء المثـل كـما يـلي: «لمـا فرّقـوا العقـول كل واحـد عجبـه عقلـو، ولمـا وزّعـو الأرزاق مـا حـدا عجبـه رزقـو».

ولأن النميمـة مـن الرذائـل الاجتماعيـة، فقـد احتوتهـا أمثـال كثـيرة منتـشرة

في كل أنحاء البلدان العربية. ففي بلاد الشام يقال عن الذي يغتاب الناس ويتملّقهم في حضورهم: «في الوجه مراية وفي القفا صرماية». وفي الجزائر: «في الوجه مرايا وفي الظهر مقص». أما في السودان فيقال في المعنى نفسه: «في الوش حبايب وفي القفا دبايب». وفي أهمية الخبرة في العمل والمهارة في الحرفة، قيل في بلاد الشام: إعطي خبزك للخباز ولو أكل نصو، وفي فلسطين «ثلاث رباعو»، وفي مصر: «أدي العيش لخبازينه ولو ياكلو نصّه».

اهتمت الأمثال بالوفاء وأعطته قيمته الاجتماعية. ففي العراق يقول المثل: «البير إلـ تشرب منها مَي لتذبّ بيها حجارة. وهو نفسه المثل الذي شاع في بلاد الشام: «لا تشرب من البير وترمي فيه حجر».

وللنحس نصيبه من الأمثال المنتشرة من المشرق العربي إلى مغربه. ففي سورية يقال «المنحوس منحوس ولو علّقو على باب بيتو فانوس». وفي فلسطين ..«على راسو فانوس»، وفي لبنان: .. «ولو علقولو فانوس». وفي المغرب يقال: «منحوس منحوس ولو على راسو فانوس». أما في النصيحة، فيقول المثل: «تغدّى وتمدّى ولو دقيقتين وتعشى وتمشى ولو فشختين». هذا في لبنان، ويصير في سورية وفلسطين: تغدى وتمدى، وتعشى وتمشى، وهو نفسه لأن المصدر واحد. وفي الخليج أيضاً المثل نفسه: «اتغدى واتمدّى واتعشّى واتمشّى».

أما الجهل فيورّث المصائب. يقول المثل في الجزائر: «إللي ما يعرف قيمة الطير يشويه». ما يعني أن الذي يجهل قيمة ما بيده يستهتر به ويطرحه جانباً دون أي اهتمام. وفي السعودية، ونظراً للقيمة الكبرى للصقر، يقول المثل: «اللي ما يعرف الصقر يشويه». ومن ناحية ثانية، لا حاجة إلى شيء لا فائدة منه: «كان فيها الخير ما كان رماها الطير». هذا في السودان، وكذلك في السعودية. وفي الجزائر يقول المثل: «لو فيك الخير يا موكة ما يعيفوك الصيادة».

وللعلاقـات الاجتماعيـة نصيبهـا الأكـبر مـن الأمثـال، وهـي منتـشرة في كل البلـدان العربيـة، ننتقـي منهـا مـا يـلي: حـول الاعتـدال في التعاطـي مـع الأهـل والأصدقـاء يقـول المثـل في بـلاد الشـام: « إذا كان حبيبـك عسـل لا تلحسـو كلّـه». وفي المغـرب يقـال: «يـلا كان خـوك عسـل مـا تلعقـوش كلـه». وفي اليمـن يقـال: «إذا كان صاحبـك عسـل خـلّي منـه وسـل». وحـول عمـل الخـير دون طلـب المنّـة، يقـول المثـل في بـلاد الشـام: «إعمـل معـروف وارميـه في البحـر»، وفي لبنـان: «عْـمال منيـح وكـبّ بالبحـر». وفي تونـس يقـال: «إعمـل خـير وارميـه في البحـر». أمـا في العلاقـة غـير المتكافئـة بـين الحبيبـين، فقـد جـاء المثـل ليقـول في بـلاد الشـام: «ضرب الحبيـب زبيـب وحجارتـه رمّـان». وهـذا طبعـاً لمصلحـة الذكـر مقابـل الأنثـى. وفي الجزائـر المعنـى نفسـه في المثـل: «حجـرة مـن يـد الحبيـب تفاحـة». وفي العلاقـات الاجتماعيـة يقـول المثـل : «لاقينـي ولا تطعمينـي». وفي الجزائـر يقـال: « اعطينـي بسـمتك مـا أردت خبزتـك». وهـو في المعنـى نفسـه. وللإحسـاس بالضغـط الاجتماعـي، يقـول المثـل في بـلاد الشـام: « كـول عـلى ذوقـك ولبـاس عـلى ذوق النـاس». وفي المغـرب يقـال: «كـول بشـهوتك ولْبِـس بشـهوة النـاس». وفي الجزائـر يقـال: «كـول واش يعجبـك ولبِـس مـا يعجـب النـاس».

هـذا غيـض مـن فيـض الأمثـال الشـعبية العربيـة سـقناها هنـا بالانتقـاء الـلازم والاختصـار عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر. ومـن المهـم القـول إن الأمثـال الشـعبية في أكثريتهـا السـاحقة منتـشرة في كل البلـدان العربيـة نتيجـة التفاعـل الثقـافي الناشـئ عـن وحـدة اللغـة التـي لهـا الفضـل الرئيـس في انتشـار الأمثال، إن كان في اللغـة الفصحـى أو العاميّـة. والتـداول وحـده هـو الكفيـل بتَبيِئَـة المثـل وإلباسـه الثـوب المحـلي العامـي. ولكـن لا بـد مـن الاعـتراف أن ثمـة أمثـالاً كثـيرة لم أسـتطع فـك رموزهـا، ولا معرفـة مـا تعنيـه. وقـد رأيـت ذلـك صعبـاً جـداً عـلي. ولنأخـذ أمثلـة عـلى ذلـك:

في الخليـج العـربي ثمـة أمثـال كثـيرة بقيـت غامضـة نظـراً لمحليتهـا. وقـد

عانيت من ذلك سابقاً عند البحث في الشعر النبطي[16]. يقول المثل من المغرب:

«دابا كلينا وشربنا ونسينا الحرابل باش سعينا». «عمرو ما احبى وملي احبى طاح فلبير»|.

ومن اليمن: «من فعل نفسه كدافه خربشنو الدجاج». « خص الخص يا باغة مدّعس». «يسأل عن الحدا والندا والزنوة منو أبوه».

ومن الخليج: «إبناو الزين زر في العين وابناو اللاش شاعب في الراس». «إحضر إحضار غيري وإخلي إحضاري طايح»[17].

ومن خلال هذا التحليل، أيضاً، يمكننا القول إن المثل، والمثل الشعبي على الخصوص، إنتاج مجتمعي صادر عن اهتمامات الناس اليومية وممارساتهم العملية. ويمثّل الخلاصات العفوية لهذه التجارب، وما نشأ عنها من دروس ومواعظ. وتنتقل بالتداول، لسهولة حفظها ويُسرِ تداولها من السلف إلى الخلف.

والمثل المنتج على هذا النحو، يعتبر أكثر الأشكال التعبيرية الشفوية

16 . أنظر في هذا الخصوص ما يتعلق بالشعر النبطي في:
عطيه، في الثقافة الشعبية العربية، المعنى في القول والمغنى، مذكور سابقاً، ص ص107-116.

17 . جميع الأمثال المستعملة هنا على سبيل المقارنة والصعبة الفهم مقتبسة من المصادر التالية:
فادي عبود، معجم الأمثال العالمية والعربية مع ملحق بالأمثال الشعبية العربية، كتابنا للنشر، 2013، بيروت.
إميل يعقوب، الأمثال الشعبية اللبنانية، مذكور سابقاً، ص ص37-46.
علاء الحمزاوي، الأمثال العربية والأمثال العامية، مقارنة دلالية، جامعة المنيا. مصر، على الرابط التالي:

http://elibrary.mediu.edu.my/books/SDL1329.pdf
http://lebanonism.com/lebwp/?p=39

انتشاراً وتداولاً. له مكانته الراسخة في أي ثقافة. ويتناول بالصدق والعفوية مسالك الناس في معيشتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ونظرتهم إلى الحياة، وإلى ما وراء الحياة، بالإيمان اللازم المتأتّي من الدين والتجارب وطرق التفاعل الاجتماعي والأخلاق. لذلك ينظر إلى الأمثال على أنها خلاصة تجارب الإنسان في المجتمع وعصارة تفكيره العملي.

لذلك، حظيت الأمثال بالعناية والاهتمام ولا تزال. ولم تبق حكراً على الدراسات الأدبية واللغوية، بل توسعت هذه الدراسات لتطول ميادين إنسانية مختلفة، منها الفلسفة وعلم الاجتماع، بالإضافة إلى الأنتروبولوجيا والإتنولوجيا.

وعليه، يصير المثل مشهوراً، ويدور على الألسن بتوالي الأجيال، لإيجازه وسهولة حفظه، ولبلاغته بما يمكن أن يصيب بها بالتعبير عنه نثراً أو شعراً. وهذا ما يجعله مقبولاً ومتداولاً لدى الخاصة والعامة من الناس. وأهمية المثل تكمن في الحفاظ على تركيبته الأولى التي تمّت صياغته بها. ولا يهمّ، من بعد، إذا كانت هذه الصياغة فصيحة أو عاميّة، نثراً أو شعراً، أو إذا صدرت من أفواه الخاصة، أو تم تداولها بين الناس في حالتها العاميّة الشعبية.

ما يهمّ قوله هنا، إن المثل ثابت في صياغته، على أي وجه كان، في البلد الذي يتم تداوله فيه. وقيمته في هذه العلاقة معه، وكذلك أهميته. فالمثل يظهر، عفو الخاطر، أو بعد تأمل سريع، في لحظة الحاجة إليه. وذلك بتثبيت ما يقال من كلام مشابه للمعنى الذي صيغ من أجله في لحظة ظهوره الأول، ومن ثم يصير مثلاً سائراً بالتكرار. فعندما يقول أحدهم باللغة الفصحى « وافق شنّ طبقة»، فإنه يريد أن يقول إن هذين الزوجين، وهما موضوع حديث ما، متوافقان ومنسجمان، ومتشابهان في خصالهما، كما توافقت هذه الصفات مجتمعة، بين شنّ وطبقة، موضوع المثال. وإذا قيل «طبّ الجرة عتمّا بتطلع البنت لأمّا»، فهذا القول يأتي

خلاصـة لحديـث عـن التشـابه في الخصـال أو الجـمال أو السـيرة بـين البنـت وأمهـا... وهكـذا.

الأمثال الشعبية، الوظيفة والدور

المثـل إنتـاج مجتمعـي يشـكّل خلاصـة تجـارب الحيـاة الإنسـانية في علاقـات النـاس وتفاعلاتهـم ومسـالكهم اليوميـة، في كل مـا فيهـا من مواقـف وتوجّهات، غاياتهـا الأساسـية تهذيـب النفـوس وتنبيـه العقـول، وصقـل الممارسـات لتتناسـب مـع الفطنـة والتهذيـب، وتسـليط الضـوء عـلى مـا يمكـن أن يفيـد، والحـث عـلى الابتعـاد عـن الرذيلـة، ومـا يمكـن أن يشـوّش النفـس وإبعادهـا عـن رذائـل الدنيـا، والعمـل بمـا يرضـاه الديـن، ويقـرّه العقـل، وتسـتوجبه الأخـلاق الفاضلـة.

جـاء المثـل ليضـع في ذهـن المتلقّـي في المناسـبات التـي تسـتدعيه، خلاصـة مـا يظهـر أمامـه مـن وقائـع وأحـداث، عـلى سـبيل الافـادة مـن درس عـرض لـه عـلى شـكل فعـل أو موقـف، أو مناسـبة يمكـن اسـتخلاص العـبرة مـن أي منهـا. والعـبرة هنـا تتلخـص في عبـارة بسـيطة يمكـن أن تحتـوي المشـهد بكاملـه. فتترسـخ هـذه الخلاصـة في الذهـن، ويتجـاوز تأثيرهـا مـا يمكـن أن يتعـرّض لـه المشـاهد أو المشـارك في مـسرى طويـل مـن حياتـه العمليـة، فتبقـى حيـة في ذاكرتـه، ويسـتحضرها لحظـة الحاجـة إليهـا، أو عـلى الأقـل يسـتعيدها بينـه وبـين نفسـه. ذلـك أن المثـل يفعـل في النفـس مـا تعجـز عنـه وسـائل أخـرى، إن كانـت دروسـاً أو تجـارب أو أنواعـاً مغايـرة مـن التفاعـل الإنسـاني. والمثـل يفعـل في النفـس بقـدر مـا تتعـرض هـذه، إلى التجـارب والممارسـات العمليـة. ويـزداد فعلـه في النفـس بوتـيرة متصاعـدة ومؤتلفـة ومطّـردة مـع الزيـادة في سـنين العمـر. لهـذا يغتنـي الإنسـان بمـا يتراكـم عنـده مـن أمثـال، ويصـير قـادراً عـلى التلفّـظ بمـا يختزنـه منهـا، حسـب الموقـف أو المناسـبة التـي يجـد نفسـه فيـه أو فيهـا.

لذلك من المهم القول إن المثل حاضر في تجليات حياتنا العملية. ويمكن أن يكون درساً لصغار السن، وعبرة للشبان، وترسيخاً لفهم الكبار، وتثبيتاً للإيمان به. وعليه، يمكن اعتبار المثل ذا وظائف متنوعة، تبدأ بالوظيفة النفسية التي تغذّي الإنسان الفرد، وتعمل على توجيهه ليكون متوازناً مع ذاته، وقادراً على التفاعل مع الآخرين، بالوعي والثقة اللازمين. والوظيفة الأخلاقية التي تبيّن للإنسان الفرد أهمية التحلّي بالأخلاق الفاضلة والتواضع وحب الأثرة، والتضحية والتعاون والتفكير بالآخرين، والعمل على الارتقاء الاجتماعي دون الإضرار بالغير. وكذلك الحال، في قيام المثل بوظيفته الدينية من خلال ترسيخ الإيمان بالله، والعمل بما يرتضيه الدين، إن كان في التشجيع على ممارسة الشعائر الدينية، أو في كيفية التعامل مع الوالدين، ومع بقية الناس، وفي التشجيع على ممارسة الحياة اليومية بما ينسجم مع الإيمان. وللمثل أيضاً الوظيفة العلمية التي تتجلى في توسل المنطق والعقل في استخلاص النتائج من المواقف والأحداث، ما يجعل من السهولة تعلّم ما تفصح عنه، من حكمة أو خلاصة يكون للمنطق فيها الفعل الظاهر، وللعقل القدرة على تمييز الخطأ من الصواب، وترجيح الأصحّ على ما هو صحيح. ويبقى أن للمثل الوظيفة الأهم، وهي الوظيفة التربوية التعليمية، إذ يُعتمد عليه في تلخيص التجارب والأحداث، بلغة بسيطة وسهلة الفهم، وبمتناول الجميع للإفادة بما تقدّمه لأخذ العبرة، والتشجيع على الفعل الإيجابي، والابتعاد عما هو مضرّ أو سلبي في مجريات الحياة اليومية، وفي العلاقات بين الناس، أو حُسن التصرف في المواقف الحرجة، والأوقات الصعبة التي يمكن أن يمرّ فيها أي إنسان.

الوظيفة النفسية

يلجأ الفرد منا إلى المثل من أجل تعزية النفس وتهدئتها من ضروب العذاب واليأس والمشقة، من أجل التقليل من أهمية ما يتعرّض له،

والعمل على تجاوزه، باستحضار الأمثال التي تساعده على ذلك. «فالدهر دولاب»، إذ لا بد من تجاوز المحن والنكبات التي يمكن أن تصيب الإنسان، فيعمل على تهيئة النفس على استقبالها والتعاطي معها بأقل ما يمكن من الحزن أو الشعور بالخسارة، لأن «اللي كاتبو ربّك بدو يصير»، و«الصبر مفتاح الفرج». وبالصبر وعدم الاستعجال يمكن الوصول إلى الغاية، لأن المثل يقول: «من صبر نال ومن لجّ كفر». ومن أجل أن تهدأ النفس وتستكين لا بدّ من جرعة مهدّئة لأن «اللي ما له حظ لا يتعب ولا يشقى». وأذا رزقت بولد فلا تُشغل بالك إذا كنت في حالة عسر، لأن «ربنا بيبعت الولد وبيبعت رزقه معه»، وإذا وقع أحدهم في ضيق أو مرض، فـ«اللي إلو عمر ما بتقتلو شدة». ومن أجل إراحة النفس بالاتّكال على خالقها، لا بد من القول إن «مولاها ربي». ولأنني أتشاطر الحياة مع أناس آخرين، فلأقل: «بحط راسي بين الروس وبقول يا قطاع الروس». «والموت مع الكترة حلو». «ويا نفسي هوني ومن الناس كوني». والانطلاق من القضاء والقدر، يمكن أن يكون بلسماً للنفس القلقة والحزينة لأن «الدني بتنهزّ وما بتوقع». وإذا أردت أن تعيش مطمئناً ومرتاح البال فما عليك إلا تنفيذ ما يقوله المثل في هذا المجال: «إذا بدك تستريح شو ما شفت قول منيح».

الوظيفة الأخلاقية

من المهم القول إن الأخلاق هو عماد التعامل بين الناس. ذلك أن التعاون والمشاركة في الحياة الواحدة، وكذلك طرق التفاعل الاجتماعي تقضي باعتماد القيم الأخلاقية الإيجابية في التعامل، ونبذ القيم الفاسدة والسلبية. من هنا، جاءت الأمثال الشعبية لتركّز على ما يمكن أن يدعم طرق التعامل بين الناس باعتماد القيم التي تنشر المحبة والتسامح والغفران والتعاون واعتماد الصدق، والتشجيع على انتهاج مسالك المروءة والشهامة والشجاعة، ومباركة الكرم، وغيرها من القيم الإنسانية الإيجابية، دون أن

يعنـي ذلـك تجاهـل قيـم الفسـاد والكـذب والغـش والاحتيـال، والظهـور بغـير المظهـر الحقيقــي، والبخـل والأنانيـة. ذلـك أن المقارنـة بـين مـا هـو سـلبي وإيجـابي مـن هـذه القيـم، تسـهّل الاسـتيعاب وترسـخ التنشـئة الأخلاقيـة لمتلقّيهـا مـن خـلال التدريـب لتنميـة القـدرة عـلى التمييـز بـين مـا هـو إيجـابي ومـا هـو سـلبي منهـا. فعندمـا ينتـشر مثـل «حبـل الكـذب قصـير»، يصـير مـن السـهل عـلى الفتـى أو الفتـاة أن يـدركا مغبّـة الكـذب الـذي لا بـد إلا أن ينكشـف في النهايـة.

وإذا كان الموقـف يسـتدعي طـول الأنـاة والصـبر، فـلا بـدّ مـن القـول إن «الشـجاعة صـبر سـاعة». أمـا الطمـع، فهـو آفـة اجتماعيـة تـضرّ أكـثر مـما تنفـع، «الطمـع ضرّ مـا نفـع» و«الطمـع طاعـون». وإذا أردت شـيئاً مـن صديقـك، ومـن ثـم طلبـت المزيـد، عليـك أن ترتـدع «لأن حبيبـك إذا كان عسـل لا تلحسـه كلّـه». أمـا البلاغـة في وصـف السـارق، فهـي أنـه «يـسرق الكحـل مـن العـين». أمـا الذيـن لا يردعهـم الحيـاء، فإنهـم يمهّـدون لـزوال الخشـية مـن الضمائـر، «الـلي اختشـوا ماتـوا»، ويقـال هـذا المثـل عندمـا يقـوم المـرء بعمـل فيـه الكثـير مـن الوقاحـة والسـفالة. أمـا الحـرّ فـلا تخـشَ منـه لأن «وعـد الحـر ديـن». ويقـال عـن صاحـب الأخـلاق الفاسـدة، مـا كان كذلـك لـو كانـت تربيتـه سـليمة، ذلـك أن الوالديـن إذا كانـا فاسـدين وصاحبـي سـيرة سـيئة، فـلا بـد إلا أن يكـون إبنهـما كذلـك، لأن إذا كان «بيّـو بصـل وأمّـو تـوم مـن ويـن بـدّا تجـي الريحـة الطيبـة». أمـا التوصيـة بالكـرم، فهـي تـتردّد دائمـاً في الأمثـال: «إذا أللـه أطعمـك كـول وطْعـام». و«بـيّن عـذرك ولا تبـيّن بخلـك». وإذا عُـيّر أحـد ببخلـه، قيـل: «أبخـل مـن كلـب». ومـن الملاحـظ هنـا أن التعيـير بالبخـل يعنـي تحبيـذ الكـرم وتبنّيـه. والكـرم يغطـي عيوبـاً كثـيرة يمكـن أن يبتـلي بهـا الإنسـان؛ ذلـك لأن «مـا في عيـب إلا والكـرم غطـاه». ولأن الرذيلـة مـن المثالـب الأخلاقيـة، «فالرذيـل بيـورّث لأهلـه المسـبّة». والتكـبّر والعجرفـة مـن المثالـب الأخلاقيـة أيضـاً، لذلـك فـإن «ربّنـا مـا بيحـب لا متكـبّر ولا متجـبّر». أمـا الوفـاء فإنـه مـن شـيم الكـرام، وقـد جـاءت التوصيـة لتقـول:

«لا تـشرب مـن البـير وترمـي فيـه حجـر».

الوظيفة التربوية والتعليمية

كان نقـل القيـم الاجتماعيـة والدينيـة في الأزمنـة القديمـة يقـوم عـلى القـول والمشـافهة بـين النـاس، وبـين الأجيـال، وخصوصـاً في عمليـة التنشـئة والتربيـة المنزليـة، في الوقـت الـذي كان التعليـم يقتـصر عـلى الخاصـة مـن النـاس، وعـلى ذوي اليـسر مـن العامـة. ذلـك أن مشـاركة المدرسـة للأهـل، في نقـل المعرفـة بالتعليـم والتنشـئة، حديثـة العهـد في البلـدان العربيـة. ومـا كان لنقـل المعرفـة أن يتـم قبـل ذلـك إلا بنقـل حصيلتهـا مـن الآبـاء إلى الأبنـاء والأحفـاد، بصـورة متلاحقـة عـبر الأجيـال. مـن هنـا، نفهـم كيفيـة صـوغ المثـل بكلماتـه المقتضبـة والعاميـة والمعـبّرة، بالبلاغـة اللازمـة والوضـوح التـام لفهمـه وتناقلـه. فالتعبـير المختـصر والبليـغ، وخصوصـاً المسـجّع، وبالعاميّـة، يسـهل حفظـه، ويكـثر تـرداده لانطبـاق لحظـة قولـه في موقـف معـيّن، عـلى الموقـف المشـابه الـذي صيـغ فيـه لأول مـرة. فيعطـي ذلـك للمثـل القـدرة عـلى الاسـتمرار والتـداول. وهـو في هـذا المنحـى يتماثـل مـع الزجـل الـذي يسـهل حفظـه لاعتمادهـما عـلى الـوزن والقافيـة أو السـجع، أو التقابـل والتضـاد باللغـة السـهلة تركيبـاً وفهـماً واسـتيعاباً.

كان انتقـال المثـل عـبر الأجيـال يتـم بهـذه الطريقـة. وللتأثـر بالأمثـال وأخـذ العـبر منهـا، كسـبيل مـن سـبل التنشـئة الاجتماعيـة، لا بـد مـن خـوض معـترك الحيـاة والخضـوع للتجربـة عـلى أنواعهـا في التعاطـي بـين النـاس، والتعـرّض لشـتى أنـواع هـذه العلاقـات، لاكتسـاب الخـبرة، مـن ناحيـة؛ وللتعـرض إلى مـا يمكـن أن يقولـه المثـل في لحظـات التجربـة هـذه، مـن ناحيـة ثانيـة. لذلـك قيـل «لا تعلّـم إبنـك، الدهـر بيعلّمـو». والتعلّـم هنـا هـو مـا ينشـأ عليـه الإبـن في أسرتـه ومحيطـه مـن صنـوف التعلـم والتنشـئة التـي عـادة مـا تكـون نظريّـة لا يمكـن الافـادة منهـا إلا بالتجربـة واكتسـاب الخـبرة. وهـذا يعنـي أن التجربـة تتقـدم عـلى النظريـات والأفـكار. لذلـك قيـل «سـآل مجرّب ولا تسـأل

حكيم»، والحكيم هنا صاحب الكلام النظري أو الفيلسوف الذي يمكن أن ينطق بالحكمة، ولكن هذه الحكمة ما هي إلا خلاصات التجارب، وتصبّ هنا في مجرى الأمثال. فالتجربة مولّدة للحكمة، كما هي مولّدة للمثل أيضاً. «فالتجربة أكبر برهان» ذهبت مثلاً. و«العلم في الصغر كالنقش في الحجر» ذهب مثلاً وإن انطلق من موقع الحكمة. وستكون لنا مناسبة للتفريق بين المثل والحكمة، وإن كانت الغاية واحدة.

من الأمثال ذات الوظيفة التربوية ما قيل ليتربّى الإبن حسب ما تقتضيه العادات والتقاليد، والحفاظ على روحية المجتمع بتوارث الخصال الحميدة من السلف إلى الخلف، في الشكل الذي يحافظ على استمرارية المجتمع في إيقاعه القائم على السلطة الأبوية، والطاعة واحترام كبير السن، والتأدب في إبداء الرأي الذي عليه أن لا يخرج عن السياق العام. لذلك جاءت التربية لصقل نفسية الإبن «لأن الطير المربّى غالي». و«إبنك الصغير ربّيه ولما يكبر خاويه». ولأن التربية كانت تقوم على العنف والضرب ليصير الإبن طيّعاً وطائعاً، وليكون مستكيناً على الطريقة التي يريدها الأهل، وبالتالي تحمّل المسؤولية في الطريقة التي تؤمّن استمرارية الرتابة في حياة الأسرة على النمط الذي كان سائداً من قبل؛ ولأن الغنج والدلال يذهبان بالإبن إلى أماكن أخرى، أقلّها تأثيراً الاتكالية والعجز، وصولاً إلى التبطل والانحراف، ظهر المثل الذي يقول: «الله لا يرحم اللي ضحّكني، ويرحم اللي بكّاني». وتحوّل هذا المثل مع تحوّل نمط الحياة إلى «قلبي على ولدي وقلب ولدي عالحجر». ذلك لأن نمط العلاقة مع الأهل تغيرت بتغيّر النظرة إلى المصلحة بين جيل الأهل وجيل الأبناء. ولأهمية توارث الخصال والعادات قيل «الصغار بيمشو ع دعسات الكبار». و«إبنك إلك وبنتك لغيرك»، ويزيد الأمر وضوحاً المثل الذي يقول «إبن إبنك إلك، إبن بنتك لغيرك» للتأكيد على أهمية ترسيخ البنية الأبويّة في النظام القرابي العربي، وليتربى الإبن عليها وتصير من العناصر الأساسية في البنية الذهنية العربية.

أما بالنسبة للوظيفة التعليمية، فقد جاءت الأمثال لتبيّن أهمية التعلّم. فـ«الدارس غلب الفارس». ما يعني أن القيمة الاجتماعية انتقلت من قوة العضلات والصمود على ظهر الحصان، إلى المتعلم الذي يفكر بعقله، ويقيس الموقف قبل الإقدام على أي خطوة. وكثيراً ما كنا نسمع المثل الذي يقول: «الإعادة فيها إفادة»، وهو المثل الفصيح للقول العامي: «التكرار بيعلّم الحمار». ولأن التجربة والخبرة زادا المعرفة والتعلم، جاء المثل الذي يقول: «الإنسان ما بيتعلم إلا من كيسو». وأكثر ما يقال هذا المثل عند الخسارة أو فقدان شيء ثمين نتيجة الإهمال. وكذلك الموت في سبيل الفهم والعلم أفضل من العيش في الجهل: «مُوت فهيم ولا تعيش بهيم».

الوظيفة الدينية

إعتمد الدين، أي دين، على الأمثال لترسيخ الإيمان في النفوس، ولتقريب ما يقرّه الدين إلى الأذهان بالصيغة المناسبة لكل العقول. ذلك أن الدين جاء لكل الناس. وعلى كل الناس أن يستوعبوه على قدر عقولهم. وقد سرت التوصية «حدّثوا الناس على قدر عقولهم، أتريدون أن يكذب الله ورسوله»؟ مسرى المثل. ما يعني أهمية التوجه إلى الناس حسب مقام كل منهم، وحسب قدرته على الاستيعاب. وتأتي الأمثال الدينية لتقوم بوظيفة التوصية للتمسك بالدين وتنفيذ إجراءاته العملية الدالّة على الإيمان والتقوى، بالإضافة إلى تقديم النصائح في ما يجب فعله، وفي ما يجب الابتعاد عنه، أو النهي عن ممارسته.

ظهرت الأمثال في المسيحية لتساهم في نشر الإيمان والتخلق بالأخلاق الحميدة، والتحلّي بالصفات الحسنة، واعتماد القناعة والبساطة نهجاً في الحياة. ففي القول: «إعطنا خبزنا كفاف يومنا» دعوة إلى القناعة والبساطة، وصارت مثلاً. و«كما تزرع تحصد» صارت مثلاً يدل على أن ما يفعله الإنسان لا بدّ أن يلقى نتيجته، إن كان خيراً فخير، وإن كان

شراً فشرّ. وكذلك ينبّه المثل الديني من الوقوع في المبالغات الإيمانية من خلال القول: «الدير القريب ما بيشفي». ويلحظ أيضاً عدم اهتمام المجتمع برجالاته الكبار لأن لا «نبيّ في وطنه».

بالإضافة إلى ذلك، استوحى مبدعو الأمثال من المناسبات الدينية المسيحية، ومن تقويمها السنوي أمثالاً كثيرة، تُرسّخ الإيمان، من جهة؛ وتربط بين هذه المناسبات ودورة الحياة العملية، حسب كل بلد من البلدان، من جهة أخرى. ففي بلاد الشام ظهر المثل الذي يقول: «بعد عيد الصليب (14 أيلول/ سبتمبر) كل شي بيسيب»، ما يعني أن كل ما بقي من الفواكه بعد جني المحصول، وكل أخضر، يصيران مشاعاً عاماً يأكل منه الناس والحيوان. و«بـ عيد الرب نقّ الحَبّ (6 آب/ أغسطس)؛ وهذا يعني أن موسم حصاد القمح انتهى وما على الفلاح إلا أن ينقّي حبوب القمح من الزؤان والحصى ليتيسّر طحنه أو سلقه، كمؤونة للسنة القادمة من الطحين والبرغل. أما في عيد مار الياس (20 تموز/ يوليو)، فيمكن للمضيف أن يقدم لضيوفه العنب وهو مرتاح البال، لأن العنب ينضج ابتداء من هذه المناسبة: «بـ عيد مار الياس حطّ العنب للجلّاس». وإذا كان هذا المثل يُفصح عن محليّته، باعتبار أن العنب ينضج في أوقات متفاوتة في البلد الواحد بين ساحله وجبله، أو بين هذا النوع من العنب أو ذاك، فإن هذا يدلّ على كيفية ابتداع المثل من الواقع المعيش بعد المراقبة والملاحظة، للوصول إلى الاستنتاج. ويمكن لهذا المثل أن ينتج في طريقة مغايرة من خلال الربط بين مناسبة ما، وما تجود به الطبيعة من الثمار أو المحاصيل. أما المثل الذي يحذّر من البرد وقساوة الطقس في الشتاء، فقد جاء ليحدّد الفترة الأقسى التي تستوجب الحماية من تداعياتها؛ يقول: «بين المولود والمعمود بتوقف الميّ عامود». وهذا يعني أن الفترة الممتدة من عيد الميلاد (25 كانون الأول/ ديسمبر) وعيد الغطاس (6 كانون الثاني/ يناير) يصل الصقيع إلى درجة تجميد المياه في المزاريب فتصير كالعمود المتدلي من السطح إلى الأرض. هذا المثل أيضاً

ناشئ عن الملاحظة، ويختصّ بالمناطق الجبلية اللبنانية التي تغطّى بالثلج، وتتحوّل مياهها إلى جليد. ولكن هذا لا يحصل في الساحل، ولا في الكثير من البلدان العربية التي يطغى عليها الحرّ، وتنتج بالتالي أمثالاً مؤتلفة مع هذا المناخ.

أما الأمثال ذات الوظيفة الدينية الإسلامية، فقد جاءت لتؤكّد على المنهجية نفسها بتوسّل الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال السلف الصالح، للحضّ على الإيمان والتمسك بأهداب الفضيلة، والعمل بما يرضي الله. وقد شجّع القرآن على رواية المثل: «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها»[18]. ولأن الدين الاسلامي من المصادر الأساسية لمكارم الأخلاق والبر بالوالدين وآداب التعامل بين الناس، فقد جاءت أقوال كثيرة لتحثّ على الممارسة بما يقوله الدين، أو بما يقال باسم الدين من قبل النبي والفقهاء والعاملين على نشره بالحكمة والموعظة الحسنة اللتين ذهبتا، بما تحتويهما من البلاغة وحسن الوقع في النفس، مذهب الأمثال لكثرة تداولهما. فإذا سمعنا المثل القائل "أفضل الزاد ما تزوّد للمعاد"، فهذا يعني أننا أخذنا بنصيحة آية قرآنية تقول: «.. وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى..»[19].. و«كون مع الله ولا تبالي مستوحى من الآية القرآنية: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم»[20]. وكذلك في كل مسائل التوكّل والإيمان بالقضاء والقدر التي ذهبت أمثالاً.. و«على الله فليتوكّل المؤمنون»[21]. «والشكوى لغير الله مذلة».

وفي الأحاديث النبوية الكثير من الحكم والوصايا التي ذهبت مذهب الأمثال، منها، للدلالة على أهمية المثل للترفيه وأخذ الدروس بعد التعب

18 . سورة البقرة، الآية 26.

19 . سورة البقرة، الآية 197.

20 . سورة آل عمران، الآية 160.

21 . سورة آل عمران، الآية نفسها.

والملل: «إن القلوب تملّ كما تملّ الأجسام، فاهدوا إليها طرائف الحكمة». ومنها: «أعقل وتوكّل»، وهو مثل بليغ يوصي بالقيام بما هو مترتب على المرء، ومن ثم يتوكّل على الله. وكذلك القول: «الساعي بالخير كفاعله»، وهو ما يدل على أهمية السعي لفعل الخير وإن كان لم يثمر، فأجره محسوب وكأنه فاعل الخير نفسه.

ومنها ما هو مأخوذ من التراث الأدبي الإسلامي ويدل على مواقف محددة. فمن يخلط في حديثه بين أحداث متفرقة لا يربطها رابط يقال له: «عم تخلط شعبان برمضان». ومن لا يعجبه شيء يقال له: «ما بيعجبو عجب ولا الصيام برجب». أما الذي يدّعي المعرفة وهو جاهل يقال له: «من معرفتو بالصحابة بيصلّي على عنتر». ولإظهار أهمية الصلاة في وقتها، جاء المثل ليقول: «الصلاة في وقتها حسن في دنيا وما فاتها». ولأهمية الصبر كقيمة دينية، يقول المثل: «الصبر دوانا». هذا غيض من فيض.

الأمثال، الإرشاد والتوجيه

على أي حال، جاء المثل الشعبي، على أي وجه كان، ومهما كانت وظيفته، ليقوم بنشر خلاصات التجارب الإنسانية في شتى مناحي الحياة. وهو لذلك، يفصح عن رأي ما في مسألة ما، دون مواربة، وبالنقد اللازم. ذلك أن مبدعه لا يخاف لومة لائم لأنه مجهول، وقائله لا يتوانى عن قوله لأنه مثل. لذلك احتوى المثل على كل ما يشجّع الإنسان على الاقتداء بمضمونه ؛ في حال كان المثل يتناول أي قضية اجتماعية أو سياسية أو قيمية إيجابية، من ناحية؛ وعلى الابتعاد عما يشكل مفسدة أو شذوذاً عن الطريق المستقيم، إذا كان يتناول أي ظاهرة مجتمعية سلبية، من ناحية ثانية. وذلك كله، على قدر ما تقبله وتعتمده العادات والتقاليد والأعراف في كل مجتمع، أو ما تنفر منه وتستقبحه.

وفي الحالـة التـي تفـرض التعاطـي مـع المثـل في طـرق مغايـرة، يكـون لهـذا التعاطـي مبرراتـه التـي يمكـن أن تكـون متناقضـة، تسـتهدف إمـا السـلامة الشـخصية والتعبـير عــن الفردانيـة، وإمــا التضحيـة في سـبيل الجماعـة والمجتمـع. فـإذا كان لا بـد مـن الخسـارة إنقـاذاً لكلمـة معطـاة ولا يمكـن الرجـوع عنهـا باسـم الرجولـة والشـهامة، يـأتي المثـل ليقـول: «ميّـة غلبـة ولا قلبـة». ولكـن بالمقابـل ثمـة مـن يعتمـد المثـل المناقـض: «ميّـة قلبـة ولا غلبة». وكذلـك الحـال بالنسـبة للمثلـين التاليـين: «ميّـة كلمـة أللـه يرحمـو ولا كلمـة جبـان» مقابـل: «ميّـة كلمـة جبـان ولا أللـه يرحمـو». ومـا يقدمـه لنـا التاريـخ مـن مواقـف فضّـل أصحابهـا المـوت عـلى الهـرب أو الاستسـلام أكـثر مـن أن تحـصى. وفي المجـال نفسـه، يـأتي المثـل « بْعَـاد عـن الـشر وغنّيلـو» مقابـل المثـل: «السـاكت عـن الحـق شـيطان أخـرس».

ومـما لاشـك فيـه أن الأمثـال الوعظيـة التعليميـة أكـثر وقعـاً في آذان السـامعين والمتلقّـين مـن بقيـة الأمثـال التـي تتعاطـى النظـر في العلاقـات الإنسـانية، وتلخّـص رأيهـا فيهـا. والمتلقّـي لهـذ النـوع مـن الأمثـال يجـد أنهـا تعنيـه مبـاشرة، لأنهـا تطـول جوانـب كثـيرة مـن شـخصيّته، عليـه أن يعدّلهـا لتتناسـب مـع هـذا المثـل أو ذاك. فـ «الصـبر مفتـاح الفـرج» يعنيـه كـما يعنـي غـيره مـن النـاس، و«مـين جـد وجـد» يعنيـه مبـاشرة أيضـاً، وكذلـك « اللـي بيحـرث العيـب بيحصـد الندامـة». ومـن أجـل تجنّـب الوقـوع في المغالـط، نتيجـة حسـن النيـة، وطيبـة القلـب، يقـول المثـل متسـائلاً: عرفتـو منيـح؟ إيـه.. عاملتـو؟ لأ.. لَكَـن مـا بتعرفـو». وبهـذا يكـون المثـل أداة تعليميـة موجهـة للسـلوك الإنسـاني، مبـاشرة أو مـداورة، بتقديـم نمـاذج بشريـة شـاذّة، أو إبـراز سـلوك اجتماعـي قبيـح. والمثـل في هـذه الحالـة يريـد أن ينفّرنـا مـن هـذه النـماذج، أو هـذا السـلوك، وكأنـه يريـد أن يقـول: لا تفعلـوا هـذا السـلوك. أو لا تكونـوا مثـل هـذه النـماذج الشـاذة السيئة. فالمثـل، إذن، يعمـد إلى توجيـه السـلوك الإنسـاني بأسـلوب ظريـف لطيـف خفيـف عـلى النفـس، يخلـو مـن الطابـع الخطـابي الوعظـي المبـاشر، ويجسّـد العيـب الاجتماعـي تجسـيداً

يجعلنا نبذه، وننفر منه تماماً، ليسلم منه المجتمع. فالأمثال، إذن، تقوم في شكل عام بإبراز العيوب الاجتماعية من خلال نقدها بإظهار أضرارها، ومدى خطورتها. وعلى المتلقين بعد ذلك أن يتصرّفوا.

الأمثال، المرجعية والمصادر

من المهم التأكيد على أن الأمثال الشعبية وليدة تجارب الناس في حياتهم اليومية. وعندما يتم تداول مثل من الأمثال لا يحضر في ذهن الناطق به أو المتلقّي أن يسأل عن مصدره، أو عن الطريقة التي وصل بها إليه. فالمثل يعبر عن حالة حاضرة باستحضار حالة مشابهة حصلت في الماضي. وبلاغة استحضاره تعدِل بلاغة محتواه وتطابقه مع الحالة الحاضرة. إلا أن ذلك لا ينفي تعدّد مصادر الأمثال، كما تعدّد مواضيعها. فالمثل الذي يقال في منطقة محددة، يمكن أن يكون نتاج هذه المنطقة، في القدر نفسه من كونه نتاج منطقة قريبة أو بعيدة، ووصل إليها عن طريق التفاعل بين المتحدات الاجتماعية التي يسهل فيها التنقل والتواصل، ويكثر فيها النزوح والتفاعل في الأزمنة التي لم يكن من المتاح فيها سوى اللقاء المباشر، إما عن طريق البيع والشراء، أو عما يخلّفه النزوح، أو الهجرة، من فرصة للتلاقي وتبادل الكلام. هذا إذا كان المثل ينتقل شفوياً من فم القائل إلى أذن السامع أو السامعين.

الإنتقال الشفهي

وعليه، يمكن أن تكون الحكاية الشعبية، أو السيرة، أو رواية الأسطورة، مصادر أساسية للمثل الشعبي. كما يمكن أن يكون موقفٌ ما وُضِع فيه قادم غريب مبعثاً لقول مثل منتشر في بلاده، فيلقى الإعجاب والترحيب من متلقّيه، ويكون ذلك سبباً في انتشاره في البيئة الجديدة. وليس ثمة برهان أكثر من تداول أمثال شعبية متماثلة في الكثير من البلدان العربية، في شرقها وغربها. كما أن التشابه في أنماط الحياة بين بلدان

متعـددة تتكلـم اللغـة الواحـدة، وإن بلهجـات مختلفـة، وتخضـع لعـادات وتقاليـد وأعـراف متشـابهة، ينتـج ردود أفعـال متقاربـة في مواجهـة موقـف معـين، أو حادثـة طارئـة. وقـد رأينـا في الفصـل السـابق مـا يـدل عـلى ذلـك مـن خـلال التشـابه في الكثـير مـن الأمثـال، ليـس في المعنـى، فحسـب، بـل أيضـاً في مبنـى المثـل وفي طريقـة إلقائـه.

هـذا عـلى صعيـد التناقـل الشـفهي المبـاشر، أو التشـابه في المواقـف المنتجـة للأمثـال الشـعبية. إلا أن ثمـة مصـادر أخـرى لا تقـل أهميـة، منهـا: مـا جاءنـا مـن الـتراث العـربي القديـم، نـثراً وشـعراً، ومـن المصـدر الدينـي الغني بالإرشـاد والتوجيـه والموعظـة الحسـنة، والمصـادر غـير العربيـة التـي وصلـت إلينـا عـن طريـق التثاقـف.

التراث الأدبي العربي

في الأدب العـربي القديـم أمثـال كثـيرة معـبّرة تناقلهـا أدبـاء كـثر في مجلـدات ضخمـة، تبـيّن مـدى اهتـمام العـرب بالأمثـال، ومـدى حرصهـم عـلى حفظهـا وصونهـا، لتصـير بـين أيـدي الأجيـال اللاحقـة. وقـد رأينـا أعـلاه بعضـاً مـن هـؤلاء. إلا أن الفضـل يعـود إلى الخاصـة الذيـن جعلـوا مـن هـذا الكنـز مصـدراً أساسـياً لتسـهيل التـداول بالمثـل مـن خـلال تحويلـه مـن اللغـة الفصحـى الرسـمية، إلى اللهجـات العاميّـة المنتـشرة عـلى امتـداد العـالم العـربي.

لقـد اسـتقت الأمثـال مـن الـتراث العـربي الشـعري والنـثري الكثـير منهـا في الموضوعـات المتعـدّدة التـي شـملتها الأمثـال. فالموضوعـات الوطنيـة كان لهـا نصيـب، «بـلادي وإن جـارت عـليّ عزيـزة». وفي أهميـة بنـاء النفـس: «أصـل الفتـى مـا قـد حصـل». وفي معاكسـة الأيـام للمُجـدّ المجتهـد: «تجـري الريـاح بمـا لا تشـتهي السـفن». وفي بقـاء الحـب الأول الـذي لا يمـوت: «مـا الحـب إلا للحبيـب الأول». وقـد ظهـر منهـا أمثـال كثـيرة أيضـاً. وقـد جـاءت هـذه الأمثـال كأجـزاء مـن أبيـات شـعرية،

هـي عـلى التـوالي لـكل مـن الشـعراء: لم يُتفـق عـلى قائـل البيـت

الأول، ويقـال إنـه محـرّف عـن مطلـع لقصيـدة قديمـة[22]، وإبـن الـوردي، والمتنبـي، وأبـو تمّـام.

بلادي وإن جارت علـيّ عـزيـزة   وأهـلي وإن ضنـوا عـلي كـرام

لا تـقـل أصلـي وفـصلي أبـــداً   إنـما أصـل الـفتى ما قـد حـصل

ما كل ما يتمنى الـمرء يـدركـه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى   مـا الـحــب إلا لـلحـبـيـب الأول

هـذا عـلى صعيـد الشـعر بالفصحـى. أمـا عـلى صعيـد النـثر فقـد ظهـرت أمثـال كثـيرة مثـل: «مـن جـدّ وجـد»، «مـن زرع حصـد»، «إزرع ولا تقطـع»، «السـاكت عـن الحـق شـيطان أخـرس»، «الأعـمال بالنيـات». «الديـن المعاملـة».. وغيرهـا الكثـير.

هـذا طبعـاً، بالإضافـة إلى مـا قدمـه الباحثـون الأكاديميـون الـذي حققـوا ونـشروا كتبـاً أدبيـة كثـيرة، بحيـث وضعـوا هـذه الأمثـال بمتنـاول العامـة والخاصـة. وكذلـك الباحثـون في الـتراث الأدبي الذيـن انصرفـوا إلى جمـع الأمثـال مـن أفـواه العامـة، ونشرهـا لتصـير مكتوبـة بـين أيـدي النـاس والباحثـين عـلى السـواء. ومـن المفيـد أن نذكـر في هـذا المجـال، مـن القدمـاء: أبـو عبيـد البكري في كتابـه «فصـل المقـال في شرح كتـاب الأمثـال»، والعسـكري في «جمهـرة الأمثـال»، والميـداني في «مجمـع الأمثـال» والمـاوردي في «الأمثـال والحكـم»

22 . يقـال إن أول مـن قـال هـذا الشـعر هـو قتـادة بـن إدريـس فـي بدايـة القـرن الثالـث عشـر للميـلاد. وكان كمـا يلي:
بلادي وإن هانت على عزيزة   ولو أنني أعرى بها وأجوع.
ومـن ثـم ظهـر بيـت واحـد مشـابه لـه أو محـرّف عنـه لأبـي فـراس الحمدانـي وهـو المذكـور أعـلاه. أنظـر فـي هـذا الخصـوص، الموقـع التالـي:
http://www.eroshen.com/ejabat/index.php/2374

والزمخـشري في «المسـتقصى في الأمثـال»، وغيرهـم[23].

أمـا المحدثـون الـذي أعطـوا اهتمامهـم الأقـصى للأمثـال الشـعبية، فهـم كثيرون ومـن مختلـف البلـدان العربيـة؛ منهـم مـن اهتـم بجمع الأمثـال، وصنّـف فيها كتباً عديـدة، مثـل سـلام الـراسي؛ ومنهـم أيضـاً أنيـس فريحـة وميشـال فغـالي وفـؤاد افـرام البسـتاني وإميـل يعقـوب، وفـادي عبـود، وغيرهـم مـن لبنـان[24]، وعبـد المجيـد قطامـش مـن سـورية[25]، ومحمـد كـمال جـبر مـن فلسـطين[26]. أمـا الدراسـات الأكاديميـة فقـد أعدّهـا، عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر، حسـن السـاعاتي مـن مـصر حـول الأمثـال اللبنانيـة، وعبـد الـرزاق رحـم كأطروحـة دكتـوراه حـول الأمثـال الشـعبية اللبنانيـة، مـن مـصر أيضـاً[27]، بالإضافـة إلى الباحثـة نبيلـة ابراهيـم، وفـوزي العنتيـل، وحامـد طاهـر[28] وإبراهيـم أحمـد شـعلان[29]، وعـزة عـزت[30]، وغيرهـم؛ ومـن المغـرب: فاطمـة الزهـراء بـل عافيـة[31]،

23 . أنظر في هذا الخصوص للتفصيل:
إميل يعقوب، الأمثال الشعبية اللبنانية، مذكور سابقاً، ص ص19-21.

24 . المصدر نفسه، ص ص22- 24.

25 . عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، دار الفكر، 1988، دمشق.

26 . محمـد كمـال جبـر، المثـل الشـعبي الفلسـطيني، جامعـة النجـاح الوطنيـة، 2010، نابلـس.

27 . حسن الساعاتي، حكمة لبنان، جامعة بيروت العربية، 1971، بيروت.
عبـد الـرزاق رحـم، الأمثـال العاميـة اللبنانيـة وأثرهـا في المجتمـع، أطروحـة دكتـوراه، جامعـة القديـس يوسـف، 1982، بـيروت. نقـلاً عـن إميـل يعقـوب، الأمثـال الشـعبية اللبنانيـة، مذكـور سـابقاً، ص15- 16.

28 . حامـد طاهـر، الفلسـفة المصريـة مـن الأمثـال الشـعبية، دار الهـاني للطباعـة والنـشر، 2008، القاهرة.

29 . إبراهيـم أحمـد شـعلان، موسـوعة الأمثـال الشـعبية المصريـة، 6 أجـزاء، دار الآفـاق العربيـة، 2003، القاهرة.

30 . عـزة عـزت، الشـخصية المصريـة فـي الأمثـال الشـعبية، مركـز الحضـارة العربيـة، 2003، القاهـرة.

31 . فاطمـة الزهـراء بـل عافيـة، الأمثـال المغربيـة والبعـد الدينـي في الـتراث الشـفهي، دار مرسـم، 2013، الربـاط.

ومـن البحريـن: نايـف الـكلالي[32]. هـذا طبعـاً بالإضافـة إلى كتابـات متعـددة في مجـال الثقافـة الشـعبية، ومنهـا الأمثـال، في كل بلـد عـربي. وقـد ظهـرت مجـلات متخصصـة في هـذا المجـال، منهـا "الثقافـة الشـعبية" في البحريـن، و"الفنـون الشـعبية المصريـة" في مـصر، ومجلـة "الحداثـة" في لبنـان، وغيرهـا الكثـير.

المرجعية الدينية

بالإضافـة إلى التناقـل الشـفهي والأدب، كان الديـن ولا يـزال المصـدر الأسـاسي للأمثـال والحكـم التـي تدعـو إلى الإيمـان باللـه ورسـله وقديسـيه وأئمتـه الصالحـين. وقـد جـاء في القـرآن وفي الأحاديـث النبويـة الكثـير مـن الأمثـال والحكـم التـي شـكّلت وتشـكّل مسـاحات واسـعة مـن فـن الرسـم والزخرفـة الإسـلاميين تتصـدر بيـوت المسـلمين وغيرهـم في شـتى أنحـاء العـالم.

تُوجّـه الأمثـال الشـعبية سـلوك النـاس، متّخـذة مـن القيـم الدينيـة والأخلاقيـة مصـدراً أساسـياً لهـا. وتأخـذ مـن الآيـات القرآنيـة، والأحاديـث النبويـة، وأقـوال السـلف الصالـح، مـا ينـير سـبل المؤمنـين، إن كان بالنسـبة للصـلاة: «الصـلاة في وقتهـا حسـن مـن دنيـا ومـا فاتهـا». أو الصـوم أو القيـام بالعمـل الصالـح والإعـداد لليـوم الآخـر. والتـوكل عـلى اللـه: «كـون مـع اللـه ولا تبالي». والإيمـان بالقضـاء والقـدر: «المكتـوب مـا منّـو مهـروب»، والتمسـك بالصـبر الـذي هـو صنـو الإيمـان: «الصـبر مفتـاح الفـرج». هـذا طبعـاً، بالإضافـة إلى الأمثـال ذات المرجعيـة الدينيـة: «خلـط شـعبان برمضـان»، والتوصيـة بوصـل الأرحـام: «نقطـة دم ولا قنطـار محبـة»، والـبر بالوالديـن: «وبالوالديـن إحسـانا»، «أمـك، أمـك، أمـك، ثـم أبـوك». وطلـب العلـم: «طلـوب العلـم ولـو

32 . أنظر في هذا الخصوص:
عبـد الرحمـن سـعود مسـامح، الثقافـة الشـعبية، العـدد 3، خريـف 2008، ص ص192-195.
وقـد قـدم مطالعـة لكتـاب لآلـئ الحكمـة الموضـوع بالإنكليزيـة لتعريـف الغـرب عـلى الأمثـال الشـعبية البحرينيـة لمؤلفـه نايـف الـكلالي، وهـو يضـم شرح 342 مثـلاً، يقـول إنهـا بحرينيـة.

بالصين». ووضع الصدقة في مكانها: «ما تجوز صدقة وأهلها جياع». «إذا لزم الزيت لصاحبو بيحرم عالجامع».. كما ظهرت الأمثال النقدية التي تصف المتظاهر بالتديّن وهو منه براء: منها «حية من تحت قش»، أو «مي من تحت تبن»، «بيفتي على إبرة وبيبلع مسلة»، و«عامل إمارة وأخته بالخمارة»، و«طلع من المولد بلا حمّص» وغيرها، أيضاً، مما جرى مجرى الأمثال من الحِكم والمواعظ الدينية الإسلامية.

وفي المسيحية ظهرت الأمثال المرتكزة على الإيمان الديني، وعلى سيرة القديسين، لتكون محفّزة للسير على هدي المسيح وتعاليمه: «ما مين ما قال يا الله يدخول ملكوت السموات». «ما حدا بيقدر يرضي الله وعبيدو». وظهرت أيضاً الأمثال التي تنتقد الممارسة الدينية التي لا تتماثل مع الإيمان الحقيقي: «الدير القريب ما بيشفي». و»لا نبي مكرّم في وطنه». وكذلك الأمثال التي تحضّ على القناعة، منها: «خبزنا كفاة يومنا». والأمثال التي تأخذ من المناسبات المسيحية محطة لها، مأخوذة من المناخ المحلي حجة لها. وقد فصّلنا القول بذلك سابقاً.

وهكذا يتبين لنا من مجمل ما تقدم أن الأمثال الشعبية تترجم المخزون الديني والقيم الاجتماعية في ذاكرة الناس. وقد جاء التناغم واضحاً بين الكثير من الأمثال والتوجيهات الدينية في بساطتها المتوجهة إلى العامة من الناس[33]. وإن كان ثمة الكثير منها يمكن أن يخالف بكل بساطة ما يقرّه الدين كما سنرى.

تبيّن الباحثة المغربية بل عافية أن المرجعيّة الدينية تشكّل الأساس المكين لثقافة المجتمع المغربي، العالمة والتقليدية على حد سواء. وقد أظهرت ذلك من خلال مئات الأمثال التي تبين فيها قناعات الناس وتجلّيات

33. http://www.startimes.com/?t=20440529

سـلوكهم اليومـي، وتأمّلاتهـم في الحيـاة والمـوت والمعـاد[34]. وقـد جـاءت هـذه الأمثـال لتظهـر كيفيـة إعـادة إنتـاج المثـل بتكـرار التجربـة المرافقـة لرتابـة حركـة المجتمـع التقليـدي، مـن ناحيـة؛ والتشـابه الحاصـل في سـلوك النـاس وتعاملهـم اليومـي، مـن ناحيـة ثانيـة. وهـي جميعهـا مسـتندة في الأسـاس عـلى تجليـات الإيمـان الدينـي والـتراث الفقهـي، فتظهـر أمثـالاً مشـبعة بهـذا الإيمـان وهـذا الـتراث[35].

وفي حـال المقارنـة، فـإن هـذه النظـرة التـي تبيّنهـا الأمثـال المغربيـة مشـتركة بـين كل البلـدان العربيـة والإسـلامية، باعتبـار مصدرهـا الدينـي، ومـا يظهـر منـه مـن أنـواع السـلوك، أو تمثّـل القيـم التـي ينشرهـا الإسـلام كعقيـدة، وكممارسـة مـن خـلال اسـتخراج الأحـكام الشرعيـة مـن القـرآن والسـنة مـن قبـل الفقهـاء والأئمـة الصالحـين.

أمـا في تونـس، فللأمثـال قيمـة كـبرى متأتيـة مـن الديـن، ومـن الإيمـان الدينـي المـمارس فعـلاً، فتظهـر العلاقـة مـع اللـه عـلى أوضـح صـورة في أمثـال مشـبعة بالتديـن. يقـول المثـل التونـسي: «خـاف مـن ربي وخـاف مِلـّي مـا يخافِـشْ من ربي»، وأحيانـاً يجمـع بـين خوفـين: مسـتحب ومكـروه: «الخـوف مِ اللـه طاعـة ومِ النسـاء مذلّـة»، لاعتقـاد التونـسي أن طاعـة النسـاء تقـود إلى النـار. وتعنـي قلّـة الإيمـان إنحـداراً سـلبياً، إذ «الـلّي يَيِّـس مـن رحمـة ربي كان الكافـر لأنـه مـا أقرّبـش مـن رحمـة ربي». فالارتبـاط بـين اليـأس والكفـر سـببهما «الشـوم وقلّـة الديـن». ولمـا كانـت مواضـع الإيمـان في القلـب، فـإن افتقـده مـن القلـب، «تْقطّـع لِيـمان مـن قلبـه، وصـار «قِرْبِلّـة لا ديـن لا ملّـة»، أي لا يُصلِـح لا للدنيـا ولا للدّيـن[36]. وفي تونـس تفضّـل الذاكـرة الشـعبية الكفـر الصريـح

34 . بل عافية، الأمثال المغربية والبعد الديني في التراث الشفهي، مذكور سابقاً.

35. http://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2013/12/19

36 . أنظر في هذا الخصوص، المقال القيم حول التأثير الديني في الأمثال التونسية:
عـز الديـن عنايـة، اللـه غالـب.. شـخصية التونـسي الدينيـة مـن خـلال أمثالـه، عـلى الرابـط

على الإيمان الكاذب: «كفر بْليغ ولا دين مدَقدِق»، ما يعني كافر على دينه ولا مسلم منافق. وعدم الوفاء بالدَّين إخلال بالدِّين: « الدَّين يهدم الدِّين». وربط المثل التونسي رضى الوالدين برضى الله: «يا رضاية الله والوالدين». وكلّه من قدرة الله المطلقة: «إذا حبّ الله تتسخّر لَرْياح واللّي كان مرَيّض بِعلّتَهْ يرتاح». أما الفرج فمن الله: «من درج لِدْرَج يأتي الله بالفرج»، وهو الشافي من كل علّة: «إذا ربي رايِدْ بصلاحك بلا دواء وطبيب تَبْرَى جراحك»[37].

لم تبقَ الأمثال ذات المرجعية الإسلامية وحدها المؤثّرة في أذهان الناس، والمتميّزة عن جملة مثيلاتها التي تستقي من مصادر أخرى ناشئة، في أغلبها، عن معاناة الناس وتجاربهم، وردود أفعالهم المتباينة تجاه مواقف تعرّضوا لها، بل اتخذ نقاد كثر من المرجعيات الدينية نفسها أدوات للحكم على الأمثال التي تخالف التوجه الديني، إن كان في العقيدة أو القيم المنبثقة من الدين، أو طرق التعامل بين الناس التي يقرّها الدين. وعلى هذا يقول أحدهم: «كان من الضروري أن تتم دراستها، بغية التعرف على مدى انسجام مضمونها الفكري مع المضامين الإسلامية الأصيلة، أو مدى مساهمتها في تنمية الفكر والروح، أو تحفيز الإنسان ودفعه نحو عمل الخير والتعاون»... ذلك لأن «أي انحراف فكري أو عقدي تتضمنه الأمثال سيساهم في تشويه المفاهيم الدينية الأصيلة، وسوف ينعكس سلباً على حياة الفرد وسلوكه»[38]. وما يعنيه هذا القول هو إخضاع الأمثال إلى ميزان الدين وقيمه للإبقاء على ما يتوافق معه، وإهمال، أو تجنّب ما يتعارض معه أو يناقضه، وكأن المثل إنتاج فقهي، أو إنتاج يمرّ عبر المصفاة

التالي:

http://www.turess.com/hakaek/44463

37 . المصدر نفسه.

38 . حسين الخشن، نظرة إسلامية حول ظاهرة الأمثال الشعبية، على الرابط التالي:
http://www.al-khechin.com/article/51

الفقهيـة التـي لا تُبقـي إلا عـلى مـا يتوافـق معـه. وبذلـك تفـرغ الأمثـال مـن مضمونهـا، ومـن مناسـباتها، ومـن عفويـة ظهورهـا، ولتبقـى كل الأمثـال التـي تتوافـق مـع المثـل العليـا والقيـم الإنسـانية الإيجابيـة التـي يقرّهـا الديـن، وانتـزاع مـا عداهـا مـن ذاكـرة النـاس.

يقـول الخشـن إن بعـض الأمثـال تعـترض عـلى الـذات الإلهيـة لأنهـا تقـول بالقضـاء والقـدر المترسـخ في أذهـان العامـة والخاصـة مـن النـاس، وهـو إيمـان إسـلامي واضـح، فيعـترض الخشـن عـلى ذلـك متدخـلاً بفلسـفته العالمـة في فلسـفة العامـة الشـعبية، بقولـه إن اللـه يقـرر بعـد اختيـار الإنسـان، ولا يجبره عـلى الاختيـار. ولذلـك فالمثـل الـذي يقـول «المكتـوب مـا منّـو مهـروب» منـاف للفعـل الإلهـي الـذي لا يجـبر النـاس عـلى الفعـل، وهـو مرفـوض إسـلامياً، لأنّ الإنسـان «وفـق الرؤيـة القرآنيـة والإسـلامية مختـار في أفعالـه وأقوالـه، وهـو الـذي يصنـع قضـاءه باختيـاره وإرادتـه، والمكتـوب هـو صفحـة تعكـس مـا سـيفعله الإنسـان باختيـاره. فاللـه إنمـا كـتب علينـا مـا علـم أننـا سـنفعله باختيارنـا، ولم يقهرنـا عـلى فعـل مـا هـو مكتـوب في سـجل أعمالنـا»[39]. يظهـر هنـا تداخـل الـرأي الدينـي الرسـمي مـع الأدب الشـعبي للعامـة. وكذلـك عندمـا يظهـر المثـل الـذي يقـول «كلـو قسـمة ونصيـب»، لم يضـع الميـزان الفقهـي ليزيـن فيـه هـذا القـول، أو المثـل: «ربنـا بيطعـم نـاس وبيحـرم نـاس» جـاء في سـياق بعيـد عـن مسـألة الانتقـاص مـن الـذات الإلهيـة، أو اتهامـه بالظلـم. إنـه لسـان حـال أحدهـم تعـرض للحرمـان والجـوع بوجـود النـاس المتخمـين، فعـبّر عـن ذلـك بمقولـة سـهلة وواضحـة ذهبـت مثـلاً، ولقـي الاستحسـان واسـتمر.

وفي مجـال تقليـد الآبـاء، ينتقـد الخشـن ذلـك باعتبـار أن المثـل الـذي يقـول «كل مـين عدينـو اللـه بيعنـو»، يبعـد الأبنـاء عـن الاختيـار ويجبرهـم عـلى طاعـة أبيهـم أو عـلى وراثتـه في مالـه ودينـه ونسـبه. وقـد جـاء هـذا المثـل،

39 . المصدر نفسه.

أصـلاً، ليؤكـد عـلى أهميـة الطاعـة واتبـاع الأهـل في كل شيء باعتبـار ذلـك قيمـة تربويـة كـبرى، في المجتمـع التقليـدي الـذي تزامـن معـه ظهـور المثل. ولم يُنظـر إليـه باعتبـاره يحـدّ مـن الاختيـار. وكذلـك يديـن الخشـن أمثـال الحـظ وتلـك المنافيـة للقيـم الأخلاقيـة والدينيـة، وكأن الأمثـال إنتـاج فقهـي وتربـوي وأخلاقـي أبدعهـا مفكـرون وأتقيـاء وأصحـاب أخـلاق حميـدة فحسـب. وقـد تجاهـل الخشـن، وهـو رجـل ديـن، أن مصـادر الأمثـال في أكثريتهـا السـاحقة ناشـئة عـن ظـروف ومواقـف صعبـة وحرجـة، وعـما أفرزتـه العلاقـات الإنسـانية مـن حسـنات وسـيئات، ومـن صنـوف البطولـة والشـجاعة والوطنيـة والتديّـن، وكذلـك مـن صنـوف الغـش والخـداع والاحتيـال والخيانـة والأنانيـة والفقـر والقهـر والعـذاب في مجتمعـات إنسـانية واقعيـة يسـود فيهـا الظلـم والاسـتغلال والخـوف مـن القـوي ومـن السـلطة ومـن الاسـتبداد.

الأمثال والحكم

مـن الصعـب التفريـق بـين المثـل والحكمـة. ذلـك أن المثـل يحمـل الكثـير مـن الخـبرة والتجربـة في شـؤون الحيـاة، ويشـجّع عـلى فعـل مـا هـو مناسـب، ويحـذّر مـن فعـل مـا هـو ضـار ومـؤذ يمكـن ان يلحـق بالإنسـان، إن كان دالاً عـلى فعـل إيجـابي أو سـلبي، دافعـاً إلى فعـل ممجّـد للإنسـان، أو داعيـاً إليـه للهـرب مـن المخاطـر، إن كان إلى الواقعيـة التـي تبغـي السـلامة الشـخصية، أو إلى المثاليـة التـي يمكـن ان تـؤدّي إلى التضحيـة بالحيـاة نفسـها. فالمثـل، كـما أسـلفنا مـراراً، قـول موجـز قيـل في مناسـبة مـا، ويُسـتحضرللتعبير عـن كلّ موقـف مشـابه للموقـف الـذي قيـل فيـه لأول مـرة. لذلـك جـاءت الأمثـال لتعـبّر عـن عصـارة تجـارب العـرب في ممارسـاتهم العمليـة، وتفاعلاتهـم اليوميـة في شـتى مناحـي الحيـاة. فاهتمـوا بهـا وجمعوهـا وصنفوهـا لتكـون زاداً للأجيـال اللاحقـة. ولأن المثـل يبغـي المسـاعدة عـلى التربيـة والتنشـئة، بمـا يمكـن اسـتخلاصه مـن تجـارب الأسـلاف، فقـد اقتـصر الأمـر عـلى هـذا التوجّـه دون الاهتـمام بمعرفـة مـن نطـق بهـذا المثـل، أو خلـص، بهـذه التجربـة،

إلى قول مختصر وبليغ يعبّر عن حالة بعينها. فذهبت مثلاً بالتكرار والاستمرار، وتخطّت القائل الأول، أو صاحب التجربة أو الموقف.

أما الحكمة، فهي خلاصة تأمل عميق مستخلصة من الخبرة والتجربة في الحياة تلخّص رأياً أو موقفاً من شأن من شؤونها، أو من الحياة نفسها، عادة ما تكون رؤية فلسفية، أو نظرة واقعية، أو موقفاً من حدث أو حادث عابر، أو خلاصة لعلاقة إنسانية ناجحة أو فاشلة تنتج خلاصة موقف منها، يمكن أن تعمّم في كل مكان أو زمان. يقول سعد زغلول، مثلاً: «أمة لا تعرف الوطنية لا تستحق الحياة». ويقول عمر بن الخطاب: «إياك والهدايا، فإنها من الرشاوى، والراشي والمرتشي في النار». ويقول نزار قباني في الحب[40]:

الحب ليس روايةً شرقية بختامها يتزوج الأبطالُ
لكنه الإبحار دون سفينة وشعورُنا أن الوصولَ محالُ

ومن المهم القول في هذا المقام، إن الحكمة، بخلاف المثل، معروفة المصدر، وغالباً ما يُرفق قائلها في نهايتها، إن كانت جملة قصيرة أو فقرة موسعة. كما يمكن أن تظهر الحكمة على شكل قول لأحدهم، مثلاً، قال جبران: «وجه أمي وجه أمتي».

الحكمة، المعنى والدلالة

جاء في لسان العرب أن «الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم... والحكمة من العلم، والحكيم العالم صاحب الحكمة. وفي الحديث: إن من الشعر لحُكماً، أي أن في الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسَفَه، وينهى

40 . أنظر في هذا الخصوص:
محمد قره علي، سنابل الزمن، الطبعة الثالثة، مطابع دار الكتب، 1971، بيروت، ص344.

عنهـما، قيـل: أراد بهـا المواعـظ والأمثـال التـي ينتفـع النـاس بهـا»[41].

مـا يمكـن معرفتـه مـن ذلـك أن الحكمـة هـي المعرفـة العقلانيـة لأفضـل الأشـياء باسـتعمال العقـل ومـا يقـرّه العقـل. والحكمـة هـي إتقـان كل مـا يمارسـه الإنسـان عمليـاً ونظريـاً. فالطبيـب المتقـن لصناعتـه هـو الحكيـم، والمفكـر المتقـن لصناعـة النظـر في الموجـودات مـن حيـث هـي موجـودة، هـو الحكيـم. والحكمـة المؤمنـة هـي تلـك التـي تنظـر في الموجـودات مـن حيـث دلالتهـا عـلى الصانـع. وفي هـذا المعنـى يـأتي في الأدب، نـثراً كان أو شـعراً، كلام ينفـع النـاس ويعلّمهـم وينتشـلهم مـن الجهـل والسـفاهة بمـا يحمـل مـن المواعـظ والارشـادات، أو يقـوم مقـام المثـل لتكـرار اسـتعماله وترسّـخه في الأذهـان.

وفي هـذا المعنـى، تـأتي الحكمـة لتـدلّ عـلى الحـق متوسّـلة طريـق العلـم والعقـل. ومـن مميزاتهـا القضـاء عـلى الجهـل، وإمـداد الإنسـان بالمعرفـة، وتوجيهـه لإكسـابه كيفيـة التفريـق بـين الحـق والباطـل، ومعرفـة مـا يفيـد الإنسـان ومـا يـضرّه في شـتى شـؤون الحيـاة.

لقـد انوجَـدَ التفكـير العقـلاني في الموجـودات مـن حيـث هـي موجـودة، ومـن حيـث دلالتهـا عـلى الصانـع، مـن جهـة؛ مـع الـذات الإلهيـة في التعبـير عـن الحكمـة، مـن جهـة ثانيـة. ذلـك أن التفكـير الإنسـاني والتعقـل عـلى قـدْر طاقـة الإنسـان، تقابلـه قـدرة اللـه المطلقـة عـلى الخلـق والابـداع اللذيـن تجلّيـا في «إيجـاد الموجـودات في غايـة الاتقـان والإحـكام بعيـداً عـن كل عبـث، وهـو إيجـاد متوقّـف عـلى العلـم اللامحـدود الـذى هـو مـن صفـات الـذات الإلهيـة»[42]. هـذا عـلى صعيـد الحكمـة الإلهيـة. أمـا الحكمـة الإنسـانية فتـأتي كصفـة للفعـل الإنسـاني. فيكـون الإنسـان بفعلـه متّصفـاً بالحكمـة، وبقولـه

41 . إبن منظور، لسان العرب، مادة حكم، مذكور سابقاً، ص951.

42 . أنظـر في هـذا الخصـوص، مقـال فاطمـة منصـور خـاكي، وجـوه الاشـتراك والافـتراق بـين المثـل والحكمـة، عـلى الرابـط التالي:
http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=40685

الـذي يـدلّ عـلى عمـق التأمـل وخلاصـة التجـارب.

ولهـذا سُـمّي القـرآن بالكتـاب الحكيـم، ومـا يُتـلى منـه بآيـات مـن الذكـر الحكيـم. وقـد جـاء في حديـث نبـوي: «قلـب ليـس فيـه شيء مـن الحكمـة كبيـت خـرب، فتعلّمـوا وعلّمـوا وتفقّهـوا ولا تموتـوا جهّـالاً»[43].

بين الحكمة والمثل

ولـدى المقارنـة بـين المثـل والحكمـة، يمكـن القـول إن الحكمـة تشـارك المثـل في خصائـص محـدّدة، منهـا العبـارة الموجـزة، وإصابـة المعنـى، والتشـبيه المحكـم، وجـودة الكنايـة، بالإضافـة إلى رشـاقة اللفـظ، والقـدرة عـلى الاسـتمرار.

أمـا الفـرق بيـن المثـل والحكمـة، فهـو في اللغـة أولاً. ذلـك أن المثـل صيـغ باللهجـة العاميـة المحليـة، حسـب كل منطقـة انتـشر فيهـا، بينـما الحكمـة صيغـت بلغـة عربيـة فصيحـة، فيهـا مـن البلاغـة ورشـاقة التعبـير وإصابـة المعنـى، بالإضافـة إلى الخصائـص الأخـرى، مـا يجعلهـا مقـروءة ومفهومـة في أي بلـد عـربي، بالإضافـة إلى معرفـة قائلهـا الـذي عـادة مـا يكـون مـن الأنبيـاء والأدبـاء أو الفلاسـفة والمفكريـن الذيـن ظهـروا عـبر العصـور، وقدّمـوا أقـوالاً مأثـورة اسـتمرّت عـبر الأجيـال تدلـل عـلى عمـق التجربـة الإنسـانية، وخلاصـة النظـرة إلى الحيـاة، وإلى مـا وراء الحيـاة، وإلى إبداء الرأي في العـادات والتقاليد، والعلاقـات بـين النـاس في إيجابياتهـا وسـلبياتها، وفي المـرأة والأبنـاء، والعمـل والإخـلاص في التعامـل، ومنافـع القيـم الاجتماعيـة الإيجابيـة، وأضرار القيـم السـلبية، بالإضافـة إلى مـا يمكـن أن تحمـل مـن سـمات التشـاؤم والتفـاؤل، وغيرهـا مـن مشـاغل الحيـاة.

وإذا كان ثمـة وجـوه اتفـاق بـين المثـل والحكمـة، فـإن المثـل لا يصـل إلى مرتبـة الحكمـة، بينـما الحكمـة تصـير مثـلاً باسـتمرار تداولهـا، وعمـق دلالتهـا عـلى ما يمكـن أن يشـكّل منهـج حيـاة أو طريقـة تفكـير أو خلاصـة رأي، لقائـل بذاتـه،

43 . المصدر نفسه.

يمكن أن يطول قوله ويتوسع، بعكس المثل المتّصف دائما بالإيجاز البليغ.

ومن المهم في هذا المجال القول إن الحكمة مستخلصة من مقالات وأبحاث لعلماء ومفكرين وأدباء بذواتهم وأسمائهم، دون الحاجة إلى وضع الحكمة المستخلصة في سياقها العام من البحث أو المقال. فيُكتفى بإدراج الحكمة مع قائلها في سياق آخر، فتصير هنا بمثابة المثل، أو تقال منفردة فتبقى حكمة، وإن جرت مجرى المثل لتكرارها.

وما يفرّق المثل عن الحكمة، بالإضافة إلى ذلك، أنه لا يتغير في الزمان والمكان، ويبقى على صيغته التى ظهر فيها، بصرف النظر عن المناسبة أو الموقف. أما الحكمة، فهي نتاج ظروف بعينها، استمدها الحكيم أو الفيلسوف من مجريات الحياة التي يعيشها ويختبرها. فإذا قال جبران خليل جبران: ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين»، فإنه يلخّص ما اختبره وعاش في ظلّه من مشاحنات وحروب وتعصّب ناشئة عن التفرقة المذهبية والطائفية، والخالية من الإيمان الصحيح والتقوى. وهي حكمة مرتبطة بظروف معينة، ولا تزال تفعل فعلها. ولأنها إنتاج مبنيّ على هذا الشكل، فهي متغيّرة في صوغها، بتغيّر الظروف والأحوال. ذلك أن لكل عصر حكمته، لأن لكل عصر تجاربه واختباراته. كما لكل عصر رجاله الذين ينضحون بالحكمة والموعظة الحسنة، وإن كان الكثير من الحكم يبقى متداولاً على مرّ العصور. فتجري في هذه الحالات مجرى الأمثال. وتعود لتلتقي مع الأمثال في هذا الشأن ويصيران على مسمّى واحد.

إلا أن المثل يبقى في الأخير مستقى من الواقع في مناسبة ما. وعند تكراره، تحضر في الذهن المناسبة الأولى التي قيل فيها. لذلك يأتي المثل بمثابة التشبيه والتمثيل. والحكمة تقول ما يعتمل في فكر القائل في لحظة مناسبة نتيجة تأثر القائل بمجرياتها. وهي كلام مجرد ليس بالضرورة خلاصة مشهد ما أو حادثة أو موقف. فعندما يقول أدونيس مثلاً: «الزمان ريح تهب من جهة الموت»، فإنه يريد أن يقول إن الحياة

محكومة بالموت، ومن ولد فهو في طريقه إلى الموت. وعندما يقول علي بن أبي طالب: «الحياة دار ممرّ والآخرة دار مقرّ»، فهو يلخّص المقولة التي تعتبر أن الدنيا دار فناء، والحياة الثانية دار بقاء، إما في نعيم الجنة أو في جحيم النار.

لذلك يمكن اعتبار الحكمة إنتاج خبرة ودراية. ومضمونها أعمق من المثل كخلاصة رؤية وفلسفة وتجربة ناشئة عن رحلة إنسانية شخصية اختصرتها كلمات نطق بها فيلسوف فرد أو أديب أو عالم، يمكن أن تكون ذات شحنة تفاؤلية أو تشاؤمية، مؤتلفة أو متناقضة.

ونتيجة لما تقدم، يمكن القول إن الحكمة تشمل ما يقال، وما يمكن أن يتحوّل إلى أفعال. ذلك أن القول الحكيم إذا لم يقرن بالفعل، لا تكون له النتيجة المتوخّاة. إذ لا قيمة لقول إذا لم يكن معبّراً عن شخصية القائل، ومبدأ لأفعاله. أما المثل فهو قول يُستعاد، وهو حامل تشبيه لموقف سَبَق، بينما الحكمة رأي في مسألة تحمل مقتضيات التشبية، أو لا تحمل. فإذا حملت كانت مثلاً، وإلا بقيت في إطار الحكمة.

وإذا كان المثل حجّة للقائل وقوله، بلغته المحكية الواضحة لدى متكلميها، فإن الحكمة تقوم على الموعظة والإرشاد، وتقدم خلاصة تجارب الخاصة من الناس، باللغة الفصحى المنمّقة والبليغة. ولأن الأمر كذلك، فإن المثل أكثر انتشاراً من الحكمة، ويتضمّنها في حكم كثيرة. أما الحكمة فتبقى في مرتبتها العالية، باعتبارها إنتاج أصحاب اللغة الفصحى، والثقافة الرسمية. وعليه، يمكن القول إن كل مثل هو حكمة، وليس كل حكمة مثلاً.

الفصل الخامس
الأمثال الشعبية والدلالات المعرفية

(1)

إذا كان المثل ذلك القول المأثور الذي يتضمّن حكمة، أو خلاصة تجربة، أو موقفاً محدداً مستخلصاً من ممارسة بعينها في الحياة العملية واليومية للإنسان، فإن هذا المثل يدور حول موضوع ما، وله دلالة معرفية تطول حياة الناس، أو توضّح ما يتحصّل من علاقاتهم الإنسانية في إيجابياتها وسلبياتها. والمثل، بذلك، تختلف دلالاته باختلاف الموضوعات التي يتناولها، وبالتالي، تختلف أهميتها وأعدادها باختلاف هذه الموضوعات وأولوياتها بالنسبة للإنسان، وبالنسبة للواقع الاجتماعي التاريخي للمجتمع الذي ينتمي إليه. ولما كان المثل ذا فكرة محددة، قولاً مأثوراً كانت، أو نصيحة أو حكمة، أو حتى طرفة أو فكاهة، فهو ينتمي إلى مدلول معرفي ما. ولأنه كذلك، فمن الضروري تصنيف المثل حسب موضوعه، أو دلالته المعرفية. ولهذا التصنيف أهميته الخاصة والمعتبرة لأنه يتيح معرفة تدرّج اهتمامات المثل من الموضوعات الأكثر شيوعاً واستعمالاً، إلى الموضوعات الأقل شيوعاً، وبالتالي الأقل أهمية في اهتمامات الناس اليومية التي استخلصت منها هذه الأمثال.

دلالة المثل وموضوعه

وعليه، كان لا بد من التعاطي مع الأمثال الشعبية باعتبارها العلاقة بين الإنسان وأفراد عائلته، من ناحية أولى؛ وفي علاقته مع الإنسان في المجتمع، من ناحية ثانية؛ وفي علاقته مع الله والقضاء والقدر، من ناحية ثالثة؛

وفي علاقاته مع القيم الاجتماعية في إيجابياتها وسلبياتها، وفي السياسة والوطنية، وفي علاقة التماثل والتضاد في شؤون الحياة وبلاغتهما في صوغ الأمثال من نواح أخرى.

إن النظر إلى المثل الشعبي على هذا الأساس يظهر خلاصات الفلسفة الشعبية في الحياة العامة والعملية في تواترها اليومي، وفي عفويّتها التي تظهر من خلال المثل، وتظهر معها الكيفية التي يتعامل فيها الناس من خلال تجليات سلوكهم، وما يظهر من مكامن ذهنياتهم، ومميزات النفسية الاجتماعية التي ما هي إلا تلك التي تنشأ عن العلاقة بين الإنسان الاجتماعي والبيئة التي ينتمي إليها. فالأمثال المتعلقة بالبحر والسباحة والعوم والغرق لا تنتجها البيئة الصحراوية. والأمثال المتعلقة بالبرد والثلج، ومغبّة الانقطاع في العزلة الشتوية دون التحضير لها، لا تنشأ في المناطق الحارة، وهكذا.

لقد انصرف اهتمامنا إلى الأمثال الشعبية العربية المتداولة في المشرق العربي، باعتبارها صادرة عن بيئة اجتماعية متشابهة في مناطقها، وبالتالي جاءت الأمثال متشابهة وحتى متماثلة في صوغها وتركيبها، عدا بعض الحروف المضافة هنا، أو الناقصة هناك بحكم اللهجة المحلّية التي تنطق بها كل منطقة في شكل مغاير عن منطقة أخرى، حتى ضمن البلد الواحد. لقد ظهر لنا من خلال استعراض الأمثال المتداولة في العراق وبلاد الشام ذات مصادر متعددة انتشرت في بيئة اجتماعية تتشارك مختلف صنوف الحياة، وصارت وكأنها من مصدر واحد انتشر في البلدان المجاورة، إن كان في الجزيرة العربية أو وادي النيل أو المغرب العربي بحكم اللغة والدين والعلاقات التجارية والنزوح داخل هذه البقعة من العالم. هذا بالإضافة إلى سبل التعامل مع الحضارات المجاورة الآتية من الهند أو بلاد فارس والأتراك، وبلدان البحر المتوسط في شكل عام.

إن ما دعانا إلى هذا التوجه، هو سهولة فهم الأمثال في هذه المنطقة من

العالم العربي، وظهور ما يماثلها في بقية المناطق، وإن في لهجات مختلفة، وصعبة الفهم أحياناً. وقد أظهرنا ذلك في الفصل السابق. ومن الطبيعي في هذا المجال أن ينتقي الباحث من المغرب العربي، أو من مصر الأمثال المتداولة في بلاد كل منهما لسهولة فهمها واستيعابها باعتبارها مصاغة باللغة العامية، واللهجة المحكية.

لقد تجمّع لدينا آلاف الأمثال، قديمها وحديثها، وهي منتشرة في مصادر متعددة في موسوعات ومجلدات وفي المئات من المواقع الإلكترونية، ومتاحة للجميع. ولا ضرورة باعتقادي لتكرار نشرها هنا إلا من باب تصنيفها ومعرفة اهتمامات الناس في حياتهم اليومية، وتكثيف ذلك وتلخيصه من خلال المثل.

انتقينا عشوائياً مجموعة من الأمثال الشعبية المتداولة في المشرق، وخصوصاً في لبنان وسورية وفلسطين، بلغ عددها 915 مثلاً. وقمنا بتصنيف هذه الأمثال حسب موضوعاتها ودلالاتها المعرفية. وقد تبين لنا أنها تنتمي إلى حقول معرفية متعددة. إلا أن أغلبها يتناول العلاقات والقيم الاجتماعية، والخبرة والتجربة، والعلم والمعرفة، والتضاد والتماثل، والعائلة والقرابة، وبأعداد أقلّ، ملفتة للنظر، العلاقة مع الله والقضاء والقدر، والفردية، وشؤون الوطن والسياسة، في شكل عام. ويبين ذلك الجدول أدناه.

يمكن إنطلاقاً من هذا الجدول المعبّر إظهار موضوعات الأمثال الأكثر تداولاً في هذه العينة التي اختيرت عشوائياً. وقد تبين أن أكثرها تداولاً هي تلك المتعلقة بالقيم الاجتماعية، إيجابية كانت أو سلبية، مثل الصدق والكرم والتسامح، أو الغش والخداع والتهرب من المسؤولية. وتأتي هذه الأمثال بمثابة الحكمة والمواعظ المختصرة التي تقدم للناس، وخصوصاً النشء الجديد، وتعمل على تقريبهم من أنواع السلوك الحسن وإبعادهم عن السلوك السيئ، وتحذيرهم من التصرفات التي يمجّها العامة. وتأتي من بعد، الأمثال التي تظهر العلاقة بين سلوكين متناسبين

ومتماثلـين بحيـث يـؤدي أحدهـما إلى الآخـر، أو متناقضـين يـؤدي أحدهـما إلى الآخـر أيضـاً. وفي هـذا النـوع مـن الأمثـال تظهـر البلاغـة بوضـوح مـن خـلال الربـط الـذي ذكـرت.

أمـا الأمثـال التـي تتنـاول العلاقـات الاجتماعيـة، فقـد حلّـت في المرتبـة الثالثـة. وهــي تحــث الناس عـلى التعامـل مـع الآخريـن، ابتـداء مـن الجـار، مـروراً بالعلاقـات الاجتماعيـة اليوميـة، إمـا بالانخـراط في التعامـل الحسـن، وحفـظ الـودّ، وإشـاعة التقـارب بـين النـاس، أو بالابتعـاد عـن النـاس تخفيفـاً لوجـع الـرأس، أو تجنبـاً للمشـكلات التـي يمكـن أن تتـأتّى مـن هـذه العلاقـات. وقـد بيّنـا أن اختـلاف طـرق التعامـل، ومـا ينشـأ عنهـا، هـي التـي تدعـو إلى اتخـاذ هـذا الموقـف أو ذاك في العلاقـات الاجتماعيـة.

وفي المرتبـة التـي تلـت، حلـت الأمثـال التـي تلخّـص مـا يمكـن أن يقدمـه العلم والمعرفـة الإنسـانية بتوسـل الأمثـال، باعتبارهـا تجمـع الحصيلـة المختـصرة للعلـوم وأنـواع المعـارف، فتـأتي لتترسـخ في أذهـان النـاس، وتصـير جـزءاً مـن معارفهـم وعلومهـم المكتسـبة مـن خـلال تلقّـي هـذه الأمثـال.

تـأتي الأمثـال المتعلقـة بشـؤون العائلـة في المرتبـة الخامسـة. وهــي الأمثـال التــي تقـدم لنـا خلاصـة نظـرة المجتمـع التقليـدي إلى كل فـرد مـن أفـراد العائلـة، وتلخّـص لنـا نظـرة المجتمـع إلى المـرأة، زوجـة كانـت، أو إبنـة وكنّـة وحـماة، والعلاقـة بـين الأب والأبنـاء، والفـرق بـين الإبـن والبنـت، وكذلـك الأم، بالإضافـة إلى الجـد والجـدة، والصهـر والـضرّة.

ولأن السـلطة والقـوة لهـما مكانهـما في المجتمـع التقليـدي، مـن خـلال سـطوة القــوي عــلى الضعيــف، واعتبــار القــوة البدنيــة والقســاوة مــن مســتلزمات الحيــاة التقليديــة، جــاءت الأمثــال لتلحــظ ذلــك وتســجّله. فظهــرت الأمثــال التــي تأخــذ القــوة والســلطة بعــين الاعتبــار، ومــن ثــم أدخلــت مــا تعنيــه الســلطة ومفاعيلهــا في حقــل معــرفي خــاص بهــا، للتدليــل إمــا عــلى الوقــوف

في وجـه القسـاة والظالمين بقسـوة مماثلـة ورباطـة جـأش، أو الانسـحاب مـن المواجهـة للحفـاظ عـلى السـلامة، مـع التدليـل عـلى خطـورة مفاعيـل السـلطة وأوجههـا المتعـددة، سـلبية كانـت أو إيجابيـة.

أمـا الأمثـال التـي تتنـاول التجربـة العمليـة في الحيـاة، والخـبرة المتأتيـة مـن التعامـل بـين النـاس، فكانـت منتـشرة لتقديـم خلاصـات التجـارب، والإفـادة مـن مواقـف تحذّرنـا مـن التعـرض لهـا. وقـد جـاءت في قالـب وعظـي، وعـلى صـورة وصايـا تبـيّن مغبّـة مخالفـة مـا جـاء فيهـا مـن خلاصـات لأحـداث حصلـت سـابقاً.

تـأتي الأمثـال الواقعيـة لتبـيّن أهميـة التكيـف مـع الوضـع القائـم، والعمـل عـلى التعاطـي معـه بإيجابيـة، إن كان في مـا يتعلـق بالسـلطة أو أصحـاب النفـوذ والأقويـاء والقادريـن عـلى الإيـذاء، أو كان بالنسـبة للمحيـط الـذي يفـرض التعامـل معـه بمـا يرتضيـه. وقـد أظهـرت الأمثـال المتعلقـة بالواقعيـة أهميـة الحفـاظ عـلى السـلامة، والسـير مـع التيـار عنـد الدرجـة التـي لا بـد لهـا مـن إظهـار الموقـف. فيكـون ذلـك إمـا بالصمـت أو بالموقـف المتلائـم مـع التوجـه العـام.

تـأتي الأمثـال العاميـة المتعلقـة بالتـوكل عـلى اللـه، وعـلى الأنبيـاء والقديسـين، والسـلف الصالـح، في مرتبـة متأخـرة في سـلّم أولويـات الأمثـال. وربمـا يعـود الأمـر، في ذلـك، إلى عـدم الحاجـة إلى صـوغ الأمثـال المتعلقـة بهـذا الحقـل المعـرفي لشـيوع الإيمـان بالقضـاء والقـدر، والتـوكل عـلى اللـه، وطلـب مسـاعدة القديسـين والأوليـاء، لأن ذلـك يتـمّ تداولـه في شـكل مسـتمر وعفـوي في ذهنيـة تقليديـة، تضـع الديـن في أول درجـة مـن سـلم أولوياتهـا، وبالتـالي تنتفـي الحاجـة إلى الأمثـال التـي تدعـو إلى التـوكل، أو تؤكـد الإيمـان بالقضـاء والقـدر. وعندمـا يقـول المؤمـن «توكلـت عـلى اللـه»، أو «حسـبي اللـه ونعـم الوكيـل» أو «المكتـوب مـا منـو مهـروب»، «إرحمنـا يـا اللـه»، لا يعتـبر أن مـا يقولـه تـرداد لمثـل شـعبي سـائر، بـل إنـه يعـبّر عـن إيمانـه وتقرّبـه مـن اللـه،

وتسليم أمره إليه. ولعل أكثر ما يتفوّه به العربي في حياته اليومية هو ترداد ما يدلّ على إيمانه وتقرّبه من الله وأنبيائه بعبارات مختلفة ذات دلالة واحدة، وهي مدى قربه وتمسّكه بكلّ ما يمتّ إلى الدين بصلة. ويظهر ذلك في محطات الحديث، أو في تذكّر شيء مضى «اللهم صلّ على النبي» أو «أعوذ بالله» أو «ما شاء الله» أو ترداد «إن شاء الله». كما يظهر في التأكيد على الصدق بحلف اليمين بحياة الله والنبي والقرآن والإنجيل والقديسين والأنبياء، وكل ما يمكن أن يساعده في التأكيد على قول الصدق.

ومع ذلك، ظهرت الأمثال التي تظهر الإيمان بالقضاء والقدر، والتوكّل على الله وكل ما يدل على مسألة الجبر، وما يمكن أن يقابلها من مسائل الاختيار وفعل الإرادة الإنسانية في تغيير مسرى الحياة.

أما في ما يتعلق بالأمثال التي تدلّ على المسائل السياسية أو العلاقة بالوطنية، أو ما تعنيه الوطنية، فهي قليلة إن لم تكن نادرة، لغياب هذه المفاهيم ودلالاتها عن تكوين حقل معرفي لها في زمن لم تكن معروفة فيه ولا متداولة. فالوطن والمواطن والوطنية، والمواطنة والعلاقات السياسية القائمة على الموالاة والمعارضة، والمشاركة، ولحظ الآخر، والاعتراف بحق الاختلاف، والمساواة أمام القانون، لم يكن لها وجود في الزمن التقليدي الذي ازدهرت فيه الأمثال، واستمرت باعتبارها تدلّ على ما يمكن أن يشكّل صراط قول وفعل، ومسالك في الحياة اليومية التي يمارسها الناس، وعلى ما يمكن أن يوصي ويعظ للحفاظ على الأخلاق الحميدة والسيرة الحسنة، بما لا يخالف القواعد والسنن التي ينتهجها المجتمع في الزمان والمكان. حتى أن الأمثال التي تدلّ على مسلك معيّن، أو تنتقد مسلكاً آخر، تبقى حيّة في الزمن الحديث، لأن المجتمع لا يزال يمارس علاقاته بما توحيه وتدلّ عليه هذه الأمثال، وإن بقيت بصيغتها القديمة برجالها ووسائلها واهتماماتها. وهذا ما يبيّن سر استمرارها وتدليلها على ما هو في

موقع الثبات في التقاليد والأعراف التي يمارسها المجتمع.

ويبقى ما يدل على الفردية، وعلى ما يدل على أهمية العيش بالعزلة عن الآخرين نتيجة الأذية من هؤلاء، أو ما يصدر عنهم من نميمة وتناول الناس بالسوء في القول والفعل، أو طلب الراحة لتعقّد الحياة الاجتماعية وصعوبة مسالكها. ذلك أن هذا التوجه يتناسب مع شخصيات بعض الناس الذين لا يقوون على تحمل مشقة الخوض في العلاقات الاجتماعية، أو في تحمّل أذية الآخرين، أو الاستماع إلى ما يدلّ على الانتقاص من قيمة هؤلاء، أو من دورهم في عمليات التفاعل الاجتماعي. وثمة من يعتبر أنه متميّز عن الآخرين، بقدرته أو بما يمتلك من مواهب، فيلفت انتباههم إلى وضعه هذا، ويجد من يصوغ الأمثال على مقاسه، إما من باب النقد، أو من باب التأييد لصعوبة العيش في مجتمع تتآكله منازعات المصالح الفردية؛ وهي مصالح قديمة قدم المجتمع الإنساني نفسه، في أي زمان ومكان.

تدرّج الأمثال في ذهنية العامة

عندما قمنا بجمع ما يقرب من 915 مثلاً من الأمثال العربية المتداولة في المشرق العربي، وتتقاسمها بلدان لبنان وسورية وفلسطين والعراق، كان يدور في الذهن أن هذه الأمثال تعتبر بمثابة عينة انتقيناها لمعرفة نوعية الأمثال التي لا يزال تداولها قائماً، أو على الأقل لا تزال حية في الذاكرة. ذلك أن المثل بقي لفترة تاريخية طويلة ينتقل من جيل إلى جيل مشافهة، وخصوصاً ما يتعلق منها بالأمثال الشعبية العامية. ولولا أهميتها ما استمرت في وجودها إلى زمننا هذا، ولا حازت على اهتمام مؤرخي الأمثال ومدوّنيها ومستخرجيها من أفواه الناس بصيغتها الأولية، ولهجتها العامية المحلية. وعليه، لم يبق في ذهن العامة إلا ما ترسّخ من هذه الأمثال، وما لم يستنفد معناه أو مقاصده. وإذا كان ثمة كتب تراثية إهتم واضعوها بالأمثال، وأبقوا عليها في بطون كتبهم، فإن ذلك طال في

أكثريتـه السـاحقة الأمثـال المصاغـة باللغـة العربيـة الفصحـى المنبثقـة مـن ذاكـرة وذهنيـة أهـل الثقافـة العالمـة، مثـل كل مـا يتعلـق بـالأدب الرسـمي ذي الثقافـة العالمـة، مقابـل الأدب الشـعبي المصـاغ باللغـة العاميـة المحكيـة، والصـادرة عـن ذهنيـة غـير مركّبـة، وذاكـرة شـعبية تصـوغ مـا لا يـزال عالقـاً في ذهنهـا مـن صنـوف الأدب بـكل ميادينـه.

ظهـر لدينـا بعـد تصنيـف الأمثـال المنتقـاة كمجموعـة واحـدة، أنهـا تنتمـي إلى حقـول معرفيـة متعـدّدة بلغـت عـشرة حقـول تتنـاول شـتى صنـوف العلاقـات المجتمعيـة، ومـا يمكـن أن يشـكّل مطمحـاً للوصـول إليـه، أو حاجـزاً يمنـع، أو يشـجع عـلى منـع، الوصـول إليـه، إن كان عـلى صعيـد القيـم الاجتماعيـة الإيجابيـة والسـلبية، أو العلاقـات مـع الأهـل، ومـا يـدور ضمـن الأسرة، أو رسـم خارطـة حيـاة للتوعيـة والتدليـل عـلى المواصفـات الشـخصية الشـديدة الاختـلاف بـين النـاس، والتقابـل بـين المضـادات، أو مـا يمكـن أن ينشـأ مـن الأفعـال مـن نتائـج متلائمـة معهـا، سـلباً أو إيجابـاً، أو متنافـرة معهـا، سـلباً أو إيجابـاً أيضـاً. وقـد تبـيّن لنـا بعـد التدقيـق في هـذه العينـة أن ثمـة أمثـالاً كثـيرة لهـا ذات المعنـى وتختلـف في تركيـب الكلـمات. كـما ثمـة أمثـال مكـررة في اللائحـة ذاتهـا. فآثرنـا حـذف مـا هـو مكـرّر، ومـا هـو مختلـف لفظـاً حيـث أبقينـا عـلى مثـل واحـد منهـا. وفي النتيجـة تبقّـى لدينـا 750 مثـلاً مـن أصـل 915. ومـن ثـم جـاءت عمليـة التصنيـف حسـب اجتهادنـا في وضـع هـذا المثـل في هـذا الحقـل المعـرفي أو ذاك، وحرصنـا عـلى عـدم تكـرار المثـل في غـير الحقـل المعـرفي الـذي وضعنـاه فيـه، لتسـهيل المقارنـة، وتحليـل المثـل وإظهـار أهميتـه في حقـل معـرفي واحـد، علـماً أنـه يمكـن تحليلـه وتفسـيره في حقـل معـرفي آخـر، أو في بضعـة حقـول. إنـه مجـرد إجتهـاد في التصنيـف والتحليـل.

جـاء في المرتبـة الأولى في التصنيـف القيـم الاجتماعيـة، ثـم تدرجـت هبوطـاً مـع أمثـال التماثـل والتضـاد التـي تعتـبر مـن أبلـغ الأمثـال الشـعبية، وأشـدها اختصـاراً، ثـم تـأتي بقيـة الحقـول المعرفيـة للأمثـال لتصـل في الأخـير إلى الحقـل

المعـرفي الأقـل تـداولاً، وهـو مـا يتعلـق بالأمثـال التـي تـدل عـلى النزعـة الفرديـة، ومـا يمكـن أن يتـأتّى منهـا إيجابـاً أو سـلباً.

ويظهر ذلك كلّه في الجدول الآتي:

الحقول المعرفية للأمثال الشعبية

الحقل المعرفي	العدد	النسبة%
القيم الاجتماعية	177	23.5
التماثل والتضاد	166	22
العلاقات الاجتماعية	122	16
العلم والمعرفة	94	12.5
العائلة	76	10
الواقعية	34	4.5
السلطة والقوة	34	4.5
التوكل والقضاء	28	3.8
السياسة والوطنية	10	1.5
الفردية	9	1.2
المجموع	750	100

القيم الاجتماعية

تـأتي الأمثـال التـي تنضـح بالقيـم الاجتماعيـة في المرتبـة الأولى للعينـة المنتقـاة. والقيـم الاجتماعيـة المقصـودة هنـا هـي تلـك التـي تشـمل مـا يعتـبره النـاس الفضائـل المزيّنـة للخلـق، والباعثـة عـلى احـترام وتبجيـل مـن يتحـلّى بهـا، ويمـارس حياتـه العمليـة إنطلاقـاً منهـا، مثـل الصـدق والمـروءة والشـهامة والكـرم ونكـران الـذات، ونـصرة المظلـوم والإحسـان. وهـي القيـم التـي كانـت ولا زالـت تحـوز عـلى المقـام الأول في ترتيـب الموقـع الـذي منـه يتعامـل الفـرد

مـع الآخريـن، بـصرف النظـر عـن انتظـار المبادلـة بالمثـل، أو توقّـع تعامـل الآخريـن معـه عـلى هـذا الأسـاس.

أمـا القيـم السـلبيّة، فهـي تلـك التـي تكـون عـلى التضـاد مـن ذلـك. وتقـوم عـلى الكـذب واللأمنـة والخـداع والجـبن والبخـل والأنانيـة والاحتيـال والجهـل والطمـع. فينطلـق المثـل المعـبّر عـن أحـد هـذه التعابـير الـذي يأخـذ تحديـده كصفـة بمجـرد لصقهـا بالإنسـان، إن كان تعبـيراً عـن قيمـة اجتماعيـة إيجابيـة أو سـلبية. وقـد ظهـر منهـا مـا يـدل عـلى الشـجاعة:

ياكِلها السَّبع ولا ياكلها الضبع.

قالوا : يا عنتر مين عنترك ؟ قَلُّن : عِنْتَرت وما حدا ردّني.

قبضاي شبعان من حليب إمّو.

الشجاعة صبر ساعة.

أما ما يدل منها على الجهل، مثلاً، فثمة الكثير منها:

الجمل لو بيشوف حردبتو بيوقع وبيفكّ رقبتو.

طلطميس ما بيعرف الجمعة من الخميس.

الجاهل عدوّ نَفْسو.

الشبعان بيفتكر كل الناس متله.

إركب الديك وشوف لوين بيوَدّيك.

ولأن الصـبر مـن القيـم الاجتماعيـة المطلوبـة لمواجهـة كل مـا يتعـرّض لـه المجتمـع التقليـدي مـن آلام متأتّيـة مـن الفقـر والاسـتبداد والظلـم، جـاء الكثـير منهـا تحـت عنـوان القيـم الاجتماعيـة الإيجابيـة، باعتبارهـا تسـاعد الإنسـان عـلى تقبّـل وضعـه، وانتظـار مـا يمكـن أن يـأتي بالفـرج وراحـة البـال. منهـا مـا يـلي:

اللي بيصبر على حلوها بيصبر على مرّها.

الصبر مفتاح الفرج.

ما بعد الصبر إلا الفرج.

ما بعد الصبر إلا المجرفة والقبر.

الصدق بيعين عالرزق.

ومـن القيـم الاجتماعيـة السـلبية يـأتي الطمـع ليظهـر مـدى نفـور النـاس منـه في عصـور اتصفـت بقسـاوة العيـش وضيـق ذات اليـد، مـا يجعـل مـن يطمـع في الحصـول عـلى مـا يزيـد عـن نصيبـه وقسـمته، عرضـة للسـخرية والتأنيـب مـن عامـة النـاس، فتذهـب آراؤهـم أمثـالاً يتداولونهـا وينقلونهـا مـن جيـل إلى جيـل، منهـا:

العين جيعانة والمعدة شبعانة.

فرح في التم عزا في البطن.

العصفور وخيطه.

الطمع ضر ما نفع.

الفاجر أكل مال التاجر.

لمـا تفرّقـت الأرزاق مـا حـدا عجبـو رزقـه. لمـا توزّعـت العقـول الـكل رضي بعقلـه.

وللحالـة الاجتماعيـة نفسـها التـي كانـت سـائدة وسـط ضيـق الحـال والفقـر وأهميـة مسـاعدة مـن لا يملـك شـيئاً، أو يعـبّر عـن كرمـه نتيجـة مـا أنعـم اللـه عليـه مـن سـعة حـال، أظهـرت الأمثـال أهميـة ذلـك، وقدّمـت للكـرم الكثـير منهـا:

ما في عَيْب إلّا والكَرَم غطّاه.

ألله أَكْرَم مِنْ عبيدو.

إذا الله طْعَمَك كُول واطعوم.

الجود من المَوْجود.

كان الكـذب مـن القيـم الاجتماعيـة السـلبية والممجوجـة لـدى عامـة النـاس. وكان يـدرك هـؤلاء أن عاقبـة الكـذب وخيمـة، وتتيـح لهـم إتخـاذ مواقـف محـدّدة منهـم، كأن يلقّـب أحدهـم بالكـذاب. فتحـلّ هـذه الصفـة مـكان اسـمه. وعندمـا يقـال مثـلاً إن الكـذاب جـاء أو قـال كـذا، فيـدرك السـامعون أن المقصـود هـو زيـد مـن النـاس. فيقـال مثـلاً:

حبل الكذب قصير.

الكَذِب بيغدّي ما بيعشي.

اللّي بَدّو يكذب، يبَعِّد شهودو.

لْحاق الكِذّاب عَ باب دارو.

قالوا للحرامي احلف يمين، قال إجا الفرج.

ومـن المهـم القـول في هـذا المجـال إن الكثـر مـن الأمثـال يمكـن أن يدخـل في غـر حقـل القيـم الاجتماعيـة، أو تحـت عنـوان آخـر مـن القيـم الاجتماعيـة المخصوصـة التـي ينضـوي تحتهـا هـذا المثـل أو ذاك. ولا شـك في أن المثـل يمكـن أن يفهـم مـن خـلال دلالتـه عـلى هـذه القيمـة، أو عـلى حقـل معـرفي آخـر. فالمثـل الـذي يـدل عـلى قيمـة الإقـدام يمكـن ان يوضـع تحـت عنـوان الشـجاعة، كـما يمكـن أن يوضـع المثـل الـذي يـدل عـلى التبذيـر تحـت خانـة الكـرم، والتهـور تحـت خانـة الشـجاعة. كـما يمكـن أن يوضـع المثـل الـذي يـدل عـلى الصـبر تحـت خانـة الأمـل، وهكـذا. وعليـه، يمكـن وضـع الأمثـال التـي تـدل عـلى القيـم الاجتماعيـة المتعـددة تحـت هـذا العنـوان العـام. والقـارئ

اللبيـب لا يتـوانى عـن فهـم كل مثـل منهـا. وهـي التاليـة:

اللّي بِيحْضَر خلافة عَنزتو بِتْجِبْلو تَوم.

اللّي بتقصر حجّتو، بيطوّل لسانو.

اللّي بدّو يكذب، بيبعِّد شهودو.

احترنا يا قرعة منين بدنا نبوسك.

اسماعْ مِنَّي ولا تصَدِّقْني.

اشتغل بمصريي، وحاسب البطال.

إضحك تضحك لك الدنيا.

الّلي بيتزوج بالدَّين، بيِجو ولادو بالفايدة.

الأكل ما إلك، بطنك ما إلك؟

البحصة بتسند الخابية.

البرطيل بيحلّ دكّة القاضي.

الجاهل عدوّ نَفْسو.

الجمل لو بيشوف حردبتو بيوقع وبيفكّ رقبتو.

الجود من الموجود.

الجوع كافر.

الحُب بيطلع من الشباك إذا دخل الفقر من الباب.

الحركة فيها بركة.

الحكي ما عليه جمرك.

الحيّة ما بتنْحط بِالعبّ.

الرزق السايب بيعلم الناس الحرام.

السعد يأتي جرجرة والنحس يأتي كوكرة.

السلامة غنيمة.

الشبعان بيفتكر كل الناس متله.

الشجاعة صبر ساعة.

الشغل بيجوهر البدن.

الشمس شارقة والناس قاشعة.

الصبر مفتاح الفرج.

الصدق بيعين عالرزق.

الضرف إللي ما بينتفخ بيكون معيوب.

الطاقة إلي بيجي منها الريح سدّها واستريح.

الطفران غلب السلطان.

الطمع ضرّ ما نفع.

العتبة تلتين الدرب.

العصفور وخيطه.

العنزة الجربانة ما بتشرب إلا من راس النبع.

العنقود العالي حصرم.

العين جيعانة والمعدة شبعانة.

الغضبان خي المجنون.

الفاجر أكل مال التاجِر.

الفرفور ذنبه مغفور.

الفقار بورّت النقار.

الفقر بيعمي القلب.

الفقير لو ركب ع الجمل بتعضه الحية.

الكترة غلْبت الشجاعة.

الكثرة عون.

الكذب بيغدّي ما بيعشّي.

الله يوفق وينفق.. وعنا ما يتخلى.

اللي بيصبر على حلوها بيصبر على مرّها.

اللي في جنبه مسلّة بتنعره.

الليل ستار العيوب.

الليل طويل والرب كريم.

الليل واحد والحرامية ألف.

الناس ما بتستغني عن بعضها.

النق بيقطع الرزق.

الوِعِي الكبير بيساع الصغير.

إبن آدم ما بيملّي عينو غير التراب.

إبنها بيبكي وراحت تسكّت إبن الجيران.

إجري وأجرك بالفلق.

إذا الله طعمك كول وطْعوم.

إذا أردت أن تطاع، فاطلب المستطاع.

إذا كان حاكمك ظالمك إشكي همّك لخالقك.

إركب الديك وشوف لوين بيوَدِّيك.

إسعى يا عبدي تا إسعى معك.

إيد الحرّ ميزان.

إيد واحدة ما بتزقف.

أبخل من كلب.

أرخص من الفجل.

ألف سلّم ما بيطالو راسو.

ألله أَكرم من عبيدو.

أمل بليس بالجنة.

أنضف من الصحن الصيني.

آكل شارب، من الهم هارب.

آكل شارب نايم.

آكل وناكر.

بَزْقوا عَ وِجّ النَّدِلْ، قال الدني عم بتشتي.

بَيّن عِذرَك ولا تبيّن بِخْلَك.

بِيحْكي قَدْ قاضي معزول.

بالوج مراية وبالقفا صرماية.

بدل ما تقول للدجاجة كش أضربها اكسر لها رجلها.

بشّر القاتل بالقتل، والزاني بالفقر، ولو بعد حين.

بياكُل راس الحيّة.

بيتمسكن حتى يتمكن.

بيروح مع إم العروس، وبيرجع مع إم العريس.

بيسرق الكحل من العين.

بيشرب من البير وبيرمي فيه حجر.

بيصب الزيت على النار.

بيفصّل للبرغوت قميص.

بيقتل القتيل وبيمشي بجنازته.

بيلهي الحمار عن عليقه.

توب العياري ما بيدفّي وإن دفّى ما بيدوم.

جاب الدب لكَرْمو.

حِط إيدك بوكر الدبابير وقول هيدا من التقادير.

حبل الكذب قصير.

حدا بيجيب الدب على كرمه؟؟

حمل السلم بالعرض.

خس زراع ولا تبيع من أرضك دراع.

ركّبناه ورانا، مدّ إيدو عالخِرج.

ستة سبعة بخدمتها وشرقت مخطتها.

سمعان بالضيعة.

سنة المحل بتفزّ العنزة ع الفحل.

شال الزير من البير.

شمَّع الخيط وهَرَب.

شمّام هوا قطّاف ورد.

صديق الـ ما بينفع مثل عدو الـ ما بيضر.

ضارب حالو بحجر كبير.

ضاع المسك بسوق البصل.

ضربني وبكى وسبقني واشتكى.

ضوّى له صابيعه العشرة.

طبّلي تـ زمّرلك.

طلطميس ما بيعرف الجمعة من الخميس.

عذر أقبح من ذنب.

عصفور باليد ولا عشرة عالشجرة.

عضته ولا بوسة غيره.

عقل الكبير كبير.

عقلاته براس طربوشه.

عقلاته على صوص ونقطة.

عقلك براسك اتنين بيديروك.

على الأرض يا حكم.

على الوعد يا كمّون.

على قدّ المُونه بتجي المعونة.

على قدر بساطك مد رجليك.

عمل السبعة وذمتها.

عند حاجتي ليها غمضت عينيها.

عنزة ولو طارت.

عورا وقرعا وما بتنام إلا بالنص.

عيش يا كديش حتى يطلع الحشيش.

عينه ضيقة.

غربل.. يا غربال.

غيبة المستحية من ع بكره لعشية.

فتيلته طويلة.

فرجاه نجوم الظهر.

فرح في التم عزا في البطن.

فرخ الديب ما بيجوّي.

فلاح مكفي سلطان مِخْفي.

قاضي الولاد شنق حاله.

قاعد بالإرنة وعينه بتجقرني.

قالوا: يا عنتر مين عنترك ؟ قَلُّن : عِنْتَرت وما حدا ردّني.

قالوا لحرامي الطحين: احلف يمين. قال: انخلي يا مره.

قالوا للجوعان: اتنين واتنين، قال: اربعة إرغفة.

قالوا للحرامي احلف يمين ، قال إجا الفرج.

قبضاي شبعان من حليب إمّو.

قتل القتيل ومشي بجنازته.

قلّو ثور.. قال احلبو.

قل له تينة بيقول جميزه.

قميص بلا كم أحسن من الهم.

قوم يا عبدي تـ عينك، نام يا عبدي تـ هينك.

كاسر إيدو وشاحد عليها.

كل ما طار طير وارتفع إلا ومتل ما طار وقع.

كل من حبيبه ملو قلبه.

لا تشْرب من البير وترمي فيه حجر.

لا غايب إلّا استغنينا عنو، ولا حاضر إلا واعتزناه.

للحيطان آذان.

لما تفرقت الرزاق ما حدا عجبو رزقه. لما توزّعت العقول الكل رضي بعقله.

لولا عاليه وبسوس ما كان في بالدنيا تيوس.

ما بدها يا ميمتي ارحميني.

ما بعد الصبر إلا الفرج.

ما بعد الصبر إلا المجرفة والقبر.

ما بيضحك للرغيف السخن.

ما بيعرف الخمسة من الطمسة.

ما في عيب إلّا والكَرم غطّاه.

ما كل مرة تسلم الجرة.

متل الابرة بتكسي الناس وهيي عريانة.

متل الحيّة تحت التّبن.

متل اللي بيوَكّل القط بالجبنة.

من حيط لحيط ياربي أوصل عالبيت.

مين أكل وبان عليه ما كتير عليه.

مين بدو دح.. ما بيقول أح.

مين ساواك بنَفْسه ما ظَلَمك.

مين علمني حرف صرت له عبد.

مين كَتَّر كلامو، قَلَّل احترامو.

مين ما قلو تش بيقلّو مش.

هوم هيم هوم أكل وشرب ونوم.

وعد الحر دين.

يا جبل ما يهزّك ريح.

يا صبر أيوب.

ياكِلها السَّبع ولا ياكلها الضبع.

يللي إختشوا.. ماتوا.

بلغ عدد الأمثال التي تنحو هذا المنحى في التعبير عن القيم الاجتماعية 177 مثلاً من أصل 750. وشكّلت في ذلك نسبة 23.5% من مجموع أمثال العينة.

التماثل والتضاد

ثمة أمثال شعبية كثيرة تظهر على شكل تماثل بين حالتين يقصدهما المثل، أو على شكل تضاد بين حالتين تفيد الواحدة منهما على عكس ما تفيده الثانية، أو تفيد الثانية أنها على عكس الحالة الأولى، دون أن تكون بالضرورة ناشئة عنها. كما ثمة أمثال تحتوي على ما هو متماثل بين حالتين، ومتضاد بين حالتين منفصلتين، أو توحي أولاهما بالحالتين اللتين تتبعانهما. ففي حالة التماثل يكون المثل في قمة البلاغة في تكثيف المعنى، وفي ربط السبب بالنتيجة، أو للتماثل بين الحالة الأولى والحالة الثانية. فعندما يقال: **كل شي مع العافية طيب**، يعني أن الصحة باب اختيار ما نريد من الأكل دون تحفظ. أما الشيخوخة للقوي والمتسلط في

مجتمعـه، فتحوّلـه إلى موضـوع للسـخرية والاسـتهزاء، لتصـير العاقبـة مذلـة، مـا يجعـل أهلـه يداورونـه بإبقائـه في المنـزل ورعايتـه، لأن المثـل يقـول: **السَّـبع متـى شـابْ، بيصـير مَضحـكي للـكلاب.** أمـا عندمـا يعـبّر أحدهـم عـن محبتـه للآخـر، الـذي يبادلـه الشـعور نفسـه فيجيبـه: **القلـوب شـواهد.** وعندمـا يغضـب أحدهـم ويفقـد السـيطرة عـلى نفسـه، يندفـع إلى النتيجـة المحتمـة، وهـي التـصرف بجنـون. لذلـك يقـال: **الغضبـان خـي المجنـون.** وعندمـا يجتمع الخـلان ويتضاحكـون ويتمازحـون، يتحـول المـزاح إلى كلام جـدي غالبـاً مـا ينتهـي بشـجار، وبانفـراط العقـد، فيقـال: **أنفخـت الـدف وتفـرّق العشـاق.**

أمـا في حالـة التضـاد، فيـأتي المثـل أيضـاً في غايـة البلاغـة لقـصره ولكثافـة المعنـى فيـه. وغالبـاً مـا يكـون المثـل ناشـئاً عـن سـبب يـؤدّي إلى نتيجـة متوقعـة. فللتعبـير عـن الحـظ العاثـر، وعـدم التوفيـق في القيـام بـأي عمـل أوجـدا المثـل التـالي: **اشـتغل بالكفـان، بطـّـل حـدا يمـوت.** أمـا صاحـب الإعاقـة الجزئيـة فهـو في أحسـن حـال بالمقارنـة مـع الإعاقـة الكاملـة، فيقـال: **الأعـور بـين العميـان ملـك مفتّـح.** وعندمـا يُعطـى لحـدث مـا أهميـة مبالـغ فيهـا يقـال: **الجنـازة حاميـة والميـت كلـب،** بمعنـى أن الحادثـة لا تسـتحق كل هـذا الاهتـمام. وعندمـا يُـزار أحـد الأصحـاب في بيتـه وهـو غائـب، ومـن ثـم جـاء بالصدفـة، فيبـادره أحـد الزائريـن بالقـول: **النـاس بـدارك والمفتـاح بزنـارك.** أمـا المـرأة التـي لم تحـظَ بالجـمال، فعليهـا أن تعـوّض هـذا النقـص بخفـة الـروح، وحسـن اسـتقبالها للزائريـن، فيقـال: **إذا كنـتِ وحشـة كـوني نغشـة.** وعندمـا ينقطـع الأمـل في الحصـول عـلى مبتغـى مـا صعـب التحقيـق، يقـال بعبـارة بليغـة: **أمـل بليـس بالجنـة.** وهـذا يعنـي أن هـذا الأمـل مـن المسـتحيل تحقيقـه، وهـو يسـاوي أمـل إبليـس في الدخـول إلى الجنـة.

ومـن الأمثـال مـا يحمـل التماثـل والتضـاد في الوقـت عينـه. فيهـا مـا يحمـل الحالـة السـببية والنتيجـة المتأتيـة عنهـا، ومـن ثـم حالـة مناقضـة مـع النتيجـة المتأتيـة عنهـا. فعندمـا يقـال إن الغنـي يـزداد غنـى نتيجـة اسـتثمار أموالـه

وتوالدهـا مـن بعضها بعضاً، يقـال أيضـاً إن الفقـير يـزداد فقـراً لأن مـا ينتجـه يتناقـص باسـتمرار بازديـاد مصاريفـه بتوسـع متطلبـات الحيـاة مـع بقـاء مـا ينتجـه عـلى حالـه. فيعـبّر المثـل عـن هـذه الأحـوال بالقـول: **المـال بيجـرّ المـال والقمـل بيجـر السـيبان.** أمـا عنـد المقارنـة بـين التاجـر الناجـح والمثقـف المعتـبر، فـإن المسـألة تتعلـق بنجـاح كل امـرئ بمـا يقـوم بـه مـن مهـام. ذلـك أن مـن المهـم النجـاح في الأعـمال، بـصرف النظـر عـن نـوع العمـل، فيقـال لذلـك، **مجـد التاجـر بكيسـو، ومجـد العـالم بكراريسـو.** وفي حـال المقارنـة بـين مضاديـن، والـضرر المتـأتي مـن كل منهـما، وهـو لسـان حـال المتذمـر مـن أمـور الحيـاة الـذي يوصلـه إلى التشـاؤم، يقـال لـه في وصـف حالتـه: **الحـرّ بيحرّنـا والـبرد بيضرّنـا.** وفي حـال القيـام بالأعـمال الخـيّرة في هـذا العـالم، لا بـدّ مـن الحصـول عـلى الأجـر والثـواب والرحمـة في الآخـرة. ويقـول المثـل في هـذه الحـال: **إرحَـمْ مَـنْ في الأرض يرحمـك مـن في السـماء.** أمـا عـلى سـبيل المقارنـة بـين الشـاب والكهـل في حـال الـزواج، ولتقريـب الفتـاة مـن القبـول بطالـب الـزواج ولـو كان كبـيراً في السـن، فيمكـن أن يكـون الكهـل الحنـون (الشـايب) أفضـل مـن الشـاب الـذي يمكـن أن يعـذّب زوجتـه، لأن مـن المهـم العيـش في سـعادة ودلال. ويقـول المثـل في وصـف هـذه الحالـة: **شـايب يدلّـل ولا شـب يهـين.** وفي حـال التـصرف عـلى أسـاس المصلحـة في التعاطـي مـع الآخريـن، وبعـد أن يحصـل عـلى مبتغـاه، يبتعـد سريعـاً متخليـاً عـن كل مـا فعلـه سـابقاً، فيقـال لـه: **ظلّيـت صـلّي حتـى حصـل لي، ولمـا حصـل لي بطّلـت صـلّي.**

أمـا الأمثـال التـي تدخـل في بـاب التماثـل والتضـاد، فهـي كثـيرة ومختـصرة وسـهلة الحفـظ والتـداول وعصيّـة عـلى الاندثـار. وهـي مدرجـة هنـا ومرتبـة حسـب الحـروف الألفبائيـة:

الأبواب مغلّقة والهموم مفرّقة.

الأرض الواطية بتشرَب ميّتا وميّة غَيْرا.

الأعور بين العميان ملك مفتَّح.

الحرّ بيحرّنا والبرد بيضرّنا.

الحمار حمار ولو حِمِل خَزْنِة السّلطان.

السَّبع متى شابْ، بيصير مَضحكة للكلاب.

اشتغل بالكفان، بطـّل حدا يموت.

الشر من شراره.

العَنزة الجِرْبانة ما بتشرب إلا من راس النّبع.

العنزة مقتولة والديب حدّها.

العين ما بيتخبّى عليها شي.

العين محروسة.

الغضبان خي المجنون.

الفرفور ذنبه مغفور.

القلوب شواهد.

اللي بياخد من غير ملتو بيموت بعلّتو.

اللي بيعرف بيعرف واللي ما بيعرف بيقول كف عدس.

اللي في جنبه مسلّه بتنعره.

اللَي مِتِلْكُن بيِحْكمْكُن.

المال بيجرّ المال والقمل بيجرّ السيبان.

الميت كلب والجنازة حامية.

أنفخت الدف وتفرق العشاق.

النَّقلة فيها فَرَج.

الناس بدارك والمفتاح بزنارك.

الي ما بيفهم من الاشارة، الحَكي معو خسارة.

إبن الحكومة إذا صادقته أكلك، وإذا عاديته هلكك.

إجري وإجرك بالفلق.

إذا كنتِ وحشة كوني نغشه.

إرحَمْ مَنْ في الأرض يرحمك من في السماء.

إجت الحزينة تفرح ما لقت لها مطرح.

أحمر متل طيز القرد.

أم القاتل بتنسى وأم المقتول ما بتنسى.

أمل بليس بالجنة.

بَيْت الظالم خْرابْ.

باب النجار مخلّع.

باع جلد الدب قبل صيدو.

بحبّك قد وجع البطن.

بحبك يا سواري مثل زندي لا.

بطن تمام.. كيف تمام.

بعد هالكَبرة، جبّة حمرا.

بكانُونْ كِنْ وعَالفقِيْرْ حِن.

بلا دف عم نرقص.

بياخده على البحر وبرجعو عطشان.

بيصب الزيت على النار.

بيطلع من السواهي دواهي.

بيعوم على شبر ميّ.

بيلحس الدبس عن الطحينة.

تخانق البحر والريح طلعت الفلّة ع المراكب.

تيتي تيتي، متل ما رحتِ مثل ما جيتِ.

جَوّز الفقير عَالفقيرة، بتْكَتِّر الشَّحّادين.

جبنا الأقرع ليونّسنا.. كشّف على القرعة وفزعنا.

جرس على طيز بغل.

جهل الختيار ما لو دبّار

حَدا بيشتري سمك بالبحر؟

حَطو ذنب الكلب بالقالب أربعين سنة وبقي أعوج.

حارة وشبابيكها حمر، والعيشة فيها بتقصف العمر.

حايص مثل دجاجة بدها تبيض.

حط رجليك بماء باردة.

حلقلو عالنّاشِف.

حمل السلم بالعرض.

راح جحا ت يصلّي، شاف باب الجامع مسكّر.

راح ع حصان، رجع ع بغل.

راحت السكرة وإجت الفكرة.

رجعت حليمة لعادتها القديمة.

رجل في الفلاحه ورجل في البور.

زاد الطين بلّة.

شابِتْ وما تابِتْ.

شايب يدلل ولا شب يهين.

شباط ما ع كلامه رباط.

شحاد ومشارط.

شحمة ع فطيرة.

شمام هوا قطاف ورد.

شو بتعمل الماشطة بالوجه العكر.

شو جاب طز لمرحبا؟

شي تك تك.. شي تيعه.

صاحبي وعيوني وصَوب الجيبة لا تقرِّب.

صار لها زوج قالت أعور ما اريده .

صام صام وفطر على بصلة.

صيف وشِتي عَ فرد سطح ما بيِجْتمْعو.

ضاع المسك بسوق البصل.

ضربني وبكى وسبقني واشتكى.

طبنِي طبتَك العافية.

طرشا ع الباب بتتنصَّت.

طلّقها ورجع يتطلّع بسيقانها.

طنجرة ولقيت غطاها.

طول عمرك يا زبيبة بطيزك هالعُودة.

ظلّيت صلّي حتى حصل لي، ولما حصل لي بطّلت صلّي.

ع السما مش رايحين، وبجهنم ببوسو إجرنا.

عاوز مستغني.

عرَج الجمل من شفتو.

عصفورين بحجر واحد.

عقلاته براس طربوشه.

عقلاته على صوص ونقطة.

علمناهم على الشحادة سبقونا على الأبواب.

على الأرض يا حكم.

على الوعد يا كمّون.

على مد عينك والنظر.

عمر الشقي بقي.

عيش الفهيم مع البهيم داء سقيم.

عيني فيه وتفوه عليه.

عيون زرق وسنان فرق.

غالي والطلب رخيص.

غريب واكذب ما تريد.

غيبة المستحية من ع بكره لعشية.

فوق الدكة شرطوطة.

قالوا للجوعان: اتنين واتنين، قال: أربعة ارغفة.

قتل القتيل ومشي بجنازته.

قلّو ثور.. قال احلبو .

كاسر إيدو وشاحد عليها.

كثرة الشد بترخي.

كثرة الضحك، تذهب الهيبة.

كلّ رَعْدة بآدار مَطْرة بنيسانْ.

كل شيء مع العافية طيب.

كل طلعة وراها نزلة.

كل ما دقّ الكوز بالجرة.

كل ممنوع مرغوب.

كل من حط فلوسه، بنت السلطان عروسه.

كلام البغيض يغيظ.

كلام الليل يمحوه النهار.

كلنا في الهوا سوا.

كله كلام بكلام.

لا بيهشّ ولا بينشّ.

لا تقول فول، تيصير بالمكيول.

لا تنام بين القبور ولا تشوف منامات وحشة.

لا تنام بين الدبابير وتقول على الله التدبير.

لا صداقة إلا بعد عداوة.

لا لسان ولا إحسان.

لبّس المكنسة بتصير ست النسا.

لعب الأيادي من قلة طراوة اللسان.

لعب الفار بعبه.

لو كان لستي هونيك شي، كنت بقول لها يا جدي.

ما بيجي شيء من الغريب بيسرّ القلب.

ما بيعرف قيمة الشيء إلا صاحبه.

ما يحك جسمك إلا ظفرك.

متل اللي بيوَكِّل القط بالجبنة.

متل سيرة الحيّات، بتبدا ما بتخلص.

مثل القطاط بسبع ارواح.

مثل القطاط يأكل ويذم ويحرث ويطم.

مثل بالع الموس.

مجد التاجر بكيسو، ومجد العالم بكراريسو.

مسبّع الكارات.

مفتاح البطن لقمة، ومفتاح الشّر كلمة.

مكتوب على بواب الجنة ما عمرها حماة حبّت كنّة.

مكتوب على ورق الخيار اللي بيسهر الليل بينام بالنهار.

من الفجر للنجر.

من تحت الدلفة لتحت المزراب.

من صَبَرَ نال ومنْ لَجّ كَفَر.

ناس بتاكل دجاج وناس بتوقع بالسياج.

نام دافي بتقوم معافي.

نام على وجهه طَب.

نزل الفلاح عالمدينة ما استحلى غير الدبس بالطحينة.

نشره على صنوبر بيروت.

نصيحة الأحْمَق بعداوة.

وِحشة وعِكشة، وواقفة بالوِج.

وصل الموس إلى اللّحية.

وصلونا لنص البير وقطعو الحبل فينا.

يا آخد القرد على ماله راح المال وبقي القرد على حاله.
يا طالب الدبس من طيز النمس.

يا لَوْزْ، يا مَجْنونْ بِتْزَهرْ بِكانُونْ.

يا لطيف جلده شو متمسح.

يا لطيف شو خبيث مثل الثعلب.

يا لطيف شو ناعمة مثل الحيّة .

يتمسكن حتى يتمكن.

يحب الرفعة ولو على الخازوق.

يسلم هالطول.. مثل عرق الفول.

يوم عرسه وجعه ضرسه.

بلغ عدد الأمثال التي تدخل في باب التماثل والتضاد 166 مثلاً، بنسبة 22% من مجموع العينة.

العلاقات الاجتماعية

لأن الإنسان إجتماعي بطبعه، ولا قدرة له على العيش منفرداً، لحاجته الماسة إلى غيره من الناس من أجل التعاون لمواجهة أعباء الحياة، جاءت الأمثال لتؤكد على ذلك باعتباره أمراً فطرياً، ليس في حاجة إلى الاكتساب والتعلم. فكانت المعبّرة عن اجتماعية الإنسان وحاجته إلى التعاون، وما يستتبع ذلك من علاقات متأتية من هذا التعاون، منها ما هو إيجابي ناشئ عن المحبة والتكافل والتضامن والاحسان والتسامح، ومنها

ما هو ناشئ عن النزاع والصراع المستتر والمعلن، وعن الحسد والحقد والأنانية. فجاءت الأمثال لتعبّر عن هذه الحالات تحت عنوان العلاقات الاجتماعية. ومنها الكثير يدخل تحت عنوان القيم الاجتماعية التي مرّت معنا سابقاً. ومن المهم، هنا، أن نشير إلى أن هذه الأمثال تختصّ بإظهار أهمية العلاقات الاجتماعية، باعتبارها كذلك، لا باعتبار القيم المتأتية عنها، أو الناشئة من هذه العلاقات.

من هذه الأمثال ما يدل على ضرورة التعاضد والتكاتف لمواجهة مصاعب الحياة، لأن الإنسان منفرداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً، **فالإيد الواحدة ما بتزقّف. والبحصة بتسند خابية.** والمساعدة مهما كانت بسيطة، فإنها تؤثر إيجاباً وتزيد من الإلفة والمحبة. ولأن العلاقات الاجتماعية ضرورية، فإن البيت الضيّق يتسع لكل المحبين، لأن حرارة اللقاء في اللحظات المناسبة، تلغي الفواصل وضيق المساحات، لأن **البيت الضيّق بيساع ألف محب.** يقول المضيف هذا المثل حتى لا يتحرّج الزائرون بسبب ضيق المكان. كما أن **الصديق لوقت الضيق**. والعلاقات الاجتماعية تنبني على ما يحبّ المرء ويهوى، لأن **الإجر بتدبّ مطرح ما بتحب**. إلا أن العلاقات الاجتماعية لا تعني الانفلات من كل قيد، والانفتاح على الآخرين بدون تحفّظ، لأن **السر إذا تجاوز تنين شاع.** وإذا تجاوزت الشركة الإثنين، دبّت الفوضى، لأن المثل يقول: **تنين شراكة تلاتة لبكة.**

وفي ما يتعلّق بظهور النزعة الفردية من ضمن موقعها في علاقاتها الاجتماعية، يقول المثل إن **الحجر التقيل ما بينهزّ من مطرحه**، للتدليل على أن العلاقات الاجتماعية لا تلغي الموقع الفردي في المجتمع، ومن الضروري الحفاظ على المقامات. ذلك أن **الحيط الواطي كل واحد بينطّ عنّو.** ولأن الأمر كذلك، فمن المهم أن يبقى الإنسان متحفظاً في علاقاته الاجتماعية، لأن المثل يقول: **إللي بيغربل الناس بينخلوه.** وقيمة **المرء في أصغريه قلبه ولسانه.** وهو بحاجة للتعاون لأن **الناس ما بتستغني عن**

بعضها. لذلك إذا حصل أي جفاء أو تباعد لا بد من إزالته بالعتاب منعاً لتراكم الأخطاء الموصلة إلى القطيعة فالأحقاد. لذلك **فالمعاتبة صابون القلوب. والعتب عـ قدّ المحبة.** أما إذا باع أحدهم صداقتك بسعر بخس، فما عليك إلا أن تتخلى عنه بسعر أقل، لأن **يلّلي باعك ببصلة، بيعو بقشرتها.**

ولأن المجتمع لا يرحم المتكاسلين وأصحاب الألسنة الطويلة، **فالحركة فيها بركة،** ونوعية المعاشرة تُظهر معدن الإنسان، وتعرّض المرء للهزء والسخرية. لأن المثل يقول: **عاشر الجربان لازم تجرب.** وكذلك **عاشر الكبير بتكبر.** ويفصّل المثل أكثر بقوله: **عاشر المصلّي بتصلي، وعاشر المغنّي بتغنّي.** وإذا نصحت أحدهم بالتروّي في انتقاء الأصدقاء، والابتعاد عن أهل السوء ولا يرعوي، يقال له: : **بزرعك بين البقدونس بلاقيك بين الكزبرة.** وإذا كان المرء صاحب غرض، يصير عاجزاً عن التفريق بين ما يتوجب عليه فعله، وما عليه الابتعاد عنه، فيقال**: الغرض مرض وصاحبه أعمى.** وللعلاقات الاجتماعية أعراف لا يمكن تجاهلها. فعلى المرء أن ينفّذ مضمون المثلين: **قعاد أعوج واحكي جالس. ومجنون يحكي وعاقل يفهم.** وللتعبير عن ضغط المجتمع ودوره في عملية التكيف الاجتماعي، لا بد من السير حسب ما يرضي المحيط في السلوك والتصرف. فللمرء أن يأكل ما يشاء، ولا ينطبق هذا الأمر على اللباس، لأن المثل يقول: **كول على ذوقك ولباس على ذوق الناس.**

لا تخلو العلاقات الاجتماعية من توتّرات بين الأقارب لأسباب متعدّدة تلحق الضرر بأناس من قبل أقربائهم. لذلك لحظ المثل هذه المسألة في القول: **الأقارب عقارب.** وفي حال التوسط بين المتباعدين من الأقرباء على يد قريب منهم، يقول هذا قبل أن يقول كلمة الحق التي عليها أن تكون الفيصل في النزاع وتقريب البعيد، لأن الطرفين يمتّان إليه بصلة القرابة: **إن بزّقنا لفوق ع شواربنا وإن بزّقنا لتحت ع دقنّا.**

أمـا أهـم الأمثـال وأكثرهـا، فهـي تلـك التـي تتعلـق بالجـار والجـيرة، نظـراً لأهميـة الجـار في الـتراث العـربي الإسـلامي، إنطلاقـاً مـن القـول المأثـور: **النبـي وصّى عـلى سـابع جـار.** مـا يعنـي أن كل النـاس جـيران، ومـن المهـم التعامـل فيـما بينهـم بالحسـنى والإلفـة. إلا أن ذلـك لا يمنـع مـن وجـود الأمثـال المسـتخلصة مـن الواقـع الاجتماعـي الـذي أفـرز الكثـير مـن الخصومـات بـين الجـيران. فجـاءت الأمثـال لتعـبّر عـن هـذه الحـالات، بوجـوب وضـع الحـدود بـين الجـيران، والحـذر مـن التعامـل معهـم إلا بمـا هـو ضروري، حتـى لا يصـل الأمـر إلى الخصومـة والشـجار. لذلـك نـرى في هـذه الحالـة تناقـض الأمثـال فيـما بينهـا، مـن وجـوب بـذل الغـالي والنفيـس للحفـاظ عـلى الجـار، إلى إظهـار أهميـة تجاهلـه والابتعـاد عنـه كسـباً لراحـة البـال والاسـتقرار.

في حالـة التشـجيع عـلى القـرب بـين الجـيران للحاجـة الماسّـة إلى الجـار في الظـروف الطارئـة، يقـول المثـل: **جـارك القريـب ولا أخـوك البعيـد.** ليـس هـذا فحسـب، بـل الجـار يبقـى جـاراً لا يسـتغنى عنـه ولـو ظلـم. لذلـك **عليـك بالجـار ولـو جـار.** لأن مصـيرك مرتبـط بمصـيره، كـما العكـس. فالمثـل يقـول: **إذا حلـق جـارك بـلّ ذقنـك.** ولأن الأمـر كذلـك، لا يمكـن أن يضـام جـاري وأنـا قـادر عـلى مسـاعدته. نفـرح معـاً ونحـزن معـاً ونعـاني معـاً. فــ **رغيـف برغيف ولا يبيـت جـارك جوعـان.** ويمكـن أن أخـسر الغـالي بـدل أن أخـسر جـارتي، تقـول إحداهـن بنـاء عـلى المثـل: **إن كانـت وقيّـة إسـوارتي مـا لي غنـى عـن جـارتي.** مـا يعنـي أن ضيـاع الذهـب لا يوصـل إلى اتهـام الجـارة، لأن في ذلـك خسرانهـا. وفي كل حـال، **مـا دام جـارك بخـير أنـت بخـير،** للتدليـل عـلى وحـدة العيـش ووحـدة الإرادة، لأن مـا يعرفـه الجـار عـن جـاره يعـادل مـا يعرفـه أهـل كل منهـما، لأنـه قيـل: **مـين هـو أخـبر فيـك؟ جـارك ومربّيـك.**

في المقابـل، يعـاني الجـار، في أحيـان كثـيرة، مـن ظلـم جـاره، أو مـن تعـدٍّ عـلى حـدوده، أو مـن إزعـاج مـا، فيـأتي المثـل ليلحـظ هـذه الحـالات، لتصـل، مـن بعـد، إلى حـد التعميـم، باعتبارهـا أمثـالاً تعـبّر عـن الواقـع، وتصـف عمـوم

العلاقـات الاجتماعيـة، بحلوِهـا ومرّهـا. لنلحـظ هـذا المثـل الـذي يقـول: **يـا جـاري إنـت بحالـك.. وأنـا بحـالي.** وكأننـا سـمعناه يقـال بعـد مشـادة كلاميـة بـين جاريـن اختلفـا عـلى حـدود الملكيـة، أو تـضرر أحدهـما مـن تـصرّف الآخـر. ويمكـن أن يتبعـه بمثـل آخـر في حـال اشـتداد الـضرر: **إذا كنـت جـاري لا تخـرب ديـاري.** لذلـك يـوصي المثـل بحفـظ حـدود العلاقـة بـين الجـيران في القـول: **سـكّر بابـك وأمّـن جـارك.** وفي حـال المقاطعـة الكلاميـة بينهـما يعمـل المتـضرر عـلى إسـماع جـاره مـا يريـد قولـه لـه، بطريقـة غـير مبـاشرة، متوجّهـاً إلى جـار آخـر. فيفهـم المعنـي بالأمـر أن الـكلام موجّـه إليـه، **أي عـم يسـمّعو.** فـيردّد بينـه وبـين نفسـه: **عـما أحكيـكي يـا جـارة تـا تسـمعي يـا كنّـه.**

ومـن العلاقـات الاجتماعيـة مـا يقـضي بإقامـة علاقـات وثيقـة بـين الجـيران أو الأصدقـاء، ومـن ثـم تتغـير الظـروف بالهجـرة ثـم العـودة عـلى وضـع أفضـل، ماديـاً أو علميـاً متزامنـاً مـع الإنقطـاع عـن الاختـلاط والتفاعـل بـين الجـيران والأصدقـاء، مـا أنتـج أمثـالاً متعـددة تلحـظ هـذه الحالـة، منهـا: **إدعـي لصاحبـك بالسـعادة بتخسرو.** ومنهـا أيضـاً، للحـظ الفـارق بـين الأمـس واليـوم، **الكبريـا لــ اللـه.** وللتذكـير بالمـاضي الـذي راح، يقـال: **السـلام عالمعرفـة.** ويمكـن أن يرفـق هـذا المثـل بمثـل آخـر يقـال عـلى سـبيل التذكـير والتنبيـه: **ربّنـا مـا بيحـبّ لا متكـبّر ولا متجـبّر.**

تدخـل مسـائل الـزواج والمصاهـرة في صميـم العلاقـات الاجتماعيـة. ومـن خـلال التجربـة والخـبرة تبـيّن أن حـالات الـزواج لا تتـمّ دائمـاً وفـق تمنّيـات الأهـل والأزواج. فيهنـأ قسـم مـن المتزوجـين بزواجهـم، ويفشـل قسـم ثـان، ويعيـش قسـم ثالـث في قهـر وعـذاب دائمـين. فكانـت ردّة الفعـل عـلى هـذه الحالـة الحـذر الشـديد والخـوف مـن فشـل الـزواج وانتهائـه بالطـلاق، أو بالمعانـاة الدائمـة، فقيـل: **حـط إيـدك بجنـازة ولا تحـط إيـدك بجـازة.** ولأن الـزواج غـير مأمـون العواقـب، فمـن المفيـد أن يعلـم المـرء، درءاً لمـا سـتأتي بـه الأيـام مـن إمكانيـة عـدم التوافـق، أن مـن الحكمـة عـدم زيـادة إمكانيـة

عـدم التوافـق، وذلـك بإظهـار المحبـة والحنـان للصهـر العتيـد، ليظهـر ذلـك في العلاقـة مـع الزوجـة مسـتقبلاً. لذلـك، **الـلي بـدك تصاهـرو لا تقاهـرو.** وفي كل الأحـوال يتوجـه المثـل إلى أهـل الفتـاة المقبلـة عـلى الـزواج بالقـول: **الصيـت الحسـن خـير مـن المـال المجمـوع.** ويتوجّـه إلى طالـب الـزواج بالقـول: **خـود الأصيلـة ولَـو عَالحصـيرة.**

لا شـك في أن العلاقـات الاجتماعيـة أعقـد بكثـير مـما حاولنـا إظهـاره مـن الأمثـال التـي تطـول هـذا الحقـل المعـرفي الهـام. لذلـك مـن المفيـد إدراج الأمثـال المتعلقـة بهـذا الحقـل. ومـن السـهل عـلى القـارئ معرفـة إلى مـن يتوجـه كل مثـل منهـا. ومـا قدّمنـاه مـا هـو إلا عينـة مـن الـشرح والتحليـل لبعـض هـذه الأمثـال، وإظهـار وظيفتهـا في تجليـات العلاقـات الاجتماعيـة الممارسـة في الحيـاة اليوميـة.

الإجر بتدبّ مَطْرح ما بَتْحِبّ.

الإنسان مثل الشجرة بينكسى وبيعرا.

الأقارب عقارب.

الإيد الواحدة ما بتزقّف.

البحصة بتسند خابية.

البدوي إذا غسّلتو بيموت.

البومة لو فيها خير ما فاتها الصيّاد.

البيت الضيق بِيْساع ألف محِبّ.

التكرار بيعلّم الحمار.

الثنان شراكة ثلاثه لبكه.

الحجر الثقيل ما بينهزّ من مطرحه.

الحركة فيها بركة.

الحيط الواطي كل واحد بينط عنه.

السر إذا تجاوز تنين شاع.

السلام على المعرفة.

الصديق لوقت الضيق.

الصيِّت الحسن خير من المال المجموع.

العتب ع قد المحبة.

الغالي بيرخصلك.

الغايب عذرو معو.

الغربة كربة.

الغرض مرض وصاحبه أعمى.

الفزع بيطيّر الوجع.

الكبريا لـ الله.

اللّي بَدَّك تصاهرو لا تقاهرو.

اللّي بيغربل الناس بينخلوه.

المرء بأصْغَرَيه : قَلْبو وِلْسانو.

المصلح إلو تلتّين القتلة.

المعاتبة صابون القلوب.

الناس بالناس والقطة بالنفاس.

الناس ما بتستغني عن بعضها.

إبن الحلال عند ذكره يبان.

أحلى على قلبي من العسل.

إجا زبون العوافي.

إحترنا يا قرعة منين بدنا نبوس.

آخذ وج.. ومكتّر.

أخوت يحكي وعاقل بِفْهم.

إدعي لصاحبك بالسعادة بتخسرو.

إذا بدّك تخرب بلاد، ادْعي عليها بكتر الرؤسا.

إذا حلق جارك بل ذقنك.

إذا قلتلّك تقبرني بتجيب المجرفة وبتطمني؟؟

إذا كنت جاري لا تخرب دياري.

أقعاد أعوج.. وإحكي جالس.

أكثر من قرد ما مسخو الله.

أكل الهوا للواطي دوا.

إللي بدو ينكيك بيشيل العيب اللي فيه وبيحطّو فيك.

إللي بيعوز الكلب بيقول له صبحَك بالخير يا سيدي.

إنّ الطيور على أشكالها تقع.

إن بزقنا لفوق ع شواربنا وإن بزقنا لتحت ع دقنّا.

إن كانت وقية إسوارتي ما لي غنى عن جارتي.

أنيس وجليس.

أيدها بالطبق وعينها على مين زعق.

بزرعك بين البقدونس بلاقيك بين الكزبرة.

بعد أربعينه.. عدّوا سنينه.

بيت السبع ما بيخلى من العظام.

بيتعدوا علينا على عينك يا تاجر.

جارك القريب ولا أخوك البعيد.

حِيَل النسوان بتنزِّل المحادل عن السطوح.

حط إيدك بجنازة ولا تحط إيدك بجازة.

خود اسرارهم من صغارهم.

خود الأصِيْلة ولَو عَالحصيرة.

خير الكلام ما قل ودل.

دود الخل منه وفيه.

ربّنا ما بيحبّ لا متكبّر ولا متجبّر.

رغيف برغيف ولا يبيت جارك جوعان.

سِرّن سرّ معّازي: من قاطع لقاطع.

سكر بابك وأمن جارك.

شمّ ولا تذوق.

شو بدي اترجى منك يا سفرجلة وكل عضة بغصّة؟

شو ع بال عكا من هدير البحر.

شو هو واقع من إجرين الشوحة.

شوارب كبار يا ع طبال يا ع زمار.

صابون العرب لحاها.

صار له في القصر من أمس العصر.

صار يضرب خماسه بسداسه.

صديق الـ ما بينفع مثل عدو الـ ما بيضر.

ضحك بلا سبب من قلّة الأدب.

ضحكته بسنانه وسمومه بلسانه.

ضرب الحبيب زبيب وحجارته رمان.

طعمي التم بتستحي العين.

طنّش.. وحط بالخرج.

ظاهر العتاب أفضل من الحقد.

عاشر الجربان لازم تجرب.

عاشر الكبير بتكبر.

عاشر المصلّي بتصلّي، وعاشر المغنّي بتغنّي.

عليك بالجار ولو جار.

عما أحكيكي يا جارة.. تا تسمعي يا كنه.

عمرك أطول من عمري.

عمرك لا تقول للمغنّي غنّي، ولا للراقوص ارقص.

غبرتك ورّتت هالوحلة.

فرقة الحي صعبة.

قالوا للبغل مين أبوك؟ قال الحصان خالي.

كل طويل هبيل، وكل قصير في الأرض فتنة.

كل لحية ولها مشط.

كلام الأسى ما بينتسى.

كول على ذوقك ولباس على ذوق الناس.

كيد النساء.. غلب كيد الرجال.

لا ترافق أجرودي ولو كان من السعودي.

لا تقصّ ذنب حمارك قدّام تنين، واحد بيقول قصير وواحد بيقول طويل.

لا غريب إلا الشيطان.

لاقيني.. ولا تغدّيني.

لا لسان ولا إحسان.

لسانه متل طرطاق الطاحون.

لولا الغيرة ما انفرشت حصيرة.

ما دام جارك بخير أنت بخير.

ما غاظك إلا يللي بلّغك.

مجنون يحكي وعاقل يفهم.

من تمك أحلى يا كحلا.

من هو أخبر فيك؟ جارك ومربّيك.

مينْ شَكَر بحالو ذَمّتو الناس.

هِين فلسك ولا تهين نفْسك.

وِجّو بيقطع الرزق.

وِجّو متل ورقة النعوة.

يا جاري إنت بحالك.. وأنا بحالي.

يا رايح كتّر القبايح.

يا رايح كتّر الملايح.

يا رب ما تجعلني عبرة لغيري.

يا ربي بلا شماتة.

يا غريب كن أديب.

يلّلي باعك ببصلة، بيعو بقشرتها.

يلّلي ما بيغار بيكون حمار.

يللي ما بيجي معك.. تعا معو.

بلـغ مجمـوع الأمثـال التـي تدخـل في بـاب الحقـل المعـرفي الـذي يتنـاول العلاقـات الاجتماعيـة 122 مثـلاً مـن أصـل مجمـوع العينـة البالـغ 750 مثـلاً، وبنسـبة 16%.

الفصل السادس

الأمثال الشعبية والدلالات المعرفية

(2)

يكمل هذا الفصل ما ابتدأ به الفصل السابق. وهو البحث في الدلالات المعرفية للأمثال. ومن المهم قوله في هذا المجال، أن تبويب الأمثال على الشكل الذي سبق، وما سيأتي، خاضع لاجتهاد الباحث في نسبة هذا المثل إلى هذا الحقل، لا إلى ذاك، علماً أن المثل نفسه يمكن أن يدخل في أكثر من حقل. ولكن في نهاية المطاف لا بد من الاختيار، مع التأكيد على الحرص في عدم تكرار المثل في أكثر من باب، وإن كان ذلك جائزاً. إلا أن منهجية البحث السوسيولوجية تفرض الدقة في هذا التبويب، لمعرفة أكثر الأمثال تداولاً في كل حقل معرفي، من خلال العدد ضمن العينة، من ناحية؛ ونسبته إلى مجموعها، من ناحية ثانية، ومحاولة تحليل وتفسير ذلك.

العلم والمعرفة

تأتي في المرتبة الرابعة الأمثال التي تُظهر ما يشير إلى الإهتمام بالعلم والمعرفة، ووجوب نهل العلم من أي مصدر أتى.

يتناول هذا الحقل المعرفي خلاصة ما توصل إليه العلم والمعرفة من شؤون الحياة، ويقدّمها بقالب من الأمثال ليسهل حفظها، ومن ثم العمل بمقتضاها؛ أو تجنّب ما تنصح بالابتعاد عنه، إما بتدبير العقل وتوسّل البرهان في ما تلقاه من ظواهر طبيعية، أو من أفعال إنسانية، أو من خلال الإفادة من تجارب السلف وخبرته في تعاطيه مع أمور الحياة،

أو في علاقاتـه الاجتماعيـة وممارسـاته اليوميـة، أو خلاصـة مـا توصّلـت إليـه التجربـة الإنسـانية مـن تكـرار الخطـأ أو الصـواب.

في مـا يتعلـق بالعقـل والتأكـد مـما تـراه العـين، وعـدم الاعتـماد عـلى السـمع وحـده، ظهـرت أمثـال كثـيرة تبـيّن أهميـة النظـر العقـلي والبرهـان، وتـوصي بعـدم الاعتـماد عـلى الحـس فقـط، أو عـلى أقـوال الآخريـن. في هـذا المجـال، يـوصي المثـل بالتفكـير وإعـمال العقـل في شـتى شـؤون الحيـاة، ومـن بعـد ذلـك، يفعـل اللـه مـا يشـاء، **لأن الإنسـان بالتفكـير واللـه بالتدبـير**. لذلـك يمكـن التأكيـد عـلى أن الإنسـان عـدوّ مـا يجهـل. والمعرفـة هـي أسـاس التقـدم، **لأن الـلي مـا بيعرفـك بيجهلـك.** وبالتـالي لا يكشـح الظـلام إلا النـور، ولا يغلـب الجهـل إلا المعرفـة والوعـي. وكلـما تراكمـت تجـارب المـرء رجـح عقلـه، لأن **عقـل الكبـير كبـير.** لذلـك، يقـال إن مـن أعمـل عقلـه في أمـور الدنيـا لا يمكـن أن يتـورط في شي، لأن العقـل منجـاة مـن الغلـط. وإذا كان **عقلـك براسـك بتعـرف خلاصـك.** ومـا يقـوم بـه المـرء عـن درايـة وتفكـير، يقـال لـه: **عـين العقـل**. فأولويـة العقـل هـي المبـدأ، ومـن ثـم تـأتي الحـواس، وأولاهـا، الجديـرة بالثقـة، حاسـة النظـر، لأن **الحـكي مـا متـل الشَّـوف**. ولأن الأولويـة للعقـل، فصاحـب العقـل الراجـح يسـتطيع أن يسـتوعب مـن هـم دونـه، لأن **الوِعـي الكبـير بيسـاع الصغـير**. وليتعلـم الإنسـان ليصـير ذا عقـل راجـح، فـلا بـد أن يشـغله السـؤال وحـب المعرفـة، لأن **حسـن السـؤال نصـف العلـم**.

والمتعلـم بالعقـل وبالتفكـير العقـلاني لا يغلبـه أحـد، حتـى وإن كان فارسـاً، **لأن الـدارس غلـب الفـارس.** وفي حـال وقـوع العاقـل في الغلـط، وهـو مـن النـادر، يقـال: **غلطـة الشـاطر بألـف**. والاهتـمام بالتعليـم، وإن قوبـل بعـدم اهتـمام المتعلـم، يسـتوجب القيـام بـأي خطـوة للوصـول إلى الغايـة، حتـى وإن كانـت التأنيـب والـضرب، لأن **الـضرب بيعلّـم الـدب يرقـص.** وإذا كان غـير قابـل للتعلـم، وإذا لم يكـن سريـع البديهـة، فمـن العبـث تعليمـه. وإذا كان المـرء

بطيء الفهم والاستيعاب، فلا يستحق إضاعة الوقت معه، لأن **اللي ما بيفهم من الاشارة، الحَكي معو خسارة.**

ولأن التفكير العقلاني المكتسب بالتعلم والخبرة والتجربة ينجّي المرء من الوقوع في المغالط، لا بد من حسبان أي خطوة وتقويم احتمالات نتائجها قبل الاقدام عليها، وخصوصاً في ما يتعلق بالاتفاقات التي كانت تعقد شفوياً، وأحياناً من دون شهود، لأن رباط الرجل في الأيام السالفة كان في لسانه. وعادة ما كان يعبّر عن الاتفاق والعقد بالشرط. والشرط لا مهرب منه عند الرجال. ذلك أن **الشرط سيد الأحكام.** ومن المهم عقده سلفاً قبل القيام بأي عمل يختصّ بموضوعه، لأن **اللي أولو شرط آخرتو نور.** وهكذا يكون **الشرط بالحقلة ولا قتال عالبيدر.** ولا يمكن أن يكتسب الشرط شرعيته إلا إذا كان برضى أصحاب العلاقة، لأن **شرط المرافقة الموافقة.**

ويتبع ذلك وجوب معرفة عواقب الأمور قبل حدوثها. وهذا ما يتطلب التعقل والروية، والافادة من تجارب الآخرين. ومن ذلك وجوب التفريق بين القول والعمل. فمن يتعب في تحصيل قوته أو علمه، ومن يتعرّض إلى ضيم أو عذاب ويعاني منهما، يلقى من يهوّن عليه الأمر، ويستنهضه بالكلام المشجّع أو يعيّره بعدم الصبر، يردّ عليه بالقول: **اللي بياكل العصي مش متل اللي بيعدّها.** وإذا تعرض للأذية من خلال تعامله مع أناس ليسوا أهلاً للثقة، يقال له على سبيل النقد: **اللي بيلعب مع القط بدو يتحمل خراميشه.** وإذا أعاد التعامل معهم ولقي النتيجة نفسها، يقال له: **مين جرّب المجرّب كان عقله مخرّب.**

وليكون صاحب العقل الراجح مرتاح البال، يدرك أن إمكانية القيام بالفعل الجيد لا تكفي إذا لم يكن مهيأ لذلك، ومستعداً للقيام به، ولكن إمكانياته لا تسمح، فيقول: **العين بصيرة واليد قصيرة.** وكذلك فهو يدرك جيداً أنه إذا طلب أي أمر من الآخرين، وهو في موقع المسؤولية، فعلى هذا الطلب أن يكون قابلاً للتنفيذ، لأن المثل يقول: **إذا أردت أن تطاع**

فاطلب المستطاع. وكذلك تأتي النصيحة لمتولّي شؤون الناس في قالب المثل، لأن إصلاح الرعية وتدبير شؤونهم وبثّ العدل فيهم أهم من زيادة أعداد المولجين بالأمن والحماية، لأن **إصلاح الرعية أنفع من تكتير الجنود.** كما أن التفكير في عواقب الأمور والروية في القيام بها أضمن للوصول إلى الغاية المرجوّة، لأن **في التأني السلامة وفي العجلة الندامة.**

أما في ما يتعلق بالخبرة والتجربة في أمور الحياة، فقد أفادتنا الأمثال بخلاصة هذه التجارب من خلال فئات من الناس، مع كيفية التعاطي معها، إن كان بالحذر أو التجنّب والابتعاد، أو في كيفية توجيه العلاقة مع هذه الفئات.

في حال العيارة، وهي استعارة غرض ما من الجار أو غيره مؤقتاً، ومن ثم ردّه إلى صاحبه، يوصي المثل بإعارة أي شيء للجار أو القريب، على سبيل التعاون والمساعدة. إلا أن هذا الأمر يقف عند حدود ثلاثة «مقتنيات»، وهي: الزوجة والبندقية والدابة. **تلاتة ما بينعارو: السلاح والدابة والمرا.** وإذا وُضعت الزوجة في هذا المقام، فهذا من شأن المثل، أما المهم فهو في دلالته. ذلك أن الأسرة في المجتمع التقليدي لا تستطيع التخلي حتى للحظة واحدة عن أي من هذه المقتنيات. فالزوجة هي عماد الأسرة، والسلاح هو أداة الحماية في مواجهة أي طارئ، والدابة ضرورية للقيام بموجبات الحياة الزراعية. وهو مثل ريفي في كل حال.

أما المثل الثاني، فيأتي على الوزن نفسه، ويتناول ما لا يطاق في مجريات الحياة الاجتماعية، وهي أمور ثلاثة أيضاً. الكلام الفارغ والثرثرة والنميمة، والشكوى الدائمة من ظلم الحياة وجبروتها، والبق، الحشرة التي كانت تعيث فساداً في الجسم، وإن كان وجودها اليوم نادراً. يقول المثل في هذا المقام: **تلاتة ما ينطاقو: الطق والنق والبق.** الطق هو طق الحنك، أي الثرثرة الفارغة، والنق هو الشكوى الدائمة.

والمثل الثالث يتناول بالنقد حالات مجتمعية بعينها، منها الحكم الظالم والمستبدّ، والمرأة القهّارة في سلوكها وتعاملها مع الآخرين، وخصوصاً مع الزوج والأقارب، والرهبان (رجال الدين) الذين يعتبرون أن ما يمتلكونه ويقولونه يمثل الحقيقة، ولا حقيقة غيرها. يقول المثل في هذا الخصوص: **تلاته ما بينحملو: ظلم الحكام وكيد النسوان وعناد الرهبان.** هذا المثل وإن كان ذا منشأ ريفي جبلي، ينطبق على أهل الريف والمدينة في كل منطقة عربية، وبلهجات وصياغات مختلفة.

أما الثلاثية الرابعة المتأتية من الملاحظة والخبرة هي التي تتناول ما لا يمكن تخبئته من مظاهر البشر والحيوان. فالحب لا بد إلا أن يظهر من خلال السلوك والحركة. والحامل لا يمكن أن تخبّئ حملها إلا إذا حجبت نفسها عن الأنظار، والجمل لا يمكن أن يخبّئ راكبه لأنه أعلى الحيوانات الأليفة. لذلك يقول المثل: **تلاتة ما بيتخبّو: الحب والحمل وركوب الجمل.**

يبقى أن أبلغ ما يدخل في حقل العلم والمعرفة هو المثل الذي يتناول أحوال الطقس وظهور المواسم الزراعية، والأوقات المناسبة لجمع المحصول الذي كان عماد الحياة الجبلية والريفية على العموم. وتعتبر هذه الأمثال المؤشّر الأفضل على محلّيتها من خلال ربط أحوال الطقس أو المحصول، أو الأعياد الدينية في أوقات محدّدة من الأيام والأشهر. ولأن عماد الحياة الريفية مبنيّ على المحصول الزراعي، فإن هذا الأمر يدفع الفلاحين إلى التعمق في فهم الظواهر الطبيعية وكيفية تأثيرها على المواسم الزراعية، وما يمكن فعله للحصول على الانتاج الجيّد. وإذا كانت هذه الأمثال تتناول أمور الريف وأحوال الزراعة وما تختص به شهور السنة، فإن ذلك يحصل على مقلب آخر من الحياة المجتمعية تقوم على ما يهم المدينة وأهلها، وعلى أهل الساحل من المعتاشين على صيد الأسماك والحرف البحرية. لذلك فللمدينة أمثالها، وللبحر وأحواله، أمثاله، وللصيادين

أمثالهـم التـي يحفظونهـا عـن ظهـر قلـب، ويسـيرون عـلى هديهـا في التعاطـي مـع شـؤون البحـر.

في مـا يتعلـق بالشـهور وأهميتهـا، في حيـاة الفـلاح، يحظـى شـهرا نيسـان/ أبريـل، وأيـار/ مايـو بالأهميـة القصـوى، لأنهـما مبـدأ الربيـع ومسرحـه في كل مـا يتعلـق بنمـو الـزرع والـضرع، وانتشـار الخـيرات عـلى الأرض ونضجهـا، وتلوّنهـا بالاخـضرار والأزهـار. لنلحـظ في هـذه الأمثـال أهميـة المطـر في شـهر نيسـان، ونضـوج الثمـر والـزرع في أيـار، ولمـا يبيّنـه مـن ازدهـار للمواسـم ووفـرة المحاصيـل، بعـد أن مـرّت «بقطـوع» آذار: **الشـتوي بنيسـان بتسـوى السـكي والنير والفـدان.** يعنـي هـذا المثـل أن المطـر في هـذا الشـهر أغـلى مـن أدوات الفلاحـة لـدى الفـلاح. والمطـر فيـه بمثابـة الجواهـر لأنهـا تزيـد مـن غنـاه. ذلـك أن **الشـتوة بنيسـان جواهـر مـا إلهـا أثمـان.** فهـي التـي تحيـي الإنسـان مـن خـلال إحيـاء أرضـه وزرعـه. لذلـك يقـول المثـل: **الشـتوة بنيسـان بتحيـي الإنسـان.**

كذلـك يسـتبشر الفـلاح برعـد آذار، فهـو دليـل عـلى وفـرة المطـر في نيسـان، لأن **كل رعـدة بـآدار مطـرة بنيسـان.** ومـع ذلـك فـإن الفلاحـين وأهـالي الجبـل عمومـاً يخافـون مـن آذار/ مـارس، لأن المطـر لا يكفيـه، فهـو يحمـل أيضـاً الريـاح الشـديدة والثلـوج والـبَرَد المـضرة بالمزروعـات. فهـو إذاً، **آذار الغـدّار.** يحمـل في طياتـه الـضرر للمزروعـات والـبرد الشـديد للإنسـان والحيـوان، لأن **بـآدار سـبع تلجـات كبـار ماعـدا الصغـار.** ومـع ذلـك، ولأن رائحـة الصيـف تنتـشر منـذ شـباط/ فبرايـر، فـلا بـد مـن الاستبشـار خـيراً، وذلـك بإخـراج المـواشي إلى الفسـحة خـارج المنـزل، لأن **بسـبعة آدار طيلـع بقراتـك بـرّات الـدار.** وكذلـك يبـدأ العمـل الزراعـي الجـدي في هـذا الشـهر، لأن **الكـرم إذا مـا انفلـح بـآدار، بـار.** تـدل هـذه الأمثال عـلى محليّتهـا الريفيـة الزراعيـة، وبالتالي لا تنتـشر في المدينـة، كـما تنتـشر فيهـا الأمثـال الخاصـة بهـا، والمنتجـة مـن أحوالهـا وظروفهـا. وكذلـك الحـال في السـاحل الـذي ينتـج الأمثـال الخاصـة

بـه، وخصوصـاً مـا يتعلـق منهـا بالبحـر، منبـع رزق الصياديـن[1].

في شـباط، الشـهر المتقلّـب الـذي يخافـه العجائـز، يكـون الـبرد مـا زال قائمـاً، وإن بـدا فيـه بعـض الصحـو الـذي لا يُركـن إليـه، لأن **شـباط مـا عليـه ربـاط.** لذلـك قيـل: **شـباط مهـما شـبّط أو لبّـط ريحـة الصيـف فيـه.** إلا أن شمسـه ضـارة، عـلى مـا يقـال، لقـرب الأرض مـن الشـمس في هـذا الوقـت مـن السـنة، لذلـك يقـول المثـل: **شـمس شـباط بتخبـط الـراس بالمخبـاط.**

في أيـار/ مايـو يبـدأ إطمئنـان الفـلاح عـلى محصولـه. فـما حصـل قـد حصـل، والموسـم الجيـد لـن يضعـف، وبالتـالي يعـرف مـا سـيحصل عليـه. ويبـدأ في جنـي المحصـول، لأن **بعـشرة أيـار احـمال منجلـك وانـدار.** وفيـه تنضـج الثـمار، **لأن بعـشرة أيـار خوخـة وسـبلة وزرّ خيـار.** ولأن المطـر في هـذا الشـهر بركـة خالصـة تفيـد منهـا كل المزروعـات، مـدح المثـل المطـر في هـذا الشـهر، لأن **المطـرة بإيـار بتمـوّن الفـلاح وبقراتـو، وبِتجـوّز ولادو وبنَيّاتـو.** إلا أن المطـر إذا اشـتد وجلـب معـه الـبرد، يمكـن أن يتحـول إلى ضرر في الصحـة والممتلـكات، لأن **بـرد أيـار خـرّاب الديـار.**

لم يسـلم حزيـران/ يونيـو مـن تناولـه بالأمثـال، منهـا مـا هـو عـلى سـبيل المـدح، ومنهـا مـا يمكـن أن يكـون ذمّـاً. مـن ناحيـة أولى، شـهر يلتقـي فيـه الربيـع مـع الصيـف، أي نهايـة الـبرودة المحبّبـة مـع بدايـة لسـعات الحـر. فيقـال: **حزيـرانْ شـهر الْبسـط والكيـف، أوّلـو ربيـع، وآخـرو صيـف.** إلا أنـه، مـن ناحيـة ثانيـة، يصـير أكـثر حـرارة، ومـن منتصفـه، تبـدأ بالارتفـاع مؤذنـة بصيـف حـار. وفي حـالات كثـيرة تشـتد الحـرارة فيـه، لدرجـة أن **حـر حزيـران**

---

1 . للتفصيل حول الأمثال المنتجة في الريف وفي المدينة والمقارنة بينها، وبعض الأمثال التي تدور على ألسنة الصيادين في المدينة البحرية، أنظر:
محمد سنجقدار، محكية طرابلس وأمثالها التراثية، دار الفارابي، 2015، بيروت، ص ص215- 216.
مها كيال، مارلين حيدر نجار، جان توما، البحر وحضوره في ثقافة مدينة، اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو، 2014، بيروت، ص135.

بيعمـل الحليـب عـيران.

أمـا تمـوز/ يوليـو، فتشـتد فيـه الحـرارة إلى درجـة تسـخين الميـاه في الأوعيـة، لذلـك قيـل: **بتمـوز بتغـلي المـي بالكـوز.** ولم يحـظ تمـوز في هـذه العينـة بغـير هـذا المثـل.

اللهيـب في شـهر آب/ أغسـطس أعطـاه هـذه الصفـة المعـبّرة كمثـل. فيقـول: آب اللهّـاب. إلا أنـه منـذ بدايتـه يبـشّر بقـدوم الخريـف. فابتـداء مـن 6 آب، عيـد التجـلّي (عيـد الـرب) تبـدأ تباشـير الخريـف بالظهـور، ومـا عـلى المـزارع إلا تحضـير الحَـب للطحـن، وتدبـير المؤونـة للشـتاء. فيقـال: **بعيـد الـرب نقّـي حـب.**

إلا أن مـا يقلـب الموازيـن، ويوجّـه الدنيـا إلى الطقـس المغايـر، هـو شـهر أيلـول/ سـبتمبر. إنـه، أولاً، يمهّـد لاسـتقبال الشـتاء، وإن كان الخريـف يبـدأ منـه، فيقـال: **أيلـول طرفـو بالشـتي مبلـول.** وأيلـول هـو المحطـة السـنوية لتحضـير كل مـا يلـزم للشـتاء مـن مأكـولات وألبسـة ووسـائل التدفئـة. ذلـك لأن المثـل في هـذا الخصـوص يقـول: **بأيلـول تمـوّن لعيالـك، وشـيل الهَـم عـن بالـك.** أمـا التشرينـان/ أكتوبـر ونوفمـبر، فهـما يعيـدان شـيئاً مـن الـدفء والطقـس المشـمس، فيقـال، لذلـك، **بـين تشريـن وتشريـن صيـف تـاني.** إلا أن هـذا الـدفء لا يعنـي تـرك الأمـور عـلى الغـارب، فالـبرد مـضرّ في هـذه الأثنـاء، وخصوصـاً عنـد تقلّـب الحـرارة بـين نهـار وليـل، بعكـس بـرودة الربيـع. لذلـك يقـال: **بـرد تشـارين توَقّـاه، وبـرد الربيـع اسـتَلقاه.**

وفي كل الأحـوال، جـاءت الأمثـال لتؤكّـد عـلى أفضليـة الحـرارة عـلى الـبرودة، **لأن الـبرد أسـاس كل علـة،** ويبقـى **الدفـا عفـا ولـو كان بعـزّ الصيـف.** ولأن فصـل الشـتاء يمثّـل الحيـاة بالنسـبة للفـلاح الـذي يطلـب دائمـاً مـن اللـه أن يبعـث الخـير، أي المطـر، فـلا بـد أن يمثّـل الفـرج بالنسـبة إليـه، ولـو حمـل الضيـق والـبرد معـه، لأن **الشـتا فـرج ولـو كان ضيـق.**

قدّم لنا أديب أبو مراد قولاً لطيفاً يدلّ على مدى خبرة أسلافنا في الطقس، وخطورة البرودة، وما يمكن ان تفعله بالناس في أوقات محدّدة من الشتاء، بالإضافة إلى أهم المحطات التي تتوالى منذ نهاية كانون الأول/ ديسمبر وحتى منتصف آذار/ مارس، وهي بقالب متميز من الأمثال والوصايا.

يقول أبو مراد إن أجدادنا قسّموا الشتاء إلى قسمين: أربعينية الشتاء وخمسينيته، والمجموع هو عدد أيام فصل الشتاء 90 يوماً. الأربعينية تبدأ من 21 كانون الأول/ ديسمبر، وتنتهي في 30 كانون الثاني/ يناير. ويقول العرب عن الأربعينية في أمثالهم الشعبية: **إذا ما عجبكم حالي ببعتلكم السعود خوالي.** أما خمسينية الشتاء، فمدتها 50 يوماً، تبدأ من 31 كانون الثاني/ يناير وتنتهي في 21 آذار/ مارس، بداية الربيع. وفيها أربعة أقسام تبدأ بإسم سعد والجمع سعود. وهي: سعد دبح، سعد بلع، سعد السعود، وسعد الخبايا. مدة كل سعد 12 يوماً ونصف. في السعد الأول برد شديد يبدأ في 31 كانون الثاني/ يناير. ويعبّر عنه المثل التالي: **سعد دبح كلبو ما نبح، وفلاحو ما فلح، وراعيه ما سرح، للدلالة على شدة البرد.** يبدأ السعد الثاني في 12 شباط/ فبراير، وفيه تبتلع الأرض ماءها، فتفيض الأنهار وتمتلئ الآبار. ويعبّر عن ذلك المثل الشعبي بالقول: **بسعد بَلَع بتنزل النقطة وتنبلع.** يكسر الجو برودته في السعد الثالث، سعد السعود، ويميل إلى الدفء. يعبّر المثل الشعبي عن ذلك بالقول: **بسعد السعود بتدبّ الماويّة بالعود، وبيدفى كل مبرود.** في السعد الرابع، سعد الخبايا، تزهر الأشجار، وتسرح الحشرات، وتظهر تباشير الربيع في الأرض. ويعبّر عن هذا السعد بالمثل الشعبي: **بسعد الخبايا بتطلع الحيايا، وتتفتّل الصبايا**[2].

يبقى القول إن الأمثال الشعبية التي دخلت في باب الحقل المعرفي الذي

2 . أديب أبو مراد، مجموعة "حوارات ثقافية" على الواتس أب، بتاريخ 2017/1/15.

يتنـاول العلـم والمعرفـة بمـا فيهـما مـن الخـبرة والتجربـة، قـد بلغـت 94 مثـلاً مـن مجمـوع أمثـال العينـة. وهـي التاليـة:

اخْبزْ خبْزَك عند الخِبّاز، ولو أكل نصّو.

اسْأل مجرّب ولا تسأل حكيم.

الّلي محروق من الحليب بينفّخ للّبن.

الإنسان بالتفكير والله بالتدبير.

البرد سَبَب كل علة.

البعد جَفا، والقُرب وَفا.

الحرامي واحد والمتهوم ألف.

الحكي ما مثل الشوف.

الدارس غلب الفارس.

الدفا عفا ولو كان بعزّ الصيف.

الديك الفصيح من البيضة بيصيح.

الروحة بالإيد أما الرجعة مش بالإيد.

الشتوي بنيسان بتسوى السكي والنير والفدان.

الشرط بالحقلة ولا قتال عالبيدر.

الشرط سيد الأحكام.

العمر غفلة.

العين بصيرة واليد قصيرة.

الكرمِ إذا ما انْفَلَحْ بآدار، بار.

اللي بياكل العصي مش متل اللي بيعدها.

اللي بيلعب مع القط بدو يتحمل خراميشه.

اللي سبق شم الحبق.

اللي ما بيعرفك بيجهلك.

اللي ما بيفهم من الاشارة، الحَكي معو خسارة.

اللي ما بيهدا بالصحون ما بيهدا بالبطون.

المطرة بإيار بتموّن الفلاح وبقراتو، وبِتجوّز ولادو وبنَيّاتو.

المعْقوص بيخاف من جرّة الحبل.

الوِعي الكبير بيساع الصغير.

الولد ولد ولو حكم بلد.

إتغدى وإتمدى ولو دقيقتين.

إذا أردت أن تطاع فاطلب المستطاع.

إذا طلع صيتك حاصود ارمي منجلك واقعود.

الشتا فرج ولو كان ضيق.

الشتوة بنيسان بتحيي الإنسان.

الشتوة بنيسان جواهر ما لها اثمان.

الضرب بيعلم الدب يرقص.

إللي أوله شرط آخرتو نور.

أكبر منك بيوم أخبر منّك بسنة.

أيلول طرفو بالشتي مَبْلول.

آب اللهَّابْ.

آخر العلاج الكي.

آدار الغدار.

بَرِدْ أيّار خرّاب الديار.

بِعيد الرب (6 آب) نَقِّي حَبّ.

بأيلول تموّن لعيالك، وشيل الهَم عن بالك.

بآدار سبع تلجات كبار ماعدا الصغار.

بتموز بتغلي المي بالكوز.

برد الصيف أحد من السيف.

برد تشارين توَقّاه، وبرد الربيع استَلقاه.

بسبعة آدار طيلع بقراتك برّات الدار.

بعشْرَة أيّارْ خوخَة، وسبلة، وزر خيار.

بعشرة إيار احمال منجلَك وِانْدار.

بوس الأيادي ضحك على اللحى.

بيسرق الكحل من العين.

بين تشرين وتشرين صيف تاني.

تعشّى وتمشّى ولو فشختين.

تلاتة ما بينحملو: ظلم الحكام، وكيد النسوان، وعناد الرهبان.

تلاته ما بينطاقو : الطق والنق والبق.

ثلاثة ما بيتخبّوا : الحُب والحَمل وركوب الجمل.

ثلاثة ما بينعارو : السلاح والدابة والمرا.

جحا أكبر ولاّ أبوه.

حرّ حزيران بيعمل الحليب عيران.

حزيرانْ شهر الْبسط والكيف، أوّلو ربيع، وآخرو صيف.

ربّنا بيجرب خايفينو.

رمضان إذا عشّر بشّر.

شباط مهما شبط أو لبط ريحة الصيف فيه.

شحالة التين في التشارين.

شرط المرافقة الموافقة.

شمس شباط بتخبط الراس بالمخباط.

شو بدي اترجى منك يا سفرجلة وكل عضة بغصّة؟

ضربة المعلم بألف، ولو كانت من خلف.

عـ قدّ الزيتات ضوّي.

عقل الكبير كبير.

عقلك براسك بتعرف خلاصك.

علمي وعلمك سوا.

عمرك أطول من عمري.

عمرك لا تقول للمغني غني، ولا للراقوص ارقص.

عمل السبعة وذمتها.

عيد التجلي (6 أب) بيقول للصيف وَلِّي.

عين العقل.

غلطة الشاطر بألف.

في التأني السلامة وفي العجلة الندامة.

قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق.

كل رعدة بآدار مطرة بنيسان.

كون بده يعمر.

لا تغسلوا حالكم بلساناتكم متل البقر.

لا تلوم الغايب تـ يحضر.

لحاق الكذّاب لباب الدار.

لكل بداية نهاية.

مْنِ المَولود للْمعْمود بتُوقف الميّ عَامودْ.

ما كلّ من صَفّ صواني، قال: أنا حلْواني.

مجدرة ولبن، عافية على البدن.

مويِّة تشارين بتخزّق المصارين.

مين جرّب المجرّب كان عقله مخرب.

وقفة المعلّم عـ إيد المعلّم صعبة.

بلغت نسبة الأمثال المعبّرة عن العلم والمعرفة، ومن ثم عن الخبرة والتجربة الناشئتين عن العلم والمعرفة، أو المنتجتين لهما من خلال استخلاص المبادئ العلمية والمعرفية بإعمال العقل، وتكرار التجربة، 12.5%. وعددها 94 مثلاً.

العائلة

لعل الحقل المعرفي الذي يضمّ الأمثال المتعلقة بالعائلة، أهم مؤشر على الذهنية العربية التي تعطي للعائلة المقام الأول في توجيه مسلكها الاجتماعي، إن كان في النظرة الواعية إلى العائلة بتركيبها وبالعلاقات الداخلية فيما بين أعضائها، من جهة؛ ومن خلال كل ذلك في علاقتها مع الخارج، بدءاً من أقرب الناس إليها إلى أبعدهم، من جهة ثانية. والمقصود بالعائلة هنا، تلك الممتدة في النمط التقليدي للحياة المجتمعية التي أنتجت هذا المصطلح؛ وهو الانتاج المتزامن مع نضوج الظروف المؤاتية لنشأة الأمثال، ولتعبيرها عن واقع الحال في الممارسة الاجتماعية للحياة اليومية.

ولأهمية هذه العلاقات وترسّخها في البنية الذهنية، فقد أوصلت أعضاء العائلة إلى رسم السلوك اللاواعي وغير المفكّر فيه من خلال التعاطي بين أفرادها في تراتبية واضحة، تعطي لكل فرد فيها ما يتوجّب عليه تجاه بقية أفرادها. فالأب هو المسيطر فعلاً وبالبديهة، دون أن يعلن، لا هو ولا أحد من بقية العائلة، عن ذلك. عليه القيادة والأمر، وعليهم المثول والطاعة دون نقاش. وقد نشأ عن ذلك، ما دعاه هشام شرابي بالنظام الأبوي، الذي ينسحب ليس على الرأس الذي يدير العائلة فحسب؛ بل أيضاً على الرأس الذي يدير القبيلة والدولة، بالإضافة إلى مدير الشركة والمدرسة، وأي منشأة مشابهة في المجتمع.

أما الأم، فهي بالإضافة إلى الزوجة المطيعة، صلة الوصل بين الأب وأبنائه. وهي التي عليها أن تدير شؤون بيتها، وتربّي أبناءها، وتعطي للذكر من أبنائها، في وعيها ولا وعيها، ما لا تعطيه للأنثى، إلا في الأمور التي تَعدّ فيها إبنتها لتكون على مثالها في المستقبل. وتأتي تربية الأبناء لتفصح عن تقديم الذكر على الأنثى، والبكر على الأخوة. فينشأ الذكر متميّزاً باعتباره ذكراً. وتنشأ الأنثى بالخجل الظاهر، والدونيّة المبطّنة تجاه شقيقها الذي له ما ليس لها، مع تسويغ ذلك في التنشئة، باعتبار الفتاة فتاة والفتى فتى. ولا يتوجّب الخلط بين الموقعين. ولا تنتهي الأمور عند هذا الحد، إذ لا بد من استكمال شؤون العائلة بالكنّة، زوجة الإبن، وبالصهر زوج الإبنة؛ وما يدخل في ذلك من أمور العلاقة بين الكنّة والحماة، وبين العائلة والصهر، وما ينشأ عن هذه العلاقات من أواصر مع الحفيد والعم والخال.

بلغت الأمثال التي تتعلق بالعائلة في العينة المنتقاة 76 مثلاً. وهي تتناول كل ما له علاقة بالعائلة في مختلف فروعها.

من جهة الأب، فهو يدرك تماماً أن الصبي هو الذي يكفل استمرارية العائلة. أما البنت فهي وسيلة للتبادل. ويمكن أن تكون عوناً لعائلة أخرى في مواجهة عائلتها، بما تنجبه من أبناء. لذلك يقول المثل، بالإضافة إلى **إبنك إلك بنتك لأ، إبن ابنك إلك إبن بنتك لأ.** ويستتبع هذان المثلان مثلاً ثالثاً يقول: **ما أعزّ من الولد إلا ولد الولد.** والمقصود بالولد طبعاً الذكر دون الأنثى. ولضرورة وجود الرجل في البيت باعتباره المسؤول عنه كزوج وأب، لا يهمّ شكله أو مواصفاته، فهو رحمة في كل الأحوال، لأن **الرجّال ولو كان فحمة، وجوده بالبيت رحمة.** ولأن الأب هو المسؤول عن تربية أبنائه وتنشئتهم، فمن البديهي أن يعي تماماً أهمية دوره وتغيّره الذي عليه أن يتناسب مع عمر الأبناء. كما يمكن أن يُهمل هذا الدور، ما ينعكس سلباً على مسيرة العائلة. لذلك يقول المثل: **إبنك هوّي**

وصغير ربّيه، ولما بيكبر خاويه. وعلى هذا الأساس، ينشأ الإبن على غرار نشأة أبيه، إن كانت جيدة أو سيئة، فيقال: **إبن البط سباح وإبن الكلب نباح؛** ويقال في مناطق أخرى: **فرخ البط عوام،** وهو مثل متداول بكثرة في كل الأزمنة. ومن المعلوم أن الأب هو المسؤول عن معيشة العائلة، والأم مسؤولة عن تدبير شؤونها، لذلك قيل: **الأب جلاب والأم دولاب.** إلا أن المثل لم يهمل الزوج الذي يكون محكوماً من زوجته. فيعيَّر في هذه الحالة من أقرانه وأقربائه. ويعبّر المثل عن ذلك بالقول: **شو طبخت العمشا جوزا بيتعشى،** ما يعني أن لا حول له ولا قوة في إدارة شؤون البيت. وكذلك من يخجل من إمرأته لا يهنأ في عيشه: **اللي بيستحي من مرتو ما بيجيب ولاد.** ومن يخاف من عروسه ليلة الدخلة لا ينجب الذرية التي تزيّن بيته. يقول المثل في هذا الخصوص: **يللي خاف من العروس ما جاب ولاد.**

أما في ما يتعلق بكيفية تربية الأبناء، فإن المثل يهتم جيداً بهذه المسألة. فمن الضروري عدم إغضاب الأب، لأن **غضب الأب من غضب الرب.** وكذلك: **الَّلي ما بِيسمع من والديه غضَب الله عليه.** ولأن الغضب يتأتّى منه ما يضرّ بالأبناء؛ جاء المثل ليقول: **قَتْل** (ضرب) **البَيْ بِيكوي كَيّ، قتل الإمّ ما بيهِمّ.** ما يعني أن الأب يضرب بقوة وبلا شفقة، بينما يختلط الضرب مع الرحمة لدى الأم، فيأتي خفيفاً غير موجع.

ولأن البنت تُطلب للزواج، وليس بيدها ما تفعله في هذا السبيل، فإن على الأب أن يهتمّ بهذه المسألة ليقي ابنته شرّ العنوسة، لذلك يقول المثل **أخطب لبنتك قبل ما تخطب لإبنك.** ولأن همّ البنات يثقل صدور الآباء، جاء المثل ليخفّف عن كاهل الأب، فيقول: **أبو البنات مرزوق.** وفي حال فشل الأب في تربية إبنه، جاء المثل ليخفف عنه، فيقول: **إبنك لا تعلّمو، الدهر بيعلّمو.** وعلى أي حال، شؤون البيت وشجونه تبقى من مسؤولية الأب، لذلك فهو الأدرى في دواخله. ويقول المثل في هذا

الخصوص: **صاحب الدار أدرى باللي فيه.**

أما بالنسبة للأم، فهي شرف العائلة وعنوان سلوكها الاجتماعي. وقد ربط المثل الشعبي الإبنة بأمها، ولم يربطها بأبيها، على الأقل من ناحية التربية. لذلك يؤكّد المثل على أهمية الأم، لأن **الدنيا أم.** كما يؤكد على أهمية السؤال عن الأم، قبل الإبنة. يقول: **إسأل عن الأم قبل ما تلمّ.** وهذا يعني أن على المرء أن يسأل عن أم الفتاة قبل الارتباط بها. ذلك أن البنت عادة ما تكون شبيهة أمها في طباعها ومسلكها وسيرتها، لأن المثل يقول: **طِب الجرّة عـ تمها بتطلع البنت لأمها.** لذلك يقال: **البنت لأمها والصبي لأبوه.** ومن أجل تهدئة روع الأم في حال عقوق أحد أبنائها أو انحرافه، يقال: **البطنْ بِسْتان، فيه أشْكال وأَلْوان.** ومع ذلك، فإن الولد المنحرف يجلب الشتيمة والضغينة للأهل: **الرذيل يورّث لأهله المسبّة**؛ أيضاً: **بيّو بصل وأمّو توم، ومن وين بدها تجي الريحة الطيبة؟** ومع ذلك لا يمكن أن يكون حال البنت أفضل من حال الصبي، إلا إذا كان منحرفاً أو عاقاً، لأن **البنت المليحة خير من الصبي الفضيحة.** وفي كل الأحوال تعمل عاطفة الأم وحنانها بالاتجاه الذي ترى فيه تفرّد جمال إبنها وتميّزه عن غيره من أبناء الآخرين، حتى وإن كان دونهم في الجمال والذكاء والفطنة. لذلك قيل: **القرد بعين أمو غزال.** وزيادة في التأكيد على هذا الأمر، جاء المثل ليقول: **نزلت العبدة عـ السوق ما استحلت غير شفاتير ابنها مرزوق.**

من المعلوم في الذهنية العربية أن الصبي مرغوب في كل الأحوال، حتى وإن كان يشبه خاله، لما للخال من تأثير إذا كان في الموقع المقابل، كفرد من جب مغاير داخل العائلة، أو من عائلة أخرى منافسة: **الصبي صبي ولو مال تلتينو للخال.** ولكن الصبي يبقى صبياً، وإن كان ينتمي إلى أرفع المراتب. لذلك قيل: **الصبي صبي ولو كان ابن نبي.** إلا أن الأم لم تُحرم من المثل الذي ينصرها من خلال نصرة الخال الذي هو شقيقها،

وبالتالي عائلتها قبل الزواج. يقول: **إذا طلع الولد لخالو يا زينة فعالو، وإذا طلع لعمّو (لعائلة الزوج) دْبَحُوه هو وأمّو.** ولأن الصبي غالٍ في العائلة، وخصوصاً إذا وُلد بعد عدة أخوات، يعيش عيشة تميّز ودلال وغنج، إلى الحد الذي يمكن أن يقضي على شخصيته، وكأن أهله غير مصدّقين بوجوده بينهم. يقول المثل واصفاً هذه الحالة: **العِمْيان جاهن صَبي، دَلّو يشَقشْلوه ويِلعبو فيه تَـ عمْيوه.**

تبقى العائلة وحدة قائمة بذاتها، تجاه الأقارب والجيران. وهي المعبّر عنها بالبيت الذي يضم الأب والأم والأبناء، بالإضافة إلى المتزوجين من الأبناء.. لذلك يقال: **البيت اللي رباني ما بينساني.** وكذلك، فهو الحصن الذي يلمّ شمل العائلة التي لا تتأثر بما يحصل حولها من صنوف النزاع والخلافات، لأن **البيت بيت أبونا والناس بيخانقونا.** إلا أن البيت نفسه، لا تظهر عليه القيمة إلا بوجود الأبناء، لأن **البيت إللي ما في ولاد صغار ما في نور.** ويحرص المثل على حفظ البيت من خلال المحافظة على تماسكه من الداخل. لذلك، يقول: **ألف عدو برّات الدار، ولا عدو جَوّات الدار.** والتماسك يفرض النصرة والتضامن لأن الهم لا يحمله إلا الأهل: **ما بيحمل همك إلا اللي من دمك.** وعلى العائلة ان تبقى متلاصقة في السراء والضراء، لأن المثل يقول: **ما بيحن عالعود غير إشرو.** وإذا اعتمد المرء على نصرة أخ ضد أخيه، فمن المهم أن يعرف أن **الكلب ما بيعضّ خيّو.** كما أن التخلي عن الأهل يورث الضعف ويفقد العزوة، لأن **اللي بيِقْلَع تيابو بيَبْرُد.** وكذلك: **أهلك ولو علكوك ما بيبلعوك.** وكذلك، **اللي بيطلع من دارو بيقل مقدارو.** والبيت في الأخير هو ستّار العيوب. لذلك قيل: **يا بيتي يا بويتاتي يا مستر لي عويباتي.** وعلى العائلة أن تأخذ نبراساً لها، المثل العربي المشهور الذي يحدّد العلاقات بين الناس، من الأقرب إلى الأبعد: **أنا وخيي عـ إبن عمي وأنا وإبن عمي عالغريب.** لذلك على المرء أن يهتم بعائلته ويحافظ على تماسكها ووحدتها تجاه الغير، وأن يربي أبناءه التربية الصالحة، وبعد ذلك، ليفعل غيره ما يشاء،

و**إلـلي مـا هـو مـن ضهـرك كل مـا جـنّ افرحلـو.**

لقـد رأينـا سـابقاً العلاقـة المتوتّـرة التـي تنسـجها العائلـة الممتـدة نتيجـة وجـود الحـماة والكنّـة في بيـت واحـد. ومـا يمكـن إظهـاره هنـا، حسـب مـا جـاء في العينـة، العلاقـة المتوتـرة بينهـما، إن كان بالنسـبة للزوجـة في علاقتهـا مـع أم زوجهـا، أو للـزوج في علاقتـه مـع حماتـه، أمّ زوجتـه. ذلـك أن كلا الطرفـين يعتـبر أن الحـماة توغـر صـدر إبنهـا عـلى زوجتـه، أو تؤلّـب الإبنـة عـلى زوجهـا. وفي الحالتـين تنغيـص لحيـاة الزوجـين. لذلـك قـال المثـل: **الحـما بابـور** (موقـد عـلى الـكاز) **وبنـات الإحـما إبـرة.** مـا يعنـي أن الحـماة مسـتعدة دائمـاً للشـجار مـع الكنّـة، وبناتهـا يـزدن مـن اشـتعال الشـجار وتحميتـه، مثـل الإبـرة بالنسـبة للبابـور. لذلـك مـن أفضـل السـبل التخلّـص مـن الحـماة للعيـش في سـلام، لأن **المَـيّ والنـار ولا حـماتي في الـدار.** وكذلـك، يكـون حـظ المـرء سـعيداً لفقـده حماتـه: **حظّـو مـن السـما الـلي مـا عنـدو حـما.**

أمـا الصهـر، فهـو غـير مأمـون الجانـب. يمكـن أن يكـون أفضـل مـن الإبـن، كـما يمكـن أن يجلـب التعاسـة والعـذاب لزوجتـه وأهلهـا. والـزواج في هـذه الحـال، بالإضافـة إلى كونـه قسـمة ونصيبـاً، فهـو حـظ أيضـاً يمكـن أن يوصـل الزوجـين إلى السـعادة، كـما يمكـن أن يوصـل إلى التعاسـة والعـذاب، ومـن ثـم الطـلاق وتشريـد الأبنـاء، لذلـك قيـل: **صهـر بيسـند الظهـر وصهـر بيجيـب المجرفـة للقـبر.**

لعـل أبلـغ مـا قـرأت، هـو مـا قدّمـه والـد إلى إبنـه في نصيحـة شـعبية تسـتند في أساسـها إلى مـا يقولـه الـشرع الإسـلامي في كيفيـة التعامـل بـين أفـراد العائلـة؛ وهـي هنـا، في كيفيـة التعامـل بـين الأخ، مـن ناحيـة؛ وأخيـه وزوجتـه، مـن ناحيـة ثانيـة؛ وهـو نفسـه، بينـه وبـين أختـه وصهـره.

يقـول الفـلاح الصعيـدي مخاطبـاً إبنـه: «**نـام عنـد اختـك ولا تاكلـشي عندهـا.. وكـول عنـد أخـوك وامـشي بعدهـا. أخـوك تـاكل لمـا تشـبع، المـال مـن جيوبه،**

ولـو مراتـو فتحـت فمهـا، يسـكّها بمركوبـه، وكـول واشرب ولا تطـوّل لأن مراتـه غريبـة (مـن غـير المحـارم). ونـام عنـد أختـك (مـن المحـارم) ولـو في غيـاب جوزهـا. لـو دخـل جوزهـا ولقيـك نايـم هيغطيـك بتيابـه، واشرب وكـول خفيـف، وافتكـر يـا وليـدي إن أختـك غريبـة والمـال غريـب»[3].

تبقـى أمثـال أخـرى في هـذا الحقـل المعـرفي لا يخفـى فهمهـا عـلى القـارئ اللبيـب. ومجمـوع هـذه الأمثـال هـو التـالي:

الأب جلاّب والأم دولاب.

الأخ جناح.

الأم بتلّم.

البطنْ بِسْتان، فيه أشْكال وأَلْوان.

البنت المليحة خير من الصبي الفضيحة.

البنت بنتي وبعرف خصايلها.

البنت لأمها والصبي لأبوه.

البيت اللي رباني ما بينساني.

البيت إللي ما في ولاد صغار ما في نور.

البيت بيت أبونا والناس بيخانقونا.

التدبير نص المعيشة.

التعلم في الصغر كالنقش على الحجر.

3 . هذا النص مقتبس من صفحة الشيخ مصطفى ملص على الفايس بوك، بتاريخ 2017/5/1.

الحما بابور وبنات الأحما إبره.

الدنيا أُم.

الرَّذيل بِيْوَرت لأهْلو المسَبّة.

الرجّال رحمة ولو كان فحمة وإذا كان عرّاضه.

الرجّال ولو كان فحمة، وجوده بالبيت رحمة.

الصبي صبي ولو كان ابن نبي.

الصبي صبي ولو مال تلتينو للخال.

العِمْيان جاهُنْ صَبي، دَلّوا يشَقشْلوه ويِلعبوا فيه تَـ عمْيوه.

القِرْد بعين إمّو غزال.

الكلِب ما بيعَضّ خَيُّو.

الَّلي بيِقْلَع تيابو بيَبْرُد.

اللي بيكترو خطابها بتبور.

الَّلي ما بيِسْمَع مِنْ والديه غضَب الله عليه.

إللي ما هو من ضهرك كل ما جنّ افرحلو.

المَيّ والنار ولا حماتي في الدار.

الولَد بيِبكي يا منْ جوعْ يا مَوْجوع.

إبرمي عكا وأرواد ولا تأخذي رجال عنده ولاد.

إبنك هوي وصغير ربّيه، ولما بيكبر خاويه.

ابن ابنك إلك ابن بنتك لا.

ابن البط سباح وإبن الكلب نبّاح.

إبن الأربعين والخمسين.. زهر البساتين.

إبنك لا تعلّمو، الدهر بيعلّمو.

أبو البنات مرزوق.

إذا ما بكي الطفل إمو ما بترضّعو.

أخطب لبنتك قبل ما تخطب لأبنك.

اسأل عَن الإم قبل ما تِلمّ.

ألف عدو برّات الدار، ولا عدو جَوّات الدار.

ألف عيبة في الرأس ولا عيبة في الأساس.

أم عشرة مدبرة وأم واحد محيرة.

أنا وخيّ عـ إبن عمي وأنا وإبن عمي عـ الغريب.

أهلك ولو علكوك ما بيبلعوك.

بيّو بصل وأمّو توم، ومن وين بدها تجي الريحة الطيبة؟

تزوجِتْ أختي يا سعادة بختي.

جَوزك على ما عوَّدتيه، وولدك على ما ربّيتيه.

جناح الإمّ بيِلمّ.

حط إيده على تمه نسي أبوه وأمه.

حظّوا من السما اللي ما عندو حما.

خِدي ختيار يدلّلك ولا شاب يبهدِلك.

خللي العسل بجراره، تاتيجي أسعاره.

خود البنات من صدور العمّات.

شو طبخت العمشا جوزا بيتعشّى.

صاحب الدار أدرى باللي فيه.

صهر بيسند الظهر وصهر بيجيب المجرفة للقبر.

طِب الجرّة عـ تمّها بتطلع البنت لأمّها.

طلّعت القز عـ الشيح.. اقبر مرتك واستريح.

عتبت على أهلي من قلة عقلي.

عدو جدك ما بيودك وعدو أهلك بيريدك تهلك.

عيب الولد من أهله.

غَضَب الأب مِن غضب الرب.

فاضية مشغولة مثل أم العروس.

فرخ البط عوّام.

قَتْل البَيّ بيِكوي كَيّ، قتل الإمّ ما بيهمّ.

كل عيلة وإلها شرشوحها.

لو فيك خير لأهلك خير.

ما أعزّ من الولد إلا ولد الولد.

ما بيحمل همك إلا إللي من دمك.

ما بيحنّ عالعود غير إشرو.

ما بيضرب المرا إلا الخرا.

ما في قبيلة ما طلع منها هبيلة.

ناقرني تناقرك.. وما إلي قلب فارقك.

نزلت العبدة على السوق ما استحلت غير شفاتير ابنها مرزوق.

يا بيتي يا بويتاتي يا مسترّ لي عويباتي.

يللي خاف من العروس ما جاب ولاد.

يللي بيطلع من داره.. بيقل مقداره.

وعليه، تكون نسبة الأمثال المتعلقة بالعائلة على مجموع أمثال العينة 10%.

الواقعية

غالباً ما يتعامل الناس، عامتهم والخاصة، مع الواقع بروح من التكيّف والمجاراة بما يحفظ المصالح والأبدان. وقد تعوّد الناس على سماع كلمات من مثل الانتهازية والوصولية، والنفعية، وفي العصر الحديث البراغماتية للتدليل على التعامل مع الناس والظروف، كما يريد الناس ويرضيهم، وكما يتماشى مع الظروف، والاستسلام للتيار في مساره. ومن ثم التوجّه في الوجهة المعاكسة إذا انقلبت الأيام، وصار أسفلها في أعاليها، والعالي في الأسفل، ما يقتضي تغيّر الوجهة والمسير مجدداً بما يتماشى مع التيار الجديد بالحماس نفسه، والسرعة نفسها.

كان لهذه الواقعية في التعاطي مع الأمور نصيبها من الأمثال. وقد أظهرت بكثافة بلاغية كيفية الانتقال من جهة إلى أخرى، ومن رأي إلى آخر بالخفة والرشاقة اللازمين، للحفاظ، في الأخير، على السلامة الشخصية، وعلى تأمين المصالح في المال والأعمال.

في حال التكيّف مع الوضع القائم، والكيل بمكيال القوي، ذكر المثل أن الشخص الذي لا تستطيع مواجهته لظلمه وتعدّيه على كرامات الناس، عليك مهادنته والدعاء له ليلقى المصير الأسود، لأن **الإيد اللي ما فيك تعضها، بوسها وادعي عليها بالكسر**. ما يعني أن **السلامة غنيمة**. وبالتالي يصح المثل الذي يقول إن **الشاطر بشطارته**، لأن **اللي بيعوز الكلب بيقول له صبحَك بالخير يا سيدي**. ومن أجل الوصول إلى الغاية المرتجاة، لا بأس من القول إن **الرجال عند حاجاتهم نسوان**. ومن أجل حفظ الرأس في أزمنة التغيير، من المهم السير على نهج المثل الذي يقول: **اللي بيجي منْطبّلّو واللي بيروح منْهَلّلّو**. والقبول بالواقع حاجة ضرورية لمن يبغي الاستكانة. يقول المثل في ذلك: **مين تزوّج أمي صار عمي**. وأيضاً: **مين ما قاله تش.. بيقله مش**. ولا بأس في مسايرة الجميع عملاً بالمثل القائل: **بِيروح مع إمّ العروس، وبيرجع مع إمّ العريس**. ومن أجل حفظ السلامة، لا بدّ من الانسحاب في الوقت المناسب، لأن **عند تغيير الدول حفاظ راسك**، وتصير **الهريبة تلتين المراجل**. ذلك أن الخطر الكامن يمكن أن يوصل إلى الموت، لأن المثل يقول: **ألف كلمة جبان ولا كلمة الله يرحمه**، لأن البعد عن الشر خلاص للنفس والجسد. ويقول المثل في هذا الخصوص: **أبعد عن الشر وغنّيلو**. ولإثبات صحة هذا المثل، يقول مثل آخر ما يدل على سهولة الدخول في خطر، وصعوبة الخروج منه: **دخول الحمام مش متل الخروج منه**. ومن المهم في هذا المجال تجاهل الأمور وتجاوزها طلباً لراحة البال. لذلك على المرء أن يكون صاحب **دينة سطح ودينة مزراب**، حتى لا يبقى ما يمكن أن يوجع الرأس. ويؤكّد المثل على ذلك بالقول: **طنّش وحط بالخرج**.

وثمة الأمثال الواقعية التي تلحظ طريقة التعامل بين الناس، بما يحفظ المصلحة الشخصية، بأقل ما يمكن من الخسائر، منها: **شو أحلى من العسل؟ الخل ببلاش.** ومن أجل أن لا يدفع أحدهم فاتورة المطعم منفرداً، يبادر أحدهم بالقول: **شراكة حلبية.** ما يعني أن على كل فرد أن يدفع ما عليه بالتساوي مع الآخرين، لأن **الحمل عالكترة خفيف.** ومن يغيب عن اقتسام ما هو مشترك، لا يحسب حسابه، لأن **الغايب ما له حصة**، وأيضاً **اللي بيحضر السوق بيبيع وبيشتري.** أما من فاته الكثير، فعليه الرضى بالقليل، لأن **من فاته اللحم عليه بالمرق.**

ومن الأمثال الواقعية ما يدل على النقد الاجتماعي الذي يطول بعض الناس ذوي العادات السيئة. فيقال لمن تغلّبت عليه عادة من العادات: **عادة في البدن، ما بيغيِّرها غير الكَفَن.** ما يعني أنها تموت بموت صاحبها. وكذلك من يتصف بالغدر لا يمكن أن يغير صفته لأن **فرخ الديب ما بيجوي.** ولو نصحه الناس بضرورة تغيير خصاله، لا يرعوي، لذلك يقال: **كانت النصيحة بجمل.**

لم يسلم من يقف على الحياد ويساير الجميع لحفظ سلامته، من التعرض للنقد الاجتماعي الذي لحظه المثل في تعابير لاذعة. فيكون صاحب هذا الموقف عرضة للنظرة الشزرة من هذا الطرف أو ذاك. فهو **لا مع ستي بخير ولا مع سيدي بخير.** بل أيضاً، لا حاجة إليه، وكأنه غير موجود، لأنه **مثل البزر المرّ لا بينفع ولا بيضر.**

والواقعية أيضاً، تفرض الرضى بما هو موجود، لا بما يمكن أن يكون. فالأفضل هو المتوفّر، لذلك قيل في مثل بليغ: **من قلة الخيل شدوا على الكلاب السروج.** ما يعني أن على الكلاب في الحالات الطارئة أن تحلّ محل الأحصنة، أي القبول بما هو متوفر.

بلغ مجموع هذه الأمثال 34 مثلاً تشكّل ما نسبته 4.5%، وهي التالية:

الإيد اللي ما فيك تعضّها، بوسها وادعي عليها بالكسر.

الرجال عند حاجاتهم نسوان.

السلامة غنيمة.

الشاطر بشطارته.

الشمس شارقة والناس قاشعة.

الطفران غلب السلطان.

الطيز النقّالة مش شغّالة.

الغايب ما له حصة.

اللي بيجي منْطَبّلو واللي بيروح منْهَللو.

اللي بيعوز الكلب بيقول له صبحَك بالخير يا سيدي.

الهريبة تلتين المراجل.

إن عجبنا الكحل تكّحلنا وإن ما عجبنا ترحّلنا.

أبعد عن الشر وغنّيلو.

أكبر منك بيوم أعقل منك بسنة.

ألف كلمة جبان ولا كلمة الله يرحمه.

بِيْروح مع إمّ العروس، وبِيرْجَع مع إمّ العريس.

دخول الحمام مش مثل الخروج منه.

دينة سطح ودينة مزراب.

شراكة حلبية.

شو أحلى من العسل؟ الخل ببلاش.

طنّش.. وحط بالخرج.

عادة في البدن، ما بيغيِّرها غير الكَفَن.

عند تغيير الدول احفظ راسك.

فرخ الديب ما بيجوّي.

كانت النصيحة بجمل.

لا مع ستّي بخير ولا مع سيدي بخير.

مثل البزر المر لا بينفع ولا بيضر.

من فاته اللحم عليه بالمرق.

من قلّة الخيل شدّوا على الكلاب السروج.

من كتر ولادو قلّل زادو.

مية مرّة جبان، ولا مرّة الله يرحمو.

مين تزوج أمي صار عمي.

مين ما قاله تش.. بيقلّه مش.

هالله هالله يا دنيا وين كنّا وين صرنا.

السلطة والقوة

يتناول الحقل المعرفي المعبّر عن السلطة والقوة ما يلقاه صاحب السلطة والمقدرة في نفسه من خلال علاقاته مع الآخرين، ونظرة هؤلاء إلى أصحاب السلطة والقوة، وتدبير كل الأمور التي تجعلهم بمنأى عن فعل سلطتهم، وبحماية من الضرر الذي يمكن ان يتأتّى منهم، إما بالانضواء تحت سلطتهم، أو بالابتعاد عما يمكن أن يشكّل تماسّاً معهم، أو بالتكيّف مع متطلّبات السلطة. ليس هذا فحسب؛ بل يمكن أن يأتي المثل بمثابة النقد للوضع القائم، وإظهار مساوئ استعمال القوة والبطش بدون وجه حق، بالإضافة إلى استغلال السلطة للمنافع الشخصية.

ولإظهار أهمية المقامات الرفيعة وقدرات أهل السلطة، ولتبيين درجات التراتب الاجتماعي والسياسي، جاء المثل ليقول: **العين ما بتعلى عن الحاجب**. لأن الأعلى يبقى دائماً في مرتبته، ولا يمكن أن يُعلى عليه، وكأنه القضاء والقدر. وفي المعنى نفسه، لا إمكانية لمواجهة الضعيف للقوي. فإذا كان الضعيف عيناً، فالقوي ليس عيناً فقط، بل هو مخرز أيضاً يمكن ان يفقأ العين. لذلك يقول المثل: **العين ما بتقاوم المخرز**. ولأن القوي يقوى بنظرة الناس إليه على أنه كذلك، جاء المثل ليقول: **الناس مع الواقف**. ولأن القوة مطلوبة لذاتها، لما لها من تأثير على مجريات الأمور المستقبلية، ولما تجرّه من منافع، يقول المثل في هذا المعنى: **سِيد وميد واعمل متل ما تريد**. ولأن السلطة والقوة تجلبان المنافع، يصير الحصول على المال هيّناً عند صاحبها، وبالتالي يسهل عليه اصطناع الموالي، وهؤلاء يقبلون على خدمته وحمايته، لقاء ما يحصلون عليه من المكاسب، فيقال: **اللي بياكل من خبز السلطان بيحارب بسيفو**. وفي عصرنا، يضرب الآكلون بكل أنواع الأسلحة، ويبقى المثل هو نفسه.

أما طاعة أولي الأمر، والمحافظة على النظام العام، فقد عبّر عنهما المثل بالقول: **قال له مين معلّمك الذوق؟ قال له المعلّق فوق**. ولأن مطلب

القـوة والسـلطة يتـأتّى مـن القلائـل مـن النـاس، فـإن هـؤلاء لا يجـدون في العـادة مـن يعـترض سـبيلهم. وفي حـال نجـح أحدهـم، مـع أنـه لا يتمتـع بالمواصفـات اللازمـة، يصير مُهاباً ومطاعـاً لمجـرّد إقدامـه. **قالـوا: يـا عنـتر مـين عنـترك ؟ قَلُّـن : عِنْـتَرت ومـا حـدا ردّني.** أيضـاً في قالـب شـخصية أخـرى عرفـت بجبروتهـا وبطشـها: **قالـوا لفرعـون مـين فرعنـك؟ قـال : مـا شـفت حـدا حتـى يـردّني.** إلا أن هـذا الأمـر لا ينجـح في كل الحـالات، وخصوصـاً إذا وجـد طالـب السـلطة والقـوة مـن يمنعـه مـن تحقيـق غايتـه. فيحصـل التحـدي بـين صاحـب السـلطة ومنافسـه. فيعـبّر المثـل عـن هـذه الحالـة لحظـة المواجهـة: **أعـلى مـا بخيلـك.. إركبـه.** وفي حـال المنافسـة عـلى السـلطة التـي لا تحتمـل التعـدّد يقـال: **أنـا أمـير وإنـت أمـير ومـين بيسـوق الحمـير؟** إذ لا بـد مـن التراتـب في المجتمـع لأن **ريّسَـين بفـرد مركـب بيغـرق.** أيضـاً ثمـة مثـل جـارح يصـف هـذه الحالـة: **كلبَـين مـا بيتّفقـوا عــ عظمـة.**

وفي حـال العلاقـة العاديـة بـين النـاس، فـإن الأمثـال تبـيّن حـرص العامـة عـلى الحفـاظ عـلى كراماتهـا، والشـعور بالندّيـة في العلاقـة مـع الآخريـن. وقـد جـاءت الأمثـال لتعـبّر عـن هـذه الحـالات بالبلاغـة اللافتـة؛ منهـا مـا يـدلّ عـلى الندّيـة، ووجـوب المعاملـة بالمثـل وأزوَد. **مـين شـافَك بعـين، شُـوفو بتْنَـيْن. والرطـل بـدو رطـل ووقيّـة**، في المعنيـين السـلبي والإيجـابي. وكذلـك يقـول المثـل في المعنـى نفسـه: **مـين رادَك ريـدو ومـين راد بُعـدك زيـدو.** ويتـدرّج المثـل ليصير أكـثر جفافـاً وصراحـة بالمعنـى السـلبي: **يـلّي باعـك ببصلـة، بيعـو بقشرتهـا**، إلى أن يصـل إلى التعبـير الأكـثر عنفـاً: **يـلـي دعـس عــ إجـرك، ادعـس عــ رقبته.**

أمـا في مجـال القـوة التـي لا يقربهـا القلـق والخـوف مـن خفوتهـا، أو تراجعهـا، يقـول المثـل مـن بـاب الاطمئنـان عـلى الوضـع الراسـخ قـوة وسـلطاناً: **يـا جبـل مـا يهـزك ريـح.** وفي قـول آخـر يظهـر الفـرق الشاسـع بـين صاحـب السـلطة والقـوة، والآخريـن: **شـو بـده يلـقّ الكلـب مـن البحـر؟** أيضـاً في المعنـى نفسـه،

وبتعبير مغاير: **شو بيضرّ السما من عياط الكلاب؟** أيضاً: **شو عـ بال عكا من هدير البحر؟**

ولأن السلطة تجلب المضرّة في أحيان كثيرة، جاء المثل ليوصّف هذه الحالة بقوله: **تِلْم الأعوج من التور الكبير.** ويعود المثل ليقول إن السلطة ضرورية، ولا بد منها؛ بضعفها أو غيابها تعمّ الفوضى: **غاب القط إلعب يا فار.** ولأن السلطة مهابة، وصاحب السلطان قليل الظهور ويوحي بالقوة والبطش، ما يجعله فوق قدرة البشر، جاء المثل ليقول إن صاحب السلطة إنسان عادي لا يختلف في شيء عن غيره من الناس: **خسّمنا الباشا باشا، تاري الباشا زلمه.** ولأنه مُهاب، كل الناس تطلب رضاه. ولكن في حال عزله أو موته، لا أحد يعيره أي اهتمام. ولهذا قال المثل: **مات المير ما حدا اهتم فيه، مات كلب المير، كل الناس عزّت فيه.**

تعمل السلطة في دائرة مختصّة بها، إن كانت بيتاً أو حارة أو مدينة. لذلك أعطى المثل اهتماماً بالسلطة القائمة في دائرة محدّدة، فيقول: **الكلب في بيته سبع.** أيضاً: **الديك على مزبلته صيّاح.** كذلك أعطى المثل أهمية لخادم صاحب السلطة، فيقول: **الكلب عـ باب صاحبه نبّاح.** ولأن الناس يخضعون للقوي الذي يستبد بهم، قيل إن **الناس متل سمك البحر: الكبير بياكل الصغير.** ولأن الأمر هكذا، ظهر القبضاي الذي ينصر الضعيف ضد القوي، وخصوصاً عند تفكّك السلطة أو ضعفها، فينظر إلى البطل الشعبي هنا على أنه **قبضاي شبعان حليب أمو.** وللسلطة ضرورة وجود، لإحقاق الحق ونشر العدالة، لذلك قيل من أجل ذلك: **إذا أردت أن تُطاع، فاسأل المستطاع.** ومع ذلك، تبقى السلطة مطلوبة لذاتها، ولا يتوانى صاحبها أن يؤبّدها في ذاته، ولا يتخلى عنها إلا بالقوة أو بالموت. لذلك قال المثل: **الديك بيموت وعينو بالمزبلة.**

مجموع هذه الأمثال هي:

الديك بيموت وعينو بالمزبلة.

العين ما بتعلى عن الحاجب.

العين ما بتقاوم مخرز.

الكلب بيبيتو سبع.

الكلب عـ باب صاحبه نبّاح.

الناس مع الواقف.

إذا أَرَدْتَ أن تُطاع ، فاسْأَل المُستَطاع.

إللي بياكل من خبز السلطان بيحارب بسيفو.

أعلى ما بخيلك.. إركبه.

أنا أمير وإنت أمير ومين بيسوق الحمير؟

تِلْم الأعوج من التور الكبير.

خسّمنا الباشا باشا، تاري الباشا زلمة.

ريّسين بفرد مركب بيغرق.

سِيد وميد واعمل متل ما تريد.

شو بده يلقّ الكلب من البحر.

شو بيضرّ السما من عياط الكلاب.

شو عـ بال عكا من هدير البحر.

عناية القاضي خير من شاهدين.

غاب القط إلعب يا فار.

قال له مين معلّمك الذوق؟ قال له المعلّق فوق.

قالوا: يا عنتر مين عنترك؟ قَلُّن: عِنْتَرت وما حدا ردّني.

قالوا لفرعون مين فرعنك؟ قال: ما شفت حدا حتى يردني.

قبضاي شبعان من حليب إمّو.

كل ديك على مزبلتو صيَّاح.

كلبين ما بيتفقوا ع عظمة.

كلهن روس متل البطيخ.

مات المير ما حدا اهتم فيه. مات كلب المير، كل الناس عزّت فيه.

متل السمك بالبحر: الكبير بياكل الصغير.

من شافَك بعين، شُوفو بتْنَيْن.

مين رادك ريدو ومين راد بُعدك زيدو.

يا جبل ما يهزّك ريح.

يلّي باعك ببصلة، بيعو بقشرتها.

يلّي دعس ع إجرك، ادعس ع رقبته.

الرطل بدو رطل ووقيّة.

بلـغ عـدد الأمثـال التـي تـأتي عـلى ذكـر السـلطة والقـوة، ومـا يتعلـق بهـما 34 مثـلاً، وبنسـبة 4.5% مـن مجمـوع العينـة.

التوكّل والقضاء

مـن المهـم التأكيـد عـلى أن العلاقـة مـع اللـه في الذهنيـة العربيـة الإسـلامية متأصلـة في الشـكل والمضمـون اللذيـن لا ينفصـلان عـن الإيمـان الدينـي، ومـن ضمنـه التسـليم بـإرادة اللـه المطلقـة، والحـرّة في فعـل مـا يشـاء في الإنسـان، إنطلاقـاً مـن فكـرة أنـه يسـأل ولا يُسـأل. وهـو وحـده الـذي لا رادّ لحكمـه، والـذي لا يُحمـد عـلى مكـروه سـواه. لذلـك يسـلّم المؤمـن نفسـه إلى اللـه ويتـوكّل عليـه في كل أمـر يقـوم بـه. وهـو يـدرك أن مـا كتبـه اللـه لـه مسـجّل في اللـوح المحفـوظ منـذ ولادتـه. والقضـاء والقـدر صراط يسـير عليـه الإنسـان منـذ ولادتـه وحتـى آخـر حياتـه. وأي تغيـير في هـذا المجـرى لا بـد إلا أنـه محسـوب ومسـجّل. مـن هنـا، يدخـل التـوكل عـلى اللـه مـن بـاب مـا هـو مكتـوب، وبالتـالي لا قـدرة إنسـانية عـلى ردّ مـا هـو مكتـوب، ولكـن يبقـى الدعـاء بإنفـاذ مـا هـو مقـرّر مقرونـاً باللطـف الإلهـي.

أكـثر مـا تظهـر الأمثـال المبنيّـة عـلى التـوكل عـلى اللـه والقضـاء والقـدر في الأوسـاط الشـعبية العربيـة، وخصوصـاً في المجتمـع المـصري. وقـد دفـع ذلـك الباحــث المــصري عــلاء حامــد إلى المحاججــة بقولــه، كــما مــرّ ســابقاً، إن الفلسـفة المصريـة قائمـة، في جـزء كبـير منهـا، عـلى الأمثـال الشـعبية. ويقـدّم الأمثلـة عـلى ذلـك في كتابـه الهـام «الفلسـفة المصريـة مـن الأمثـال الشـعبية»[4].

لذلـك، يمكـن أن نسـتخلص مـن الأمثـال الشـعبية المصريـة معتقـد المصريـين في اللـه، والإيمـان بـه باعتبـاره خالقـاً للكـون، وحافظـاً لنظامـه، وصاحـب

4 . أنظر للتفصيل، الرابط التالي:
http://www.hamedtaher.com/index.php?option=com_content&view=-category&layout=blog&id=65&Itemid=55

القدرة المطلقة على التصرّف بشؤونه في كل ما هو موجود، من الجماد إلى الإنسان. والملاحظ هنا عدم وجود أى نوع من التردّد، أو الحيرة، أو الشك، في قدرة الله المطلقة. وفيما يلي عناصر هذا المعتقد من خلال الأمثال. منها، الإيمان بالله عن طريق العقل: **ربنا ما شفناه.. بالعقل عرفناه.** وهو الواحد الأحد، كما عمر الإنسان: **الرب واحد، والعمر واحد.** وله مطلق الحق في التصرف بملكه: **صبّحنا، وصبّح الملك لله.** وهو وحده المكتفي بذاته، وليس بحاجة إلى أي شيء ليكمل ذاته، لذلك فـ **ما غني إلا الله.** وإذا كان لكل إنسان قدره، فإن الله ساوى بين الجميع بالموت: **ربنا ما ساوانا إلا بالموت،** وهو موجود في كل مكان: **رب هنا.. رب هناك.**

أما في مسألة التوكل، فيظهر في الأمثال الشعبية القبول المطلق بما أراده الله لأن **الخيرة فيما اختاره الله.** حتى ولو أضحت الدنيا رماداً فإن تدبيرها منوط بالله وحده: **تصبح رماد لها رب يدبرها.** لذلك فإن الله لا يترك أحداً لمصيره المجهول، لأن **ربك رب قلوب.** والله بذلك، هو **رب العطا يدّي البرد على قد الغطا.** والله **يرزق الهاجع والناجع، واللي نايم على ودنه.** ويعطي من يشاء بدون حساب: **يعطى الضعيف لما يستعجب القوي.** ولأن الله على كل شيء قدير، قيل إن **ربّنا بيِبْعَت الولد، وبيبْعَت رزقو مَعُو.** وإذا طالت المحاسبة الإلهية، فما ذلك إلا لأن **ربك يمهل ولا يهمل.**

وفي مسألة القضاء والقدر، يظهر أن ما هو مقدّر للإنسان لا يمكن التخلص منه، فـ **المكتوب ما منه مهروب.** ومن الضروري التسليم بما يريده الله، ولا يموت المرء إلا إذا أراد الله ذلك، لأن **ما ياخذ الرقبه (الروح) إلا اللي خلقها.** وعلى الإنسان أن يسلّم أمره إلى الله لأن الدنيا وما فيها يتولاها بنفسه: **تصبح رماد، لها رب يدبرها.** وما يصيبنا فمن الله، وهو مصحوب باللطف الإلهي، لأن **ربنا يحدف البلوه، ويحديها (أي يصحبها) باللطف.** وهو إذا قطع يرأف ويوصل، لأن **ربنا يقطع من هنا،**

ويوصل من هنا. وإذا أحس المرء بالظلم، فعليه أن لا يقنط من رحمة الله، ولا يشكو أمره إلى غير الله، لأن **الشكوى لغير الله مذلّة،** ولو أصابه الظلم من الإنسان المتسلط فلا شكوى لغير الله، وهذا هو الجواب على المثل الذي يقول: **حاكمك ظالمك ولمين بتشكي أمرك؟**

وفي مسألة الحظ التي هي من عناصر القضاء والقدر، جاء المثل ليقول إن على صاحب الحظ العاثر أن يرضى بمصيره، ومن العبث أن يفعل أي شيء لرد القضاء، ذلك لأن **المنحوس منحوس ولو علّقولو فانوس.** وكذلك **اللي ما إلو حظ لا يتعب ولا يشقى.** وإذا كان على الإنسان أن يفعل شيئاً مفيداً لصاحب الحظ المتعثر، فإن ذلك لا يكفي، ولا ينفع الفعل. يقول المثل في هذا الخصوص: **جازة وجوّزتك حظ من وين بجبلك؟** وصاحب الحظ السيئ يموت إذا أصابته السعادة، لأن **المعتّر إذا سِعِد بيموت.**

كل ما تقدم، يدل على أن الإيمان بقدرة الله المطلقة، وبالقضاء والقدر، تدفع المرء إلى الطمأنينة والاستقرار النفسي، وبالتالي إلى العيش بالهدوء اللازم في مواجهة مصاعب الحياة.

وهذه الأمثال هي:

الأرزاق على الله.

الخيره فيما اختاره الله.

الرب واحد، والعمر واحد.

الزعره.. بينش عنها المولى.

الشكوى لغير الله مذله.

اللي ما إلو حظ لا يتعب ولا يشقى.

المعتّر لو سِعِد بيموت.

المنحوس منحوس.. ولو علّقَولو فانوس.

تصبح رماد، لها رب يدبّرها.

جازة وجوّزتك حظ من وين بجبلك؟

حاكمك ظالمك ولمين بتشكي أمرك.

ربّنا بيِبْعَت الولد، وبْيِبْعَت رزقو مَعُو.

رب هنا.. رب هناك.

ربك.. رب قلوب.

ربك رب العطا.. يدّي البرد على قد الغطا.

ربك يمهل ولا يهمل.

ربنا ما ساوانا إلا بالموت.

ربنا ما شفناه.. بالعقل عرفناه.

ربنا يحدف البلوه، ويحديها (أى يرفقها) باللطف.

ربنا يقطع من هنا، ويوصل من هنا.

صبحنا، وصبح الملك لله.

عروسك تحت الإكليل ما بتعرف لمين بتصير.

ما غني إلا الله.

ما ياخذ الرقبه (الروح) إلا اللي خلقها.

يا دايم الدوم.. كل مين إلو يوم.

يا عبدي لا تلوج غير رزقك ما بتحوش.

يرزق الهاجع والناجع، واللي نايم على ودنه.

يعطي الضعيف لما يستعجب القوي.

بلغ مجموع الأمثال التي تناولت التوكل والقضاء والقدر 28 مثلاً من مجموع العينة، وبنسبة 3.8%.

الوطنية والسياسة

ليس من قبيل الصدفة أن تكون الأمثال التي تتناول الوطنية والمسألة السياسية من أقلها إنتاجاً وتداولاً. ذلك أن مفهوم الوطنية والسياسة بمعناهما الحديث والمعاصر ظهرا ودخلا في التداول في الوقت الذي اعتبرت الأمثال من تراث السلف الصالح، ومن عصور مضت كانت مهيّأة لإنتاج الأمثال في شتى الحقول المعرفية التي كانت متراصفة ومترسخة في الذهنية العربية، وقائمة بالوظائف التي وجدت من أجلها، منها التعليم والموعظة والإرشاد. وما كان يحدّ من انتشارها انعدام الوسائل التي عليها القيام بمهام الاعلام والتوجيه في مجتمعات تقليدية، لم يكن من وسائل التواصل فيها إلا الكتاتيب المحصورة مهامها في تلقين أبناء الخاصة المبادئ الأوّلية للقراءة والكتابة والحساب، مع ما تيسّر من المعارف الدينية.

أما العامّة من الناس، فما كان يتمّ تداوله في أوساطهم لم يتجاوز الكلام والقول الذي عليه أن يكون ذا إيقاع ووزن موسيقي على غرار السجع، يسهل حفظه وتداوله. ومن هذا القول ما كان يُعرف بالزجل أو الشعر

العامـي اللذيـن تناولناهـما في كتـاب سـابق[5]، والأمثـال التـي نحـن بصددهـا في كتابنـا هـذا.

ومـع ذلـك، فقـد كانـت السياسـة، منـذ أزمنـة قديمـة، سـيّئة السـمعة، طالما تتعاطـى في شـؤون النـاس إنطلاقـاً مـن العمـل عـلى تأمـين المصلحة الشـخصية، ومـن ثـم توريثهـا. لذلـك يمكـن القـول إن ممارسـة السياسـة لا بـدّ مـن أن تجلـب القـذارة لممارسـها، وتنـزع عنـه الثقـة بـه وبأعمالـه. لذلـك قيـل: **الداخـل بالسياسـة متـل الداخـل بتنكـة الكناسـة.** ولأن السياسـة الممارسـة تجلـب المنفعـة الشـخصية لممارسـها، فـلا بـد مـن أن ينقلـب عـلى حلفائـه وأصدقائـه إذا اقتـضى الأمـر ذلـك، مـا يعنـي أن **السياسـة مـا إلهـا ديـن.** ولأن السياسـة تبنـي مسـتقبل ممارسـها عـلى توقّعـات، فدائمـاً يقـال إن السـياسي يمكـن أن يخطـئ في توقّعاتـه ويمكـن أن يصيـب، مثـل الـذي يشـتري **سـمك في بحـر،** خصوصـاً في زمـن التحـولات الكـبرى التـي تسـود فيهـا الفـوضى، حيـث **ضاعـت الطاسـة**، قبـل انقشـاع الأجـواء.

أمـا أهـم مـا تناولتـه هـذه الأمثـال، فهـو وجـوب العمـل عـلى اسـتقرار المجتمـع، والعمـل عـلى تطويـره وازدهـاره. وهـي عنـاصر سياسـية أساسـية تصلـح لـكل زمـان ومـكان. لذلـك مـن المهـم القـول إن **إصـلاح الرَّعيّـة أنْفَـع مِـنْ تكتـير الجنـود،** مـا يعنـي أن البـلاد لا تُقـاد بالقمـع والظلم وكبـت الحرية، بـل بالاصـلاح والعمـل عـلى بـث الطمأنينـة، وتطويـر المجتمـع، بمـا يضمـن الرفاهيـة والاسـتقرار. والمزاحمـة عـلى ممارسـة السـلطة والـصراع المرافـق لهـا تخـرب البـلاد بـدلاً مـن إعمارهـا، لذلـك قيـل: **إذا بـدّك تخـرب بـلاد، ادْعـي عليهـا بكـتر الرؤسـا.** ولأن ذلـك كذلـك، فـلا بـد إلا أن ينهـض صاحـب السـلطة للدفـاع عـن مكتسـباته في الحكـم، وعـلى المنافسـين انتظـار ذلـك، لمـاذا؟ لأن **الـلي بيلعـب مـع القـط بـدو يتحمـل خراميشـه.** ليـس هـذا فحسـب، بـل

---

5 . عطيه، في الثقافة الشعبية العربية، المعنى في القول والمغنى، مذكور سابقاً، 256ص.

الـذي عليـه أن ينافـس وينحّـي الحاكـم عليـه ان يكـون قـادراً عـلى ذلـك، وإلا عـمّ الخـراب، لأن **الـشي بـدو كفايتـه.**

ومـن المهـم أن نلمـح في الأمثـال مـا يـدل عـلى الوطنيـة التـي لم تكـن قـد تبلـورت بعـد في ظـل غلبـة الانتـماء الدينـي لـدى كل الأطـراف، فنقـرأ مـا يـدلّ عـلى الانتـماء إلى البلـد، في تجـاوز ملحـوظ للانتـماء الدينـي، مثـل: **الـرزق إلـلي مـا ببلـدك لا إلـك ولا لولـدك.** والزوجـة الغريبـة لا يمكـن ان تحـلّ محـلّ بنـت البلـد، لذلـك يقـال: **تزوّجنـا وجبنـا غريبـة، زوان بـلادك ولا القمـح الصليبـي.** حتـى عـلى الصعيـد المحـلي، كلـما اقتربـت الفتـاة في مسـكنها مـن مسـكن الشـاب، كلـما كان التوفيـق في الـزواج أكـثر احتـمالاً، ولـو كانـت الفتـاة القريبـة أقـل حسـناً وجـمالاً، لذلـك قيـل: **زيـوان بـلادَك ولا حنطِـة حَلَـب.**

مجموع الأمثال التي دخلت في باب السياسة والوطنية، هي التالية:

الداخل بالسياسة مثل الداخل بتنكة الكناسة.

الرزق إللي ما ببلدك لا إلك ولا لولدك.

السياسة ما إلها دين.

الشي بده كفايته.

إذا بدّك تخرب بلاد، ادْعي عليها بكتر الرؤسا.

إصلاح الرَّعيّة أنْفَع مِنْ تكتير الجنود.

تزوجنا وجبنا غريبة، زوان بلادك ولا القمح الصليبي.

زيوان بلادَك ولا حنطِة حَلَب.

سمك في بحر.

ضاعت الطاسة.

بلغ عدد هذه الأمثال في العينة 10، وهي بنسبة 1.5%.

الفردية

لم تحتوِ العينة التي نحن بصددها على أكثر من 9 أمثال تتناول النزعة الفردية في توجّه الإنسان إجتماعياً. ذلك أن هذه النزعة لم تتبلور وتُظهر مفاعيلها إلا في العصر الحديث؛ عصر الثورة الصناعية والمفاهيم الرأسمالية، وسيطرة الليبرالية في الفكر والسلوك. إلا أن ما يهمّ قوله في هذا المجال هو أن النزعة الفردية وحب الذات والأنانية المفرطة انوجدت منذ وُجد الإنسان، وإن كان نمط الحياة في المجتمعات التقليدية، وفي ظل النظم القائمة على السلطة القبلية واعتبارات القرابة فرضت اندغام الفرد في الجماعة، وطغيان الكل على الجزء.

ولأن حب الذات يدخل في صميم الغرائز الإنسانية، مع شحذها وتثقيفها مجتمعياً، بقي ما هو متداول في الأمثال الشعبية. ويظهر ذلك من خلال التأكيد على أن الوجع يضرب صاحبه فقط، ولا يحسّ به إلا الموجوع: **اللي إيدو بالنار مش متل اللي إيدو بالمي.** أما في مسألة الضرر أو الخسارة، فهما منوطان بمن أصيب بهما فقط. لماذا؟ لأن **ما بيعرف قيمة الشيء إلا صاحبه.** وأيضاً: **ما بيشد بالبقرة إلا صاحبها.** وفي المجال نفسه، يستخلص المثل من ذلك كله القول المتداول بكثرة: **ما حكّ جِلدَك متل ضفرك.**

أما في مسألة تفضيل الذات، فهي أولاً، ولا يهمّ ما يمكن أن يحصل بعد ذلك: **بعد حماري ما ينبت حشيش.** وأيضاً: **من بعدي الطوفان.** وهنا لا بد من استحضار عجز بيت من الشعر لأبي فراس الحمداني. **إذا متّ ظمآناً فلا نزل القطر.** وهذا ما يدلّ على وجود النزعة الفردية منذ زمن قديم. وفي هذا الإطار أيضاً تأتي الأمثال لتبيّن أن لكل إنسان ما يتفرّد به

عـن بقيـة النـاس. ذلـك أن **كلّ مـين هَمُّـو عَـ قَـدّو.** وكذلـك كل إنسـان يعـبّر عـن مشـاعره ونوازعـه في طريقـة مغايـرة للآخريـن، لأن **كل مـين خْواتـه شـكل.**

ولأن النزعـة الفرديـة متأصلـة في الإنسـان، يعمـل كل منـا عـلى إظهـار نفسـه بالطريقـة التـي يحبهـا، انطلاقـاً مـن محبتـه لذاتـه، فيقـال: **كل مـين عقلـه عاجبـه.**

ويبقـى القـول إن المثـل لم يهمـل نقـد التصرفـات التـي تصـدر عـن الأنـاني وصاحـب النزعـة الفرديـة الطاغيـة، فيقـول: **بيحـرق حـارة تــ يولّـع سـيكارة.** ولكـن لا بـد مـن التأكيـد عـلى أن كل امـرئ مسـؤول عـن تصرفاتـه الصـادرة عـن العقـل. وبالتـالي لا يمكـن في أي حـال إنـكار الفرديـة، ومـا يصـدر عنهـا. فهـي محرّكـة النفـس البشريـة، والسـائرة بالإنسـان إلى التألـق والإبـداع، ولكـن ضمـن إطـار مـا يفيـد المجتمـع، ويعمـل عـلى ارتقائـه ورقيّـه، دون الإضرار بالآخريـن. وكل إنسـان في الأخـير مسـؤول عـن نفسـه، ولـه مصـيره الخـاص في التعاطـي مـع شـؤون الحيـاة. لذلـك يقـول المثـل: **يـا دايـم الـدوم.. كل مـين إلـو يـوم.** وبالطبـع كل يـوم يختلـف عـن اليـوم الآخـر.

وهذا هو مجموع الأمثال التي تتناول النزعة الفردية:

اللي إيدو بالنار مش متل اللي إيدو بالمي.

بعد حماري ما ينبت حشيش.

بيحْرُق حارَه تَيْوَلَّع سيكاره.

كل مين خواته شكل.

كل مين عقله عاجبه.

ما بيشد بالبقرة إلا صاحبها.

ما بيعرف قيمة الشيء إلا صاحبه.

ما حكّ جلدَك مِتل ضفرك.

يا دايم الدوم ... كل مين إلو يوم.

بلغ المجموع 9 أمثال من أصل 750 مثلاً، بنسبة 1.2%.

يتبين لنا مما تقدم، تدرّج أهمية الأمثال وأولوياتها في الذهنية العربية، حسب ما ظهر في العينة المنتقاة، على ما جاء في الفصلين الخامس والسادس. وقد جاءت الأمثال التي تتناول القيم الاجتماعية في المرتبة الأولى، تليها الأمثال التي تحتوي على التماثل والتضاد في المسائل التي تهمّ العرب في مجرى حياتهم اليومية؛ ومن ثم جاءت الأمثال التي تعبّر عن العلاقات الاجتماعية، وعن العلم والمعرفة. تلتها تلك التي تتناول العائلة في كل أعضائها، والأمثال الواقعية، بالإضافة إلى الأمثال التي تعبّر عن السلطة والقوة، إلى أن نصل في الأخير إلى تلك التي تعبر عن الفردية، مروراً بأمثال التوكل والقضاء، والسياسة والوطنية.

من الماضي إلى الحاضر والمستقبل

من المهم القول، في نهاية هذا المطاف، إن حضارة أي شعب لا تظهر للعيان، ولا إلى الباحثين إلا من خلال تراثه الشامل الذي يحتوي على جملة إنجازاته في شتى شؤون الحياة. والتراث هذا، بثقافته المادية واللامادية، وبتوجهه النخبوي أو الشعبي، يُظهر إلى أي مدى وصلت ثقافة هذا الشعب، إن كان بالمقارنة مع ثقافات الشعوب الأخرى، أو بالمقارنة مع المسيرة الاجتماعية التاريخية لهذا الشعب، من خلال ربط حاضره بماضيه، من جهة؛ ومن خلال مواكبته لثقافات الآخرين وانجازاتهم الفكرية والمادية، من جهة ثانية. ذلك أن الثقافة بكل عناصرها لها حرية الحركة في كل الاتجاهات، كما لها القدرة على التأثير في ثقافات الآخرين، على قدر ما يمكنها أن تقدّم لخدمة الإنسانية.

ولأن لكل مجتمع ثقافته، ولا وجود لمجتمع بلا ثقافة مهما كان متوغلاً في بداوته، أو بدئه في مجرى الحياة الإنسانية، فقد جاء هذا القسم من مدوّنة الثقافة الشعبية العربية لتُظهر إنجازات العرب في ميدان الطب والأمثال، باعتبارهما الحاجتين اللتين لا يمكن الاستغناء عنهما في التعاطي مع المسيرة اليومية لشعوب العرب، إن كان في طريقة المعالجة لمواجهة كل أنواع الأمراض التي يمكن أن تصيب الناس، منطلقين في ذلك من منهجية التجربة والخطأ، أو مما قدمته الشعوب المجاورة والبعيدة في هذا الشأن، والمنتقلة عن طريق التثاقف المتأتي من قوافل التجار والخبرات التي يحملونها، أو عن طريق الحملات العسكرية، وضروب الغزو والاحتلال التي كانت تحكم توجهات تلك الشعوب، وفي تلك الأزمنة، بعد تنسّم شيء من القوة في القدرة على الغزو والتوسع.

هذا على سبيل الطب الشعبي وأنواع العلاج التي كانت سائدة،

والمعتمـدة عـلى كل مـا توفّـر مـن إنتـاج الطبيعـة، جـماداً كان، أو نباتـاً، أو حيوانـاً؛ أو مـن إنتـاج الإنسـان، سـحراً كان، أو شـعوذة، أو موهبـة تغـذت مـما هـو موجـود، ومـن دقـة الملاحظـة والمتابعـة للأقليـة النـادرة مـن النـاس الذيـن شـغلوا موقـع الطبيـب، أو السـاحر، أو العـرّاف، أو الحكيـم.

إلا أن مـا يهـم في هـذا الأمـر، ليسـت الانجـازات الطبيـة التـي أبدعهـا العـرب وقدموهـا إلى العـالم منـذ بدايـات القـرن التاسـع للميـلاد، وحتـى قبـل ذلـك، بـل مـا اسـتند عليـه الطـب العـربي الرسـمي والعالِـم، مـما كان سـائداً مـن وسـائل واهتمامـات الطـب الشـعبي، ومـا اسـتطاع أن يوصـل إلينـا مـن هـذه الوسـائل والأسـاليب، واتُّخـذ كأسـاس للطـب الحديـث الـذي سـار جنبـاً إلى جنـب مـع الوسـائل الطبيـة الغربيـة الحديثـة المعتمـدة عـلى التكنولوجيـا والصناعـة وعلمَـي البيولوجيـا والكيميـاء؛ وهـو مـا اصطلـح عـلى تسـميته بالطـب البديـل، أي الطـب المعتمـد في الأسـاس، عـلى مـا عُـرف بالطـب العـربي الـذي يتوسّـل العـلاج بالأعشـاب، والمعرفـة الدقيقـة بوظائـف أعضـاء الجسـم الإنسـاني، ومـا يمكـن أن يعترضـه مـن صنـوف الخلـل والضعـف والتعطيـل.

أمـا بالنسـبة للأمثـال، فهـي بالإضافـة إلى كونهـا عصـارة تجـارب الشـعب في علاقاتـه، عـلى أي صعيـد كانـت، واسـتخلاص العـبر منهـا، جـاءت بأقـل الـكلام وأدلّـه. وأهميـة ذلـك تكمـن في اسـتحضاره بالطريقـة السلسـة والعفويـة، في مواقـف ومشـاهد مشـابهة لمـا حصـل في المـاضي، وباسـترجاع خلاصتـه، باعتبارهـا حكمـة وموعظـة حسـنة يمكـن الاسـتفادة منهـا في الحـاضر، بإسـناد هـذا الحـاضر عـلى المـاضي في هـذه الحادثـة بالـذات، وبالقـول المسـتخلص منهـا.

ولأن كل حادثـة مرتبطـة بظروفهـا، وبالأشـخاص المشـاركين فيهـا، فـإن مـن المنطقـي أن تكـون ردّة أفعـال هـؤلاء مرتبطـة بهـم بالـذات، وبالظـروف التـي وُجـدوا فيهـا أثنـاء وقوعهـا. لذلـك يمكـن أن تسـتخلص مـن حـوادث متشـابهة في المـكان والزمـان، كـما في أمكنـة وأزمنـة مغايـرة، مـا يمكـن أن يكـون متناقضاً

مع بعضها بعضاً، وما يمكن أن يكون متشابهاً، أو حتى متماثلاً، باعتبار أن ردة فعل الإنسان في مكان ما تجاه حادثة ما، أو مشهد ما، مشابهةٌ لردة فعل إنسان آخر تجاه الموقف نفسه، أو موقف مشابه له.

من هنا يمكن القول إن تشابه تركيب أمثال بعينها دليل إما على الانتقال داخل الثقافة المتنوّعة في مصادرها، أو على تشابه ردات فعل الإنسان في ثقافة ما، مع ردات فعل إنسان آخر في ثقافة مغايرة. فالفعل الإنساني في الأخير مرتبط بظروفه، ويمكن أن تكون ظروف الحياة ومواجهتها واحدة أو متشابهة في أكثر من ثقافة، وفي مناطق بعيدة يصعب الاختلاط فيما بينها .

لذلك وجدنا أن ثمة أمثالاً متناقضة في استخلاص العبر من الموقف ذاته، أو من موقف مشابه، كما يحصل عادة في العلاقة مع صاحب السلطة. كما أن استخلاص العبر من العلاقة مع الجيران التي هي متأتية من تجارب منها ما هو إيجابي، ومنها ما هو سلبي في علاقة الجار بجاره. وقس على ذلك الكثير من الأمثال.

إلا أن ما يهم هو فعل الأمثال فينا. فثمة مواقف كثيرة نتعرض لها في حياتنا اليومية، وتكون ردّات فعلنا العفوية استحضار مثل شعبي يحاكي الحالة التي نحن فيها. وكثيراً ما يختصر المثل، في هذه الحالات، نقاشاً حاداً وطويلاً، بمجرّد ما قال أحدهم، «صدق المثل اللي بيقول»، ويستحضره بحرفيته. فيكون محطّ آخر الكلام.

ولأن الأمثال الشعبية تشكل خلاصة تجارب المجتمع في حياته العملية، وممارساته اليومية، ولأنها الدليل على موقع أي شعب في سلم الحضارة الإنسانية، من المهم الاهتمام بالأمثال وتدوينها وتصنيفها، لتبقى حيّة في بطون الكتب، إذا استدعى عدم الوفاء نسيانها، أو تجاهلها. والتدوين والتصنيف وحدهما لا يكفيان، إذ لا بدّ من العمل على إيجاد المتاحف

الثقافيـة التـي تعتنـي بحفـظ عنـاصر الثقافـة الشـعبية اللامادـية والماديـة معـاً، لتبقـى تحـت أنظـار ودراسـة الأجيـال الطالعـة، لأن مـن لا تاريـخ لـه لا حـاضر لـه ولا مسـتقبل. ومـن لا ثقافـة شـعبية لـه لا يدخـل في عـداد الفاعلـين في الثقافـة الإنسـانية. وعـلى الحـاضر، ومهـما كانـت الظـروف، أن يحافـظ، بـأي طريقـة ممكنـة عـلى تـراث المـاضي مـن أجـل إغنـاء الحـاضر، وليكـون المـاضي والحـاضر ذخـراً للمسـتقبل.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية

القرآن الكريم.

الجر، خليل وآخرون؛ **تاريخ العلوم عند العرب**، مؤسسة الكتاب المدرسي، 1979، طرابلس، لبنان.

الجوزية، إبن القيم؛ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، 1998، بيروت.

الجوزية، إبن القيم ؛ **الطب النبوي**، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، دار الفكر، بيروت.

الحمد، رشيد؛ ومحمد سعيد صباريني، **البيئة ومشكلاتها**، عالم المعرفة 22، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1979، الكويت.

الحمزاوي، علاء؛ **الأمثال العربية والأمثال العامية**، مقارنة دلالية، جامعة المنيا، مصر.

الراسي، سلام؛ **حكي قرايا وحكي سرايا**، الطبعة الثانية، مؤسسة نوفل، 1977، بيروت.

الزهراوي الأندلسي، أبو القاسم؛ **كتاب الزهراوي في الطب لعمل الجراحين**، تحقيق محمد ياسر بكور، وزارة الثقافة السورية، 2009، دمشق.

الساعاتي، حسن؛ **حكمة لبنان**، جامعة بيروت العربية، 1971، بيروت.

الطبرسي؛ **مكارم الأخلاق**، الطبعة السادسة، انتشارات الشريف الرضي، 1972.

العسكري، أبو هلال؛ **جمهرة الأمثال**، الجزء الأول، تحقيق أحمد عبد السلام، أبو هاجر بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، 1988، بيروت.

الغزالي، أبو حامد؛ **تهافت الفلاسفة**، الطبعة الخامسة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، 1972، القاهرة.

القباني، صبري؛ **الغذاء لا الدواء**، (1965)، الطبعة 32، دار العلم للملايين، 2006، بيروت.

القحطاني، سعيد بن علي (جمع وإعداد)؛ **حصن المسلم**، ويليه **الدعاء والعلاج بالرقى من الكتاب والسنّة**، الطبعة الثانية، دار الفجر، 2010، دمشق.

القلسي، عبد الرزاق؛ **الطب الشعبي في تونس**، الثقافة الشعبية، العدد34، صيف 2016، المنامة.

المرزوقي؛ **شرح الفصيح لثعلب**، تحقيق سليمان بن ابراهيم العايد، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

الميداني، أبو الفضل؛ **مجمع الأمثال**، المجلد الأول، المكتبة العصرية، 2007، بيروت.

الميداني، أبو الفضل؛ **مجمع الأمثال**، تحقيق جان توما، دار صادر، 2002، بيروت.

الهاشمي، أحمد؛ **جواهر الأدب**، الجزء الأول، 1965، الطبعة 27، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

إبراهيم، نبيلة؛ **أشكال التعبير في الأدب الشعبي**، الفنون الشعبية المصرية، العدد10، 1969، القاهرة.

إبن البيطار؛ **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، مجلدان، دار الكتب

العلميــة، 2001، بــيروت.

إبـن أبي أصيبعـة؛ **عيـون الأنبـاء في طبقـات الأطبـاء**، تحقيـق نـزار رضـا، دار مكتبـة الحيـاة، 1965، بـيروت.

إبن خلدون؛ **المقدمة**، دار الجيل، بيروت.

إبـن سـينا؛ **القانـون في الطـب**، ثلاثـة مجلـدات، وضـع حواشـيه محمـد أمـين الضنـاوي، دار الكتـب العلميـة، 1999، بـيروت.

إبن منظور؛ **لسان العرب**، دار المعارف بمصر، 1981، القاهرة.

أبـو بكـر الـرازي؛ **الحـاوي في الطـب**، 8 مجلـدات، تحقيـق محمـد محمـد اسـماعيل، دار الكتـب العلميـة، 2000، بـيروت.

أمـين، أحمـد؛ **فجـر الإسـلام**، دار الكتـاب العـربي، الطبعـة الحاديـة عـشرة، 1979، بــيروت.

بـل عافيـة، فاطمـة الزهـراء ، **الأمثـال المغربيـة والبعـد الدينـي في الـتراث الشـفهي**، دار مرسـم، 2013، الربـاط.

جـبر، محمـد كـمال، **المثـل الشـعبي الفلسـطيني**، جامعـة النجـاح الوطنيـة، 2010، نابلـس.

حمود، كامل؛ **تاريخ العلوم عند العرب**، دار الفكر اللبناني، 1990، بيروت.

رحـم، عبـد الـرزاق؛ **الأمثـال العاميـة اللبنانيـة وأثرهـا في المجتمـع**، أطروحـة دكتـوراه، جامعـة القديـس يوسـف، 1982، بـيروت.

رويحـة، أمـين؛ **التـداوي بالأعشـاب**، الطبعـة السـابعة، دار القلـم، 1983، بــيروت.

سـنجقدار، محمـد، **محكيـة طرابلـس وأمثالهـا التراثيـة**، دار الفـارابي، 2015،

بـيروت.

شـعلان، إبراهيـم أحمـد؛ **موسـوعة الأمثـال الشـعبية المصريـة**، 6 أجـزاء، دار الآفـاق العربيـة، 2003، القاهـرة.

صالـح، أحمـد عبـد الهـادي المحمـد؛ **الثقافـة الشـعبية**، العـدد 35، خريـف 2016، المنامـة.

طاهـر، حامـد؛ **الفلسـفة المصريـة مـن الأمثـال الشـعبية**، دار الهـاني للطباعـة والنـشر، 2008، القاهـرة.

عبـود، فـادي ، **معجـم الأمثـال العالميـة والعربيـة مـع ملحـق بالأمثـال الشـعبية العربيـة**، كتابنـا للنـشر، 2013، بـيروت.

عـزت، عـزة؛ **الشـخصية المصريـة في الأمثـال الشـعبية**، مركـز الحضـارة العربية، 2003، القاهرة.

عطيـه، عاطـف؛ شـوقي عطيـه، **جغرافيـة السـكان**، جـروس بـرس، 2016، طرابلـس.

عطيـه، عاطـف؛ **في الثقافـة الشـعبية العربيـة، بنـى الـسرد الحـكائي في الأدب الشـعبي**، جـروس بـرس، 2016، طرابلـس.

عطيـه، عاطـف؛ **في الثقافـة الشـعبية العربيـة، المعنـى في القـول والمغنـى**، جـروس بـرس، 2017، طرابلـس.

عطيـه، عاطـف؛ **في الثقافـة الشـعبية العربيـة، المعتقـدات في التقاليـد والعـادات**، جـروس بـرس، 2018، طرابلـس.

قديـح، ناهـض؛ **الأمثـال العربيـة، دراسـتها ومصادرهـا**، الفكـر العـربي، العـدد49، 1987، معهـد الإنمـاء العـربي، بـيروت.

قـره عـلي، محمـد؛ سـنابل الزمـن، الطبعـة الثالثـة، مطابـع دار الكتـب، 1971،

بيروت.

قطامش، عبد المجيد، **الأمثال العربية**، دار الفكر، 1988، دمشق.

كيال، مها، مارلين حيدر نجار، جان توما؛ **البحر وحضوره في ثقافة مدينة**، اللجنة اللبنانية الوطنية لليونسكو، 2014، بيروت.

مرحبا، محمد عبد الرحمن؛ **الموجز في تاريخ العلوم عند العرب**، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني، 1981، بيروت.

مسامح، عبد الرحمن سعود ، **الثقافة الشعبية**، العدد 3، خريف 2008، المنامة.

مقبوب، إدريس؛ **طقوس العلاج الشعبي بالمغرب**، الثقافة الشعبية، العدد34، صيف 2016، المنامة.

هونكه، زيغريد؛ **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، الطبعة السابعة، دار الآفاق الجديدة، 1982، بيروت.

يعقوب، إميل بديع؛ **الأمثال الشعبية اللبنانية**، جروس برس، 1984، طرابلس.

المواقع الإلكترونية

http://www.tawassol.ma/.html

http://www.ishim.net/ankaadan6/prophetMedicineHerps.htm

http://www.who.int/topics/traditional_medicine/definitions/ar.
http//:www.yabeyrouth.com7535/

http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=127&ID=641&idfrom=718&idto=962&bookid=127&startno=4

http://ibnpalestine.ahlamontada.com/t195-topic

http://www.yabeyrouth.com/7535

http://www.aleman.com/%D8%A7%D984%%D983%%D8%AA%D8%A8/%D8%A7%D984%%D8%B7%D8%A820%%D8%A7%D984%%D986%%D8%A8%D988%%D98%A%20**/i143&n1&p1

http:// Herbs/www.al3laj.com/

http://www.al3laj.com/Herbs/Thyme.htm

http://www.aljazeera.net/programs/religionandlife/20043/6// .

http://ibnpalestine.ahlamontada.com/t195-topic

http://www.medical-centeronline.net/index.php

http://cupping.khayma.com/cupping1.htm

http://cupping.khayma.com/moxa/MOXA.htm

https://ia802304.us.archive.org/29/items/GS147020147020/.pdf

http://al-hakawati.net/arabic/civilizations/255a1.pdf

https://plus.google.com/109202879331230633307/posts/XaSsDiAT5za

http://waqfeya.com/book.php?bid=4368

http://elibrary.mediu.edu.my/books/SDL1329.pdfSDL1329.pdf

http://lebanonism.com/lebwp/?p=39

http://www.eroshen.com/ejabat/index.php/2374

http://www.startimes.com/?t=20440529

http://www.turess.com/hakaek/44463

http://www.al-khechin.com/article/51

http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=40685

http://www.aljazeera.net/news/cultureandart/201319/12/

http://www.hamedtaher.com/index.php?option=com_content&view=category&layout=blog&id=65&Itemid=55

المحتويات